من يجرؤ على الشوق

من يجرؤ على الشوق

حميدة نعنع





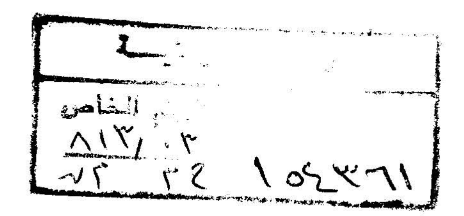
الطبعة الأولى

١٩٨٩

حميدة نعنع

من يجرؤ على الشوق

رواية



دار الآداب - بيروت

إلى الأصدقاء في القاهرة
إلى مصر التي أحب
حميدة

استطاع محمد أن يهرب من السجن

بدا لنا في الضوء الخافت لمقهى «كلوزري دوليلي» كشبح قادم من ضباب التاريخ ما أن وقعت عيوننا عليه يعبر عتبة المقهى حتى نهضنا جميعاً يلفّنا الرعب والدهشة ، والاستغراب وبعض الفرح المجنون لعودة رفيق من الموت . . . لا أدري كيف انطلقتُ نحوه كسهم أعانقه بفرح وأتلمّس حقيقة جسده الحيّ ، عانقته كما عانقت ساعات الفجر الأولى في ليالي الجنوب التي أكاد أنساها وسط هذا الصراع الهائل للبقاء . .

«يا إلـهي ! ها هو محمد يعود إلينا»

هتفنا جميعاً بهذه الجملة التي تبدو في الأيام الرتيبة المملّة عادية وغير مدهشة ، لكن تلك اللحظة من أعمارنا جميعاً سوف نتذكرها ولفترات طويلة عندما تفترق بنا الطرق ونغادر باريس كلٌّ إلى مجهول لا يعرف مداه . . دون شك سوف أتذكّر باستمرار تلك اللحظة الهاربة من الزمن . . لحظة الفرح المجنون الذي غمرنا نحن الأربعة . . عاد محمد بعد أن تضاربت الأنباء قبل أيام بخبر إعدامه . . لم أعد أتذكر اليوم جيّداً كيف وصلني النبأ في باريس . . ربما كان الأخضر هو الذي حمله إليّ وأنا أغادر مبنى المجلّة التي أعمل بها منذ أشهر . . إنه الأخضر دون شك من قال لي وهو يبكي : «أعدم محمد في الصباح الباكر يوم أمس . . أعدم وحيداً على شاطىء المحيط وسط نواح طيور الحجل وضحكة الدكتاتور» .

وبعدذلك . .

مشينا معاً نقطع شارع الشانزليـزه يغسلنا المـطر ، والبرد ، والغـربة القاتلة . . مشينا صامتين كأننـا نودّع محمّـد إلى مثواه الأخيـر ، فتعثّرنـا بالمارّة وأعمدة النور ، ووجوه الغرباء قبل أن نلقي بجسدينا في أول سيارة أجرة تقودنا إلى مقهى «كلوزري دوليلي» حيث كان ينتظرنا عبـد الرحمن وفاضل . عندما اقتربنا من الطاولة التي كانا يشغلانها لمحنا ظلال بؤس ، لا نهاية لعصره على وجهيهمـا . . وقبل أن ننطق بحرف سمعت صـرخة فاضل وسط ثمالته «يا إلّهي ، جاء دورنا ، سيكون مصيرنا جميعاً مثله» . وأدركت دون تعب أن الصـديقين قد تلقيا النبأ الفاجع .

تلك الليلة . . شربنا حتى اختلطت علينا الألوان والكلمات ، ووجوه الزبائن ، وصرخات مارلين صاحبة البار . . سمعت حشرجة عبد الرحمن وهو يكظم غيظه تعقلاً . . وأحسست ابتسامة السخرية على شفتي فاضل تطاردني كسكّين حادّة : «رجل بكلّ معنى الكلمة» . . صمت . . صمت ثقيل بارد فيه شراسة الصراع المسلّح الذي عشته رصاصاً في بيروت . . ويـردّد «إننا مسيّسـون ومتورّطـون أكثر من أولئـك الذين يعيشـون داخـل الوطن» . . لم أعد أذكر من تلك الليلة إلا صراخنا المكتوم . . . وكؤوسنا الفارغة . . غيابنا المطلق عن لحظات تواجدنا معاً . . وغرق كل منا في غربته . وغرقت في الوحدة التي تطاردني دون رحمة . . وحدة امرأة بعد الثلاثين تنتظر بعيـداً عن أرضهـا أن يقف أزيـز الـرصـاص عن اغتيـال أصدقائها واحداً بعد الآخر . . أن يقف وحش الموت الكاسر عن التهام كل ما هو جميل ورائع على تلك الخارطة التي اسمّيها «وطني» . .

عندما تقدّم الليل بنا وأطفئت أنوار المقهى كَنَسنَا عمّال النظافة إلى الرصيف مع الزجاجات الفارغة . . ورائحة التبغ العتيق ، وصرخات باعة الصحف في الفجر . . كان خبر إعدام محمد يطاردنا كذكريات قـاتلة ، وبدت لنا باريس في الصباح ميداناً مظلماً فسيحاً لاغتيال الثيران . . لتدمير

آمال كليلة ، وانهيار آخر الأوهام ، لأمنيات مكدّسة تنطفىء في زمن الغروب والحرب .

لم أعد أذكر أين اتّجهت . . وكيف قضيت يومي ومن رأيت ولمن تحدثت عن إعدامي أو إعدام رفيقي الغائب . . لم أعد أذكر أين ذهب الأخضر ، وعبد الرحمن ، وفاضل . . لم أعد أذكر شيئاً عن ساعات انتظار موت يزحف نحوي في هذه المدينة الغريبة ، مدينة الدخان والصقيع والموت البطيء ؟ كنت أحاول عبثاً أن أستردَّ شيئاً من ذكرياتي القديمة عن الحياة التي قضيت شطراً منها ، في دفء بيروت . . . قبل الطوفان .

لم أعد أذكر شيئاً ، لكنني وجدت نفسي في المساء أتجه إلى المقهى فأهتدي إليه كما يهتدي السكير إلى زجاجته ، وجدتهم قد سبقوني وانتحوا ذلك الركن المظلّل بالعتمة والخيبة يردّدون أسطورة العودة واللاعودة . . ألقيت نفسي على الكرسي وكأنني أهوي إلى قاع الأرض المظلم البارد ، وللحظات ، مرّت حياتي أمام عينيّ كشريط سينمائيّ لا علاقة له بالحقيقة : مولدي وطفولتي في ذلك الجنوب المحتلّ . . أبي وخوفه من الأرض التي تتفجّر خيلاء وفرحاً «أيتها الأرض اخجلي من نفسك» . كان يدير رأسه باتّجاه التلال الرماديّة خجلاً من النظر إلى الربيع المجنون الذي يجتاح الجنوب . . أمي في حقول التبغ وانتظار النهايات المحتومة لامرأة على أبواب الخمسين . . هجرتي إلى بيروت . . الجامعة الأميركية . . الغربة في الوطن . . الميناء المفتوح للجنون والحرية ، والغرب القادم من زمن آخر ، الغرب الذي رحل غازياً وعاد غازياً متّشحاً بالكتب والأغاني وأناشيد آخر الليل . . . ثم الحرب . . الحرب . . الحرب الأهلية التي لم تبق ولم تذر .

ندّت عنّي صرخة مكتومة أيقظت أصدقائي الثلاثة ربما من رحلة مماثلة إلى الماضي تعلقت عيونهم جميعاً بوجهي وأحسست أنني مطاردة بألوف الأسئلة المبهمة التي لا أملك لها إجابات . كان الليل الباريسيّ

العتيق ، ذلك الليل الشتائي الحيادي يلفّ شارع مونبرناس خارج المقهى . . فينشر ظلاله الكئيبة على محطّة الجسر الملكي وتمثال الجنرال (فوش) . عندما عبر محمد عتبة المقهى . . ظننا أنه شبح قادم من الموت استحضرته أرواحنا المجنونة . لكن صرخة مارلين من وراء البار أيقظتنا على حقيقة وجوده «يا إلّهي هذا هو رفيقكم الغائب !» .

ولا أدري . . .

لا أعرف . . لم أعد أذكر التفاصيل ، وإنني لعاجزة أن أستحضر شيئاً منها . .

ـ سيغتالونك .

ـ أسرع بالرحيل ! لا بدّ أنك مطارد ؟

ـ كيف لم تُعدم ؟

تسمّر محمد أمامنا ، وتحوّلنا جميعاً إلى أعمدة دخان . . لا موت . . لا حقيقة . . لا عودة . . لا إعدام . . لا وطن . . هجرتنا اللغة والحروف والعواطف . . بدونا للحظات قبيلة غجر تهمهم بلغات غريبة سحرية خوفاً من المجهول .

وأسرعت أعانقه . تحسّست يديه ووجهه ، وكتفيه . . مررت بيدي على رأسه . . طلبت إليه أن ينطق . . أن يقول شيئاً حتى أتأكد بأنه حيّ لم يُعدم . . عندما شعرت بحرارة أطرافه وسمعت نبض قلبه . . تهالكت من جديد على مقعدي وأنا أتمسّك به كما يتمسّك السجين بجدران زنزانته رافضاً الرحيل إلى المشنقة . . سمعت صوت الأخضر الممزّق يطعن لحظة لقائنا بالرفيق العائد إلينا . .

ـ قلت عليك بالهرب ، لا تظنّ أنك بعيد عن أيديهم . . اشتروا المنافي يا محمد !

وصرخت دون وعي أو إدراك في وجهه :

ـ اسكت أيها البوم ، لم أسمعك مرة واحدة تنطق بالفرح .

صفعت كلماتي الأخضر بأسى ، فغرق في الصمت . . صمت رمادي بعيد المدى لفّنا جميعاً ، وعدنا إلى مقاعدنا كأننا نقرّ بحقيقة ما قاله الأخضر قبل لحظات . رفع فاضل يده في الهواء ملوّحاً لنادل المقهى :

ـ أيها المواطن زجاجة ويسكي احتفالاً بعودة محمد، زجاجة ويسكي أيها المواطن !

تضاربت أسئلتنا وأصواتنا ، تكلّمنا كثيراً ، أطلقنا أصواتاً أشبه بأصوات الغربان المنفيّة عن الغابات . . . أمطرنا محمد العائد من كفن الإعدام أسئلة ، وظلّ صامتاً يتأمّلنا كأنه يتأمّل لوحة جليدية . . وأخيراً قال :

ـ أما زلتم هنا ؟

كان السؤال الذي ألقى به على رؤوسنا قنبلة موقوتة ، تفجّرت بين أقدامنا فتطايرت شظاياها لتفتح جروحاً نحاول كل يوم أن نجد لها دواء . .

«وأين تريد أن نكون ، في نابلس ؟ في رام الله؟» قال فاضل بكسل وقهقه الأخضر بشتيمة ، وسمعت عبد الرحمن يردّد بيتاً من الشعر يتذكره في كل لحظة «ومن لم يمت بالسيف مات بغيره» ثم سكتنا . صمت عميق لا قرارة له لم يُخرجنا منه إلا صوت محمد يروي لنا وسط ثمالته :

«وشدّوا عصابة على عينيّ ثم اقتادوني إلى شاطىء المحيط وحيداً . . كان الدكتاتور ـ كما عرفت فيما بعد ـ ينظر إليّ من شرفة قصر بناه له مهندس في تلك البقعة من الأرض ، يدخن سيجاراً كوبياً فاخراً . . يحاول أن يسترق السمع والنظر لمشهد إعدامي . سألني الجلاد : مَنْ تريد أن ترى قبل موتك ؟ ودهش ثم ارتعش خوفاً وأنا أجيبه «أريد أن أرى الدكتاتور» ، ثم أشرت بيدي إلى نافذة القصر حيث يلوح شبحه وراء الزجاج . وارتعد الجلاد خوفاً . . رأيت حبّات عرقه البارد

تتساقط على وجهه . . حاول أن يقول شيئاً ، حاول أن يجد كلماته بصعوبة . . سمعته يسألني من جديد : ومن تريد أن ترى قبل إعدامك ؟ قلت له مرة أخرى : «أريد أن أرى الدكتاتور» .

صمت محمد لحظة وهو يتأمل وجوهنا ، سكب لنفسه كأساً ثم رفعها .

- في صحّتكم أيها الرفاق الجبناء . . في صحة تشرُّدكم !

رفعنا كؤوسنا بحركة آلية وردّدنا جملته دون وعي : «في صحّتنا أيها الرفيق» وظل محمد يحكي لنا قصة إعدامه بتلذّذ غريب . . بينما يتثاقل لسانه :

«وبعد ذلك ذهب الجلّاد ليخبره وعاد مهرولاً نحوي ففكّ وثاقي ورفع يديه في الهواء ليأمر الجند بتنكيس أسلحتهم . ثم اقتادوني إليه بحراسة عشرة رجال مدجّجين بالسلاح . . وعندما كنا نصعد سلّم القصر تذكّرت أول مرة التقيته فيها . كان ذلك في جنوب الصحراء عندما كانت الحرب ضد الإنكليز . يومها كان الدكتاتور ما يزال يتمتع بسمعة أبيه الطيّبة الذي رفض إحناء قامته أمام الغرباء . جاءنا متطوّعاً . . محارباً ليقول لنا : إنه قرّر القتال إلى جانب الشعب حتى يستردّ الوطن كرامته ، وصدّقناه جميعاً . ثم أصبح واحداً منا . عرفنا فرداً فرداً ، وأدرك بذكاء الحاكم الذي يرضعه مع لبن أمه نقاط ضعفنا ، ثم . . ثم كان ما تعرفون . .» .

صمت محمد قليلاً وغرق وجهه الخمسيني في ضباب الماضي . للحظات قليلة أحسسنا أن الأرض تدور بنا جميعاً . . لم يجرؤ أيّ منا على طرح سؤال واحد عن نهاية القصة . . وكأنه أدرك عجزنا وخوفنا فاستمرّ في حديثه وسط ضجيج زبائن آخر الليل .

«وقادوني إليه في قصره . . عندما تقابلنا سألني الدكتاتور لماذا أطلب رؤيته قبل الموت ؟ ثم ذكّرني بأن الحكم بالإعدام الذي أصدره عليّ

بالأمس لم يكن إلا ترجمة مبسطة لعواطف الجماهير . قال لي : علّك تذكر أنه الحكم العاشر الذي يصدر في حقك ؟ هززت رأسي دون أن أجيبه بشيء . تأملت وجهه الذي لم أره منذ الحرب . . ومرت في ذاكرتي وجوه رفاقنا الذين قاتلوا ليستقر في قصره . . نفث الدكتاتور دخان سيجاره الكوبي الفاخر فحجب الدخان رؤياه . كنت أريد قبل إعدامي أن أسوّي الحسابات بيننا : دم رفاق غطّى جدران الزنزانات الرطبة . . اغتصاب نسائنا من قبل جنده على مرأى من أطفالنا . . صرخات التعذيب الوحشي تخترق صدر الليل والصمت . . تطوي ملايين الليالي والمسافات باتجاه المنافي . . المنافي . . المخابىء السرية . . الموتى يمشون في أكفانهم صاخبين . . جبروت القهر وتلك الآيات . . نُذر الكوارث وطلائع المطر . . مقدمات السقوط التي رمانا بها الدهر بأخبارها الكاذبة . . لتقضي على آخر حلم أو وهم. لن أموت اليوم فليذهب إلى سرير موته غداً» .

يغرق محمد في صمت بارد رماديّ تشعّ ملامحه البدوية بملايين الأسرار وعجز سنوات المنفى . . ندرك أن صمته أكثر مرارة من كلامه . .

«أيها الرفاق لم يعد هناك ما يمكن قوله» .

نغرق جميعاً في الصمت القاتل . وعبر صمتنا ثمة صراع بين الرغبة في الحرب أو الهرب من سماع نهاية قصة محمد . . مجابهة اللحظة . . الأزمة . . الكلمات المساوية للموت . . كنت أشعر رغبة الاحتماء بشيء يبرّر عجزنا عن المضيّ إلى غايات نتمناها . . ارتعاشة صوت محمد وصرخة فاضل المكتومة لم تكونا مجرد أغنية رديئة . كانت أصواتنا في ذلك الليل الباريسي صدى أبعد وأعمق من صرخات التعذيب . ها نحن نكتب القصة ألف مرة وبشكل أردأ مما كتبت للمرة الأولى . ها نحن نخون أنفسنا ألف مرة وبشكل أفضل . . نواجه أهدافنا بالهرب والكؤوس الفارغة ، والليل الصقيعي ، والتشرّد الأعمى ، لو كنا هناك ، لو عدنا لكانت كل كلمة نلفظها تساوي موتنا، لا فائدة من الندب والهرب إلا إذا

مات الفارس وهو يمتطي صهـوة جواده . . إننـا نحيل أنفسنـا إلى الآخر ونكفّ عن معرفة ما ينبغي أن نكون في هذه الغربة . . . وتمرّ اللحظات ، ويمرّ الصمت .

ـ «يجب أن تبحث عن مخبـأ لـك هــذه الليلة ، لا بــد أنّهم في أثرك» . . قال الأخضـر مرة أخـرى ، وهزّ محمـد رأسه ، وضحكت أنـا بشكل هستيري .

ـ إن السمكة لا حاجة بها إلى الماء في الماء . .

صمت حقيقي بارد ، وهؤلاء الرفـاق الأربعة كـل منهم جاء من بلد عربي رغم اختلاف المدن وأسماء الأزقّة والحواري التي ولـدوا وعاشـوا فيها . . . رغم اختلاف النظم السياسية . . . رغم الحروب الأهلية ذات الأسماء المتعدّدة ، نحن مطاردون هنا لا نتذكر أسماء مدننا بالتحـديد . وكثيراً ما كنا نطلب إلى الأخضر أن يتذكر اسم مدينته .

ـ تـذكّر اسم مـدينتـك يـا أخضـر . . تـذكّـر هـل مـا زلت تسمّيهـا «العدم ؟» .

يضحك الأخضر بسذاجة ويردّد :

ـ وما هي أسماء مدنكم أيها الأغبياء؟ . . أنا أجرؤ على التسمية، أما أنتم فلا . . .

وهكـذا ، بالـرغم من تلك الأبعاد التـراجيديـة السحريـة التي كـان يضفيهـا حديث الأخضـر علينا ، استـطعنا منـذ زمن وزمن ، بين روايـة ورواية . . . بين قصة متخيلة وأخرى لها علاقة ما بالواقع . . بين شتيمة وشتيمة . . . استطعنا أن نعرف أن اسم مدينة الأخضر «العدم» إنـه اسم حقيقي . . قرية صغيرة تمتدّ على طـرفي نهر السنغـال ، وبعض بيوتهـا الطينية يقع في موريتانيا ، والبعض الآخر في السنغال . . في قلب أفريقيا البائسة .

وذات مرة حكى لنا الأخضر شيئاً عن رحيله من مدينته . . . كان قد شرب كأسه الخامسة حين تكلم :

«غادرت مدينة «العدم» إلى المشرق ، علّني أجد جذوري ، أو هكذا خيّل لي وبعد ذلك بحثت طويلاً عن «الأمّة» . . عن تلك الأمة التي قرأتها في أشعار لبيد ، وقيس بن الملوّح ، والشنفرى . لكنني لم أجد إلا تابوتاً يمتدّ من الخليج إلى المحيط ، قررت ذات يوم أن ما قرأته في الكتب لا ينتمي إلى الحقيقة فتركت المشرق إلى باريس .

وبعد ذلك . . . ؟

« تعرّفت إلى نادية القادمة من بيروت . . صدفة رأيتها في ذلك الركن من مقهى «كلوزري دوليلي» ، تشعّ عيناها على العالم كلّه بؤساً وحياة . . . وصرخت : هذه اسبارطة . . هنا في عينيْ هذه المرأة تلتقي الحقيقة والقوة الغامضة . . إنني آتٍ من العدم» .

ضحكنا جميعاً ، وصمت الأخضر ، وكان محمد قد صمت قبله منذ لحظات ، صمت فاضل وغرق عبد الرحمن في بؤرة الحزن الذي يهاجمه فجأة .

كان عليّ أن أبتسم قليلاً لأبدّد لحظات الحرج التي فاجأتنا بعودة محمد ، لو كان قد مات هناك لوجدنا أسباباً تبرّر لنا الاستمرار في المنفى والضياع . كانت عودته إلينا إدانة كما كان رحيله إدانة من نوع آخر . . أخذت يده بين كفّيّ علّني أتّصل بعالمه الدامي .

كان مذياع المقهى يبثّ أغنية فرنسية قديمة .

«نحن لم نشهد رحيل الفرسان السود . . .

نحن لم ننتظر في المضائق . .

وإذا عاد الفارس يوماً سيجد عينيك مترعتين بالفرح» .

ارتجفت كفّه بين كفّيّ كحمامة أصابتها طلقة صيّاد بارع . . كان بائساً وحزيناً ، وكنا أكثر بؤساً . . منذ شهور . . منذ أيام . . لم نعد

نعرف بالضبط كيف جمعنا هذا المقهى . . كيف تعوّدنا الطريق إليه . . كيف التقت مصائرنا في تلك المدينة . كلّ منا كان بحاجة إلى أهل ، إلى أصدقاء ، إلى عشيرة ، تمسّك كلٌّ بصاحبه كما يتمسّك الغريق بخشبة تطفو على سطح نهر مجنون الجريان . . في الأيام الأولى للقائنا قرّرنا أن نشكل حزباً سياسياً عربياً في هذا المنفى هدفه إسقاط كل شيء قائم وراء البحر .

بعد مرور أيام أخرى على اللقاء قرّرنا أن نترك فكرة تأليف الحزب إلى تشكيل «لجنة دفاع عن حقوق الإنسان في الوطن» .

بعد مرور أيام أخرى على اللقاء قرّرنا أن نأتي كلّ يوم إلى المقهى لنناقش أحداث العالم فقط .

وبعد مرور أيام وأيام تحوّلنا إلى مجموعة مثقّفين يهزأون بكل شيء . في البداية قاومت استسلامنا للتّيار حتى أنني كنت أحلم بالعودة إلى بيروت وأؤمن بالقدرة الكلية للتصوّر ثم أعيش الحياة وأنا أنظر إلى نفسي من الجهة الأخرى . . جهة الغاية : نهاية الحرب الأهلية في وطني . . توقّعت أن تنتهي خلال أيام قليلة قادمة ، وعندما أدركت حقيقة عناوين صحف الصباح كلّ يوم ، بحثت عن عمل في باريس يؤمّن لي إمكانية الاستمرار وتحوّلت إلى زبون دائم لمقهى «كلوزري دوليلي» .

يسألني محمد وهو يسحب يده من بين كفيّ .

ـ وماذا عن بيروت ؟

قلت :

ـ لا جديد . . كما تركتها مذابح ، سيارات مفخّخة ، موت فجائي . وحبّ لا معنى له .

قال «الأخضر» موجّهاً حديثه إلى محمد :

ـ لم تُتمّ روايتك . . كيف هربت من الموت ، دعك من بيروت وأخبارها . .

غرق محمد في الصمت من جديد فأدركنا أن الحديث عن ظروف هربه لا بدّ أن تكون قاسية . في هذه اللحظات كدنا ننسى أنه عاد . . كدنا ننسى أنه رحل عنا . . لكن صوته جاء من أعماق الليل . . جاء صوته يائساً . .

ـ ليس مهمّا كيف هربت من السجن . . لقد تدبّر الرفاق أمري ، لكن المهمّ أن ثلاثة منهم أعدموا بعد أن علم الدكتاتور بهربي . .

وتحوّلنا إلى قطعة صمت جليديّة . . خبط الأخضر على المائدة فاهتزّت الكؤوس والزجاجات ثم صرخ بصوت مذبوح :

ـ أعدم ثلاثة من رفاقك كيف ؟ من ؟ ومتى ؟

أحسست أن «محمد» يعاني سكرات عذاب بالغ ، ظلال حزن كربلائيّ تطارده بعنف . . وعدنا جميعاً إلى الصمت . . وأدركت أن سجون العالم كلّها فتحت في وجهي في تلك اللحظة .

كان علينا أن نفكّر بسرعة كيف نؤمّن مبيت محمد هذه الليلة ، علّه يستردّ شيئاً من الاطمئنان ، علّنا نحن نستردّ شيئاً من الوعي . . . وتمطر فوق رؤوسنا ، أتأمّله إلى جانبي يسير في عتمة الليل . . أصوات الليل والغربة من حولنا . . وحده محمد ينتمي إلى أرستقراطية الثّوار الغائبين أبداً الحاضرين أبداً . نحن جميعاً ننتمي إلى بؤس من لا وطن لهم رغم اتساع مساحات الأرض خلف البحر . . ها هو يسير في عتمة الليل . . قصير القامة ذو عينان نسريتان واحد من أولئك الذين أقلقوا نوم الدكتاتور . . حكم عليه عشر مرات بالإعدام ولم يمت . . عاد إلينا ، لكن الحرب الخفيّة بين رجلين هو والدكتاتور لم تنته ، وقال في تلك الليلة إنها لن تنتهي أبداً . وحده محمد حتى اليوم يظن أن حرب التحرير لم تنته . . . وحده سمعته يقول وهو يقاوم صقيع آخر الليل : « إن تحرير الأرض يقع على عاتقي » وأجبته دون وعي مني : « أيّ أرض تقصد ؟ » .

كنت أعرف أن نهاية محمد محتومة ، أعرف أنها ستكون اغتيالاً أو إعداماً . . بل ربما اختناقاً في مخبأ سري من مخابىء هذا العالم الذي يتحرك فيه بآلية عجيبة ونصبُ عينيه هدف واحد هدف واحد : العودة إلى وطنه . .

«هل كان محمد رجل سياسة في الماضي ؟» . .

طرحت هذا السؤال ذات ليلة من ليالي «كلوزري دوليلي» على الأخضر بعد انضمام محمد إلى شلّتنا ، فقهقه الأخضر . . وأجابني بصراحة وقسوة : «إنه لا ينتمي إلى أولئك الذين لا يجدون أنفسهم إلاّ عبر الحضور العلني وكاميرات المصوّرين ، وأجهزة التليفزيون . . إنه لا ينتمي إلى عالم الذين يبحثون عن صورهم وأسمائهم في قائمة المسؤولين عن السلطة» .

وكنت أعرف جيداً . .

كان عبد الرحمن يدرك أيضاً . .

أما فاضل فكان إذا غاب محمد يظلّ الوحيد القادر على تفسير غيابه . ننتظره في زاوية المقهى ، طويلاً ننتظر . . بيننا جبال ، بحار ، وأنهارٍ ، وحدود ، وأعلام ، بيننا وبينه شمال القارّة ، وشرق المتوسّط ، كنّا ننتظره في زاوية المقهى بينما هو ينتقل بسرّية مطلقة بين تجمّعات العمّال العرب المهاجرين . . يمشي من الظل إلى الموت ويؤمن أن الله ما زال يصنع المعجزات . . كان محمد يعيش بيننا دون أقنعة أو نظريات إيديولوجية ، وكنا نحدّثه من وقت لآخر عن إعادة صياغة العالم . . يضحك ويهزّ رأسه . . يرمينا بحقيقة حياتنا هنا كيف نعيش في الهجرة ؟ ، ونسكن صحراء مدينة غريبة لا تعنينا . يقول : كان يقول لنا : معذرة أيّها الأصدقاء ، أما أنا ، فقد قرّرت أن أبدأ التاريخ من نهاياته ، لا وقت لديّ للبكاء والنظريات ، يقول محمد ذلك أبداً ، ويذكّرني الأخضر هامساً : (مضى على هجرته خمس عشرة سنة وها هو

يحلم بتشكيل جيش من المتمرّدين ، ونواة مؤمنة من رفاقه المنتشرين في المنافي ليعود بهم إلى الأرض) .

عندما كان الأخضر يمازحه في ذلك الركن من المقهى (لن تكون لينين العرب ، إنك لا تملك روحه المتآمرة التي صاغت مستقبل البلاشفة) . . ينتفض غضباً ويجيب : (المستقبل لا يحتاج إلى مؤامرة . . إنه يحتاج إلى الحلم) . وإذا أصرّ الأخضر على موقفه ، ردّد محمد : «إن التاريخ لا يصنعه المتآمرون» .

يسير إلى جانبي في عتمة الليل . . يسير إلى جانبي . .

يسير محمد وعبد الرحمن ، وخالد ، وفاضل ، في عتمة الليل وتحت المطر . أسمع صوت عبد الرحمن : ««أيّها الصديق ، لقد علّمك السجن أن تكون أعظم» . وأتوه في ذلك البحر الممتدّ من عينيّ حتى بيروت ، أسمع أزيز الرصاص وصوت الموتى فأعطي نفسي لهذا الماضي الحاضر لأنزف ألماً وحسرة وذكريات .

قال : «علينا أن نتدبر أمر مبيت محمد» .

فات الوقت . . مرّ جزء من الليل . . لا شرطة ولا جلّادون . . لا دكتاتور لا محيط . . لا طيور حجل . . باريس وحدها تحتضن تشرّدنا وعيوننا ، وهمومنا ، منذ زمن توقّفت عن كتابة الرسائل إلى صديقاتي لأخبرهن عن «جان بول سارتر» ومرضه القاتل . منذ زمن توقّفت عن قراءة «أندريه بريتون» لأحتلّ أنا وأصدقائي الطاولة نفسها التي كان يحتلّها في الماضي . . منذ زمن لم أطلب رقماً هاتفياً في بيروت . . قالوا : «كل الطرق مؤدّية إلى بيروت» . . وهأنذا لا أجد أمامي إلا أحجاراً وأرصفة في هذه المدينة . . . إذن هل خدعتني «كاتيا» يوم حدّثتني في «كافتريا الجامعة الأميركية» عن مدينة تفتح صدرها لكل الغرباء . . تعيد كتابة (الزا تريوليه) . . وتجعل (بيكاسو) يرى (رامبرانت) من جديد ثم يرسم سطوح برشلونه ومداخن باريس ؟

هل نسيت كاتيا صديقتي في زحمة حديثها عن «أبولينير» و«ماتيس» والأب «كوتورييه» وهو يردّد . . لو كان المسيحيّون يطرزون حياتهم بالفضائل التي وضعها سيزان في لوحاته لكان العالم يسير بشكل أفضل ، هل نسيت كاتيا أن تقول لي : للذكرى لا للمعلومات ، «إذا ذهبت إلى باريس فسيكون المطر والريح والغربة في طريقك . وستلتقين بشراً مثل الأخضر ومحمد وعبد الرحمن وفاضل» كان علينا أن نتدبّر أمر مبيت محمد هذه الليلة .

يقترح عبد الرحمن أن يصحبه إلى دار البشير ، ونفترق في أواخر الليل دون وداع . هكذا نفعل باستمرار ونحن ندرك أن بداية المساء في اليوم التالي ستعيدنا إلى زاوية «كلوزري دوليلي» ستعيدنا إلى نهاية الليل البارد والغرف المعتمة ، والذكريات المرّة . ولا جديد ، لا شيء ، نفترق . . تتّجه بي سيارة إلى الشمال وأراهم يغيبون . . يمضون تحت رذاذ المطر . . تشقّ بي السيارة حي «المارية» . . المعتم باتجاه «بيل فيل» موطن العمّال العرب القادمين من شمال أفريقيا . . يوم اخترت السكن في ذلك الحي ضحك مني رفاق الشلّة وقال عبد الرحمن : «هذا ترف المثقفين ، هل تعتقدين أن سكنك في حيّ العمّال العرب سيخلّصك من الإحساس بالنفي والغربة ؟ كنت لا أملك إجابة على أسئلته . . لا أملك كلمات أشرح فيها رغبتي بالانتماء إلى شيء ، وسط هذا الضجيج . . وسط البؤس اليومي لأولئك القادمين من خلف البحر . بؤس يطاردني مع دخول الحيّ كلّ فجر . . يتفجّر البؤس أطفالاً يعدّون نجوم المغرب العربي . . يتفجّر بيوتاً رطبة ونساء حالمات أبداً بالشمس . يحدّثنني كلما لمحنني أعبر الحيّ عن رغبتهنّ بالرحيل ، ويثرثر الأخضر كل مساء : «إذا عدت ليلاً سيغتصبونك ! ألا تخافين العرب والزنوج ؟ ألا تخافين ؟» .

تستمرّ السيارة في اختراق دروب الحيّ العتيقة ويسألني السائق الجزائري عن العنوان مرة أخرى ، أردّد العنوان دون وعي بينما تنزلق

السيارة في شارع عريض زُرعت على جانبيه يميناً ويساراً أشجار أكـاسيا وحشية . . عديمة الرائحة ورماديّة اللون .

يأتي الفجر الرماديّ ، يهاجمني وأنا في غفلة من الزمن أتأمّـل على ضوء خيوطه الأولى مقبرة «بيير لاشيز» . . أتأمّل الجدار الحجريّ للمقبرة حيث ، في صباح باكر من زمن مضى ، أعدم على هذا الجدار من ظل حياً من ثوّار كومونة باريس . . أشمّ رائحة الدم . . أرى اللون الأرجواني القاتل يصبغ جدران المقبرة الفضيّة . . لعبـة الموت المخيفـة منذ فجـر الرفض . . الوحش المجنـون يمتلك القدرة على العقـاب في كلّ زمـان ومكان . . ووسط حيّ الموت والقتل والحروب الأهليّة يَكتب المنتصرون التاريخ . . أتذكّر كلمات الأخضر «أنا أحتقر التاريخ . . التاريخ لا يكتبه إلا المنتصرون» .

المقبرة . .

ذكرى كومونة باريس . .

أشجار الدردار الفضّية تتدلّى على الحاجز الحجريّ . وتحاصـرني الذاكرة المجنونة بؤساً . . خلف هذه الأسوار وفي قبر واحد دفنّا ثلاثة من أصدقائنا الفلسطينيين بعضهم اغتالته رصاصات إسرائيلية وبعضهم الآخر رصاصات لا نعرف هويتها ، أو نخاف أن نعرف . . . رصاصات خرجت من بعض عواصم الرعب لتـطاردهم في المنافي . . تحـاصرني الـذاكرة المجنونة بؤساً وأرى «سميح» ، ذلك الوجـه المرهق التعب الـذي عاش مـأساة الهجـرة والنزوح والمـذابـح . . نحن في الجـامعـة . . نحن في الأمسيات السياسية لأجل فلسطين . . نحن في شوارع باريس متظاهرين ضد المذابح في بيروت . . ووجه سميح يرافقنا . يوم قرّروا اغتياله هجر النـوم والأمن وراح يتنقل في الليـالي الشتائيـة من بيت صـديق إلى بيت صديق آخر ، لا يكاد يشعر بدفء سرير حتى يهجره إلى سرير آخر . لا أنسى تلك الليلة التي قابلته صدفة قـريباً من بيتي . . كـان يقطع الليـل كالشبح . . صامتاً وحزيناً . سألته : «ماذا تفعل في هذه الساعة من الليل

يا سميح ؟» ابتسم ابتسامته الحزينة التي رأيتها على وجهه آخر مرة في مشرحة مستشفى «نيكر» ثم قال «أبحث عن مكان أبيت فيه» وأضاف بأسى «لا أدري سأهرب من أيّ مخابرات .. لو هربت من المخابرات الإسرائيلية لن أستطيع الهرب من مخابرات وفرق الاغتيال العربية» .. ومضى يخترق الليل دون أن يلتفت إليّ . وبعد أيام قليلة أردته رصاصة واحدة انطلقت من مسدس صديق . وقتل سميح كأنه كان مرصوداً للموت ، وحملنا نعشه من مسجد باريس إلى مقبرة «بيير لاشيز» لنواريه التراب بعد أن رفضت الدول العربية منحه شبراً يرقد فيه إلى الأبد .. لم تكتمل حفلة وداعنا لسميح .. لم يخرج من المخيلة ليتحول إلى شهيد .. كنا نشدد القبض على حنجرة الصدفة ونقاوم حزننا يوم سقط «فضل» بثلاث رصاصات قيل إنها انطلقت من مسدس مجهول . وحملنا جثمانه من المشرحة في مستشفى «نيكر» إلى مسجد باريس ، ومن مسجد باريس إلى مقبرة «بيير لاشيز» ... قالوا لنا .. قال لنا حارس المقبرة وعمال البلدية : «لا يوجد مكان لفضل ، لقد امتلأت القبور بالموتى» وكان لا بد من مكان للزفاف أو للجنازة .. لهذا السبب فتحنا قبر سميح دون وجل ووسّدنا «فضل» ونحن نردّد همساً «في كلّ واحد منا فلسطين» . لكن حروب المنفى لم تهدأ ، وبيروت تواصل خرابها العام.. ليت الموت يتوقّف قليلاً.. ليت الموت العربي يتوقّف قليلاً!

كان الأخضر يثرثر في مقهى «كلوزري دوليلي» ذات مساء ، معلّقاً على اختياري الحيّ العشرين موطناً لي في باريس «أعرف أنك تعبت من قطع المسافات ما بين مشرحة (نيكر) ومقبرة (بيير لاشيز) .. أعرف أن الموت لن يتوقّف ولن يستريح من ضحاياه ... أعرف لماذا اخترت السكن بجانب المقبرة» .

أصل شارع «منيل مونتان» أتوقّف أمام البناء الذي أسكنه ، ومن موقعي أتأمّل نهاية الشارع الذي يؤدّي إلى حيّ «الماريه» .. أضواء تنبعث من تقاطعه مع شارع «بومارشيه» يخيّل إليّ أنني أطلّ على عالم لن

أعود إليه مـرة أخرى . أغـرق كلّياً في انتـظار المفاجـآت التي سيحملها الغد . . آه ألا يحقّ لي أن أطمئنّ في هذه المدينة الغـابة ؟ نـظرة أخيرة على الفجر وأسرار المدينة . . . الجزيرة . . . المدن . . نظرة أخيرة على هذا الفجر. أتحرّك باتجاه مدخل البناء فأصطدم بجاري المغربي يغادر إلى عمله في مصانع «داسو» ، نتبادل التحيّات المعتادة وكلمات قليلة تحمل لي شكواه الدائمـة من أطفالـه التسعة وزوجتـه الحالمـة بشمس مراكش الدافئة . . كان ذلك قبل أشهر . استوقفني جاري المغربي ليحدّثني عن مشاكله في مصانع «داسو» وقال لي : «ولماذا لا تكتبين في مجلّتك عنا ؟ لماذا لا تقولين كيف يعيش العمّال العرب في هـذه المدينة؟» وابتسمت وأنا أجيبه : «لماذا لا تعمل في بلادك ؟ لماذا لا تعود إلى بلد عربي ؟» ضحك بسخرية وردّد : «سيّدتي كيف أعيـل تسعة أطفـال ؟ أين العرب الذين تتحدّثين عنهم ؟» . منـذ ذلك الفجـر لم أعد أطـرح على الهادي أسئلة ، فكـلّ الأسئلة دون إجابـات والوحش يمـلأ الحاضـر والأفق . . لكنني عندما ناقشت جملته في «كلوزري دوليلي» سخـر الأصدقـاء مني وقـال لي الأخضر وهـو يبتلع آخـر قـطرة ويسكي في كـأسـه «لا تكـوني رومانسية يا سيدتي ، هنـاك أكثر من مليـوني عامـل عربي في فـرنسا لا يستطيع أيّ بلد عربيّ آخر استيعابهم» .

وتذكرت رحلاتي إلى بلدان النفط . . تذكرت وجوه العمّـال الهنود وبؤسهم تحت الشمس الحارقة ، هؤلاء لا يضرمون النار في الخيام ، ولا يشعلون المظاهرات .

أدخـل غرفتي مستهـديـة بخيـوط الفجـر . . لن أستسلم للخيبـة ، فالراحلون إلى الوطن يعودون حتى من داخل السجون ورحم الزنزانات . أضـع المفتاح في البـاب وأعبر الممـر المظلم فتلفحني رائحـة عمر . . رائحة الرجل الذي ودّعته في صباح الأمس عائداً إلى الصحراء .

بعد أن يئس من إقناعي بترك باريس للالتحاق به ، لم يكن بوسعي الوفاء بذلك العهد الذي قطعته على نفسي يوم التقيته للمرة الأولى في تونس . يوم قلت له وأنا أرى في وجهه نقيض تشرّدي وغربتي «سوف أظل أستهدي بوجهك ما تبقّى لي من السنين» كنت صادقة في تلك اللحظة ، ورحلت عن تونس ، إلى باريس ، ثم عدت من جديد لارتياد المقهى كلّ مساء ، وغرقت بعد أيام قليلة في حياتي اليومية المملّة التي أعمل بها نهاراً ، وأرى أصدقاء الشلّة مساء ، أصبح عمر بعيداً ونجحت أن أتحدّث عنه بصيغة الغائب كما في رواية حقيقية . . . لقد خرج عمر من ظلّ ذاكرتي ، وظننت أنه لن يعود إليها مرة أخرى . لكن عمر الذي أدرك بذكاء فطري خارق ماذا يعني عشق امرأة تنتمي للحرب الأهلية لم يدعني وحيدة ولم يترك حبّه للزمن ، فلحق بي إلى باريس ليقنعني بحياة قابلة للاحتمال معه . . . لكن الأمور توجّهت في منحى آخر . . . وبالأمس عاد عمر إلى الصحراء قائلاً إنه ينتظرني هناك .

عندما رأيته ذلك الصباح يغيب في زحمة المسافرين في مطار أورلي ناديته بحرقة فعاد من جديد . . التقت عيوننا . . وكأننا نتعارف للمرة الأولى . . قلت له «أعترف بفشلي . . أن أعيش من جديد قصة حبّ ، لكن أمهلني قليلاً علّني أجد نفسي» . كانت كلماتي تضيع في ضجيج المطار وعمر يهزّ رأسه بيأس مردّداً : «إنّه صراع مرير وإدمان على الهرب . . ونزيف الذاكرة يلاحقك كوحش مفترس يمنعك أن تكوني كباقي النساء . . إن الحرب في بلادكم لم تقتل البشر فحسب بل قتلت أنوثة من بقي من نسائكم ورجولة من كتبت له النجاة من رجالكم» وظل يتكلم دون أن ينتظر إجابة : «أنت صخرة سوداء ألقى بها البركان في بحر . . . جارحة وجافّة ، عاجزة عن أي لقاء مع الآخرين . . عاجزة عن أيّ تبادل مع أجسادهم . . عاجزة عن بناء شيء جديد» .

لم أصرخ في وجهه . . لم أبك . . كان عمر يقول لي الحقيقة ، الحقيقة المرة التي أحاول أن أنساها في العمل ومع رفاق «كلوزري

دوليلي» حقيقة عامين بأيامهما ولياليهما وأنا أعيش الحرب صباحاً ومساء ، الحرب المجانية المجنونة . . الحرب التي اختطفت كلّ أصدقائي وحوّلت «خالد» الرجل الأول في عمري إلى تاجر نفط وسلاح ، وحشيش ، وكلمات . آه لماذا عذّبني عمر تلك الأيام الماضية بوجوده في حياتي ؟ .

الساعة السابعة صباحاً .

تسكّع على الأرصفة ، بعد أن ودّع أصدقاء الشلّة . . تسكّع دون هدف . كانت عودة محمد من الموت بالنسبة إليه حدثاً غير متوقّع . . بل هي الإدانة نفسها . . تشرّد على الأرصفة دون هدف ، فغسله الليل والمطر ، وسمع أصوات باعة الصحف في اللحظات الأولى لرحيل الليل فتذكر أنه ما زال منذ الأمس غائباً عن بيته . . . بيته ؟ هذا هو السؤال الذي يعذّبه منذ رحل عن نابلس ، أو منذ طردته سلطات الاحتلال لا يملك بيتاً . . ينتقل من مدينة إلى أخرى ، من دولة إلى أخرى ، من صدر امرأة إلى صدر أخرى ، علّه يجد الأمان ، لكن الأمان أصبح بالنسبة لفاضل سراباً مستحيلاً وكأنه سكن نابلس المحتلة وهجر كل مدن العالم لأجلها .

السابعة والنصف من سنة ١٩٨٠ ، وفي ذلك الصباح يكون قد مضى على احتلال نابلس ثلاث عشرة سنة . . ثلاث عشرة سنة . . كان خلالها يتكلم باسم مدينة تزنّرها الدبابات ويطغى على ليلها صوت الرصاص ، ومن وقت لآخر تستباح نساؤها كسبايا ذلك الزمن البعيد . ثلاث عشرة سنة عرف فيها فاضل معنى أن يكون بلا أرض ، ومعنى أن لا يحقّ له الحنين إلى أرض أخرى ، حتى لا يظن الحليف أنه يحلم بها بديلاً عن مدينته ثلاث عشرة سنة «هل تعرف أيّها الغبيّ ماذا حصل هناك ؟» سؤال يطارده لا تستطيع رسائل أبيه الشيخ الإجابة عليه ، سؤال يتمثّل له في

مطارات الـمدن . . والموانىء البحرية ، وأرصفة الأزقة الغريبة ، سؤال يرافقه كيفما حل أو رحل ، لكن لا إجابة . فالعصر الذي يعيشه هو عصر عناق الجلّاد والضحية . فهل تغيّرت نابلس ؟ كان يبدأ كلّ رسالة يكتبها إلى أخته رندة بهذه العبارة . وكـانت رندة التي أمضت شهـوراً في أحد السجون الإسرائيليـة تحاول أن تكتب إليـه حتى عن التفاصيـل الصغيرة التي يعيشها الناس بشكل يومي في تلك المدينة . قـالت له في إحـدى رسائلها «لا ، لم تتغيّر نابلس» . فطمأنه ذلك فتـرة من الزمن ، ثم بـدأ الخوف يطارده من جديد . خوف من أن يكبر أطفال المدينة في غيابه . . خـوف من أن تتحوّل رنـدة التي يحبّ إلى امرأة نـاضجة دون أن يشهـد تحولها . . خوف من أن يزدهر الربيع ويرحل ، ثم يأتي مـوسم الزيتـون ويمضي دون أن يشهد سمفونية إيقاع الزمن .

يحاول أن يندسّ في سـريره إلى جـانب «إليزابيث» علّه يستمـدّ من حرارة جسدها شيئاً من السكينة ، وعندما يتمدّد محاولاً إغماض عينيه ، تستيقظ إليزابيـث وتنظر إليـه بإعيـاء من تعبت واستسلمت للواقع الـذي تعيشه مع هذا العربيّ الممزّق .

ـ إنّك مخمور كالعادة .

يظلّ صامتاً وتستمرّ بين النوم واليقظة .

ـ لا أدري ماذا تفعل في الشوارع حتى الساعـات الأولى من الفجر . .

يظلّ صامتاً وتستمر بين النوم واليقظة .

ـ مضى عليك خمس سنوات وأنت على هذه الحال ، تنام في النهار لتستيقظ في الليل . .

يظل صامتاً وتستمر . .

ـ لقد سئمت الحياة معك ، إنك مجرد جثّة لا حياة فيها .

وتستفزّه عباراتها الأخيرة . يحاول أن يرد عليها بشيء فيشعر عجزاً قاتلاً في أعماقه . . وللحظات يفكر فيما قالته فيقرّ «نعم أنت جثة يا فاضل» .

تعوّد فاضل هذا المشهد الصباحي كل يوم ، فمنذ سنوات وهو يعيش مع «إليزابيث» في بيت واحد ، ومنذ سنوات يتساءل كل يوم لماذا يعيش مع هذه المرأة التي لا تمثّل شيئاً من عالمه . كانت إليزابيث تعمل ممرّضة في أحد مستشفيات باريس ، شقراء قصيرة القامة على أبواب الأربعين منحدرة من أسرة نورماندية .

فقيرة جاءت إلى باريس قبل خمس عشرة سنة للالتحاق بمعهد التمريض ، لكن المدينة الكبيرة استنفدتها حتى الثمالة . . مرّ بها الزمن وهي لا تزال تحلم ببطء . . تحلم بالزواج ، والأطفال وبيت على حدود النورماندي يضيع في قلب الغابات الخضراء الرمادية . . تحلم بذلك المطر الخفيف الربيعي وهو يغسل وجهها عندما كانت طفلة . كانت أحلام إليزابيث كثيرة ومتنوعة وطموحة ، لكن هذه الأحلام كانت سرعان ما تتبخر عندما تنظر إلى وجهها في المرآة ، أو تتأمل جسدها العاري .

«هل تستطيع أن تصف لي صديقتك ؟»

كانت نادية تطرح هذا السؤال على فاضل بعد أن يشرب ثلاث كؤوس ويسكي . . أو أربعاً . . تدرك بخبث وهي تجرّه إلى الحديث عن حياته الخاصة أنها تدخل حقل ألغام حقيقياً . ففاضل حتى الآن كان يعيش مع اليزابيث بعيداً عنها ، كان بحاجة إلى وجود إنسان ما بجانبه وسط تلك الصحراء الشاسعة من الغربة والبؤس . إنسان ! . . أيّ إنسان ، وإذا صادف واتخذ ذلك الإنسان الذي يبحث عنه شكل امرأة ، فلا بأس . . . ربما كان هذا أفضل . .

«هل تستطيع أن تصف لي صديقتك ؟» .

تلمع عينا نادية في عتمة المقهى ، ويحدّق فيهما بفضول . . يتمنّى أن يعبر عالمها ليصل إلى الأعماق . لكن نادية كما تبدو لهم جميعاً مستعصية على الاختراق . . لقد حصّنت نفسها بشكل جيد أو حصّنتها

الحرب ، أصبحت عالماً شاسعاً من التناقض والحبّ والحنان والجنون فكيف يمكن لرجل واحد أن يحيط بهذا العالم ؟

ويصف لها صديقته . . يبدأ في الوصف ثم يتذكّر أنه لا يعرف لون عيني اليزابيث ! مضى خمس سنوات على علاقتهما ، لكنه لا يتذكر تفاصيل وجهها وجسدها . تقطر المرارة من صوته وهو يتحدّث عن امرأة أخرى بعيدة عنه . . امرأة تعيش وراء أسوار نابلس . . لم يعد يدري عنها شيئاً . لا يعرف أبداً إذا كانت على قيد الحياة أو خطفها الموت ، لا يعرف إذا كانت قد تزوّجت أو ما زالت تنتظره . هذا زمن استبدال نابلس بباريس وسحر باليزابيث . . كيف يصف اليزابيث ؟ هل يعرفها حقاً ؟ هل يدرك التفاصيل ويميّز الفرق بينها وبين أيّ جسد لأيّ امرأة أخرى ؟ كل النساء بالنسبة لفاضل بعد نابلس واحدة لا فرق إلا بالتسميات وسجلّات الأحوال المدنية .

كانت اليزابيث واحدة من تلك النساء اللواتي لا تدير رأسك ثانية بعد أن تمرّ بك ، في الأربعين من عمرها تحمل وجهاً أبيض عريضاً فوق جسد ضخم يذكر بفلّاحات النورماندي اللواتي لا يعانين من سوء التغذية . وفي الوجه عينان ملوّنتان ، ربما كانتا خضراوين تميلان إلى الصفرة ، وأنف أفطس فوق شفتين رقيقتين تنشقّان عن أسنان مندفعة إلى الأمام فتكوّن مع الشفتين الرقيقتين بروزاً ناتئاً يتنافى وشكل الأنف ولون العينين . . . تحمل اليزابيث ذلك الوجه الذي لا يوحي بالبشاعة أو الجمال فوق جسد يميل إلى البدانة . . لقد عانت طويلاً من إحساسها بالوحدة ، فالرجال في باريس يفضلون باستمرار قضاء أمسيات السبت برفقة نساء لا تنطبق عليهن أية صفة من صفاتها ، وكم نظرت إلى تلك الحسناوات الرشيقات وهنّ يعبرن شارع (سان جيرمان) بخفة . . تأمّلتهن بغيظ وحقد ، لكنها اكتشفت أن غيظها أو حقدها لا يغير من الواقع شيئاً ، فأقلعت عن أحلامها ، ثم قرّرت أن تنسى كل شيء عن الزواج والحبّ والرجال وتنصرف بشكل نهائيّ لعملها . وهكذا تحوّلت اليزابيث خلال

سنوات قليلة إلى أهمّ ممرضة للدكتور «سيمون همبرجيه» أستاذ طبّ الكلى في جامعة باريس . اكتشف همبرجيه في اليزابيث ممرضة صبوراً وجادّة فاعتمد عليها في شؤونه ثم أصبحت واحدة من مساعديه المقربين ، فكانت تشرف على ترتيب ملفّات بحوثه ، وتنظيم مواعيده ، وعلاقاته مع مرضاه . ومع الأيام أدمنت اليزابيث عملها فتحول إلى كل شيء في حياتها وأصبح العالم يُختصر في عينها بمكتب همبرجيه ، والجناح الذي يعالج فيه مرضاه في مستشفى «لاينك» ثم صالة الكلى الصناعية ومواعيد المرضى المختلفين الذين ينتظرون خلاصهم عبر تلك الآلات الحديدية الصمّاء . عاشت اليزابيث وسط هذا العالم الحيّ ـ الميت . . هذا العالم الواقعي حتى درجة الألم . وكم شاهدت أمام عينها رجالاً يمضون إلى الموت بصمت رغم جهود دكتور همبرجيه وبحوثه المتقدّمة . تآلفت اليزابيث مع الموت حتى أصبح جزءاً من حياتها ، وكان يمكن لها أن تمضي في هذا العالم حتى نهاية حياتها لولا تلك الحادثة التي غيّرت أشياء كثيرة وجعلتها تخرج من عالم مرضى الكلى ، وبحوث البروفُسور همبرجيه ومستشفى (لاينك) وبيتها المؤلف من غرفتين في ضاحية «موناروج» جنوب باريس . . تلك الحادثة . . إنها تتذكّرها جيداً حتى اليوم . . تتذكّرها بكل تفاصيلها . ذات صباح حملت سيارة الإسعاف إلى قسم أمراض الكلى في المستشفى شاباً في الخامسة والثلاثين من عمره يتلوّى ألماً من نوبة مغص كلوي حادّ . . كان يصرخ بصوت أشبه بالرعد وبلغة غريبة لا أحد حوله يستطيع أن يفهمها ، وتختلط صرخاته المجنونة المتألّمة بنحيب أشبه بصوت حصان جامح لم يكن نحيب ألم عضوي فقط . . إنه نداء استغاثة لغريب على وشك الموت . . وبانتظار حضور الطبيب المناوب حاولت اليزابيث باندفاع عفوي أن تهدّىء من روعه وتسأله عن اسمه فلا يجيب . . تسأله عن بلده فلا يجيب . . تسأله عن أهله فلا يجيب . . اعتقدت للحظات أن نوبة الكلى الحادّة التي تمزّقه أنسته كلّ شيء ولم تدرك إلا بعد سنوات عاشتها

معه أن فاضل لم يكن مريضاً بالكلى فحسب بل بشيء أكثر ألماً ومرارة : الغربة . . وانتهت أزمته بعد أيام ، لكن الصرخات الغريبة واللغة الشبيهة بالنحيب ظلّت تسكن أذني تلك الممرّضة النورماندية التي سكنت إليه وحاولت أن تفهم ما وراء كلماته . . لقد أحبّت فاضل باختصار ودون دخول في تفاصيل الأشياء . . كانت بحاجة إلى الحب وكان بحاجة إلى إنسان يسأله : من أيّ بلد أتيت ؟ وإلى أي عالم أنت ماضٍ ؟

وهكذا خرج فاضل من المستشفى بعد أيام ليستقرّ مع اليزابيث في بيتها بضاحية «مونـاروج» . كان وحيداً ومتشرّداً . . دون عمل . . دون وطن . . دون أهل أو عشيرة . إنه ، نظرياً ، طالب يحاول أن يحضّر رسالة دكتوراه في جامعة «فانسين» عن «ما وراء الاستراتيجية» ، وعملياً عاطل عن العمل ينتظر في نهاية كل شهر أن يحمل له البريد حوالة نقدية تساعده على حل مشاكله . . وحتى اليوم لا تعرف اليزابيث معنى «ما وراء الاستراتيجية» . كانت ، في بداية علاقتهما ، تجهد ذهنها وعقلها المحدود بعالم أمراض الكلى وصالة مرضى البروفسور همبرجيه فتسأله «وماذا يعني ما وراء الاستراتيجية» ؟ فكان فاضل يغرق في التفكير ، وتشعر أنه راحل عنها إلى عالم بعيد لا قرارة له ، ثم يجيبها ببساطة «يعني من يضع الاستراتيجية للاستراتيجيين» . تضحكها جملته وتزيد في غموض عالمه فتسأله : «ولماذا اخترت أن تدرس هذا الموضوع ؟» يغيب مرة أخرى وراء سحابة تفكير . . تطول لحظات صمته . . يتأملها ثم يجيبها ببساطة «لأنه لا بدّ أن هناك استراتيجية أخرى وراء الاستراتيجية» .

وسمعت اليزابيث ، خلال الشهور الأولى من حياتهما المشتركة ، أسماء كثيرة لم تكن قد عرفتها أو قرأتها في كتب التمريض من قبل «هايدغر» «كانت» «ماركس» و«فرويد» و«ميشيل عفلق» و«قسطنطين زريق» . . أسماء غريبة على عالمها لكنها بدت لها ساحرة وذات قدرات خفيّة قادرة على جعل فاضل رجلاً متميّزاً . لم يكن هو من قرّر أن يعيش معها . . لم يكن هو من قرّر أن يحبّها . . لم يكن هو من قرّر أن يساكنها

في ذلـك البيت المتواضـع المؤلف من غرفتين . . هي التي قـرّرت كل شيء . . سألته يوم كان في المستشفى إذا كـان يملك بيتاً ، أو أهـلاً أو صديقة ، أو زوجة فنفى . . سألته إذا كان هناك من يشعر بغيابه أو يهمه مرضه فنفى . . سـألته إذا كان سيخرج من المستشفى إلى مكان محدّد فنفى . . عرضت عليه أن يعيش معها وقرّرت أن تحبّه . لم يكن فاضل فارساً أشقر رشيقاً كما تخيّلت الرجـال من قبل . مـلامح عـربيّة صـارمة القسوة تتكلم اللغة الفرنسية بلهجة تدلّ على أن صاحبها قد جاء من مكان بعيد . وسألته عن اسم المكان الذي جاء منه فتردّد في البداية أن يحدثها عنه ، لكنه بعد أن اطمأن إليها روى لها كل شيء . . روى لها قصة حياته في نـابلس . . ذكـريـاتـه البعيـدة الضبـابيـة عن سنـة ١٩٤٨ ، أفـواج المهاجرين يقتحمون مدينته بأسمالهم البالية يجرّون وراءهم قبائل أطفال لوّحتهم الشمس وأتعبهم الرحيل ، أطفال بعدد النجوم . . بعـدد النجوم كان أطفال فلسطين . . روى لها مـا سمعه منهم عن المـذابح في (ديـر ياسين) ، و(قبيه) . وكان يتوقّـف كثيراً عند الحديث عن هاتين المدينتين أو القريتين . . هي لا تدري . . كان يتوقّف ليلتقط أنفاسه قليلاً ثم يعود للحديث من جديد عن المذابح . وبعد ذلك سمعت منه شيئاً عن حرب الأيـام الستة . . تـذكـرت أنهـا قـرأت في بعض الصحف التي ينسـاهـا المرضى في صالة انتظار الطبيب شيئاً من هذا . . قرأت شيئاً عن حرب دامت ستة أيام فقط حطّم فيها جيش دولة مؤلفة من ثـلاثة مـلايين ثلاثـة جيوش عربيّة . . وتذكّرت أنها كانت آنذاك بشكل عفوي إلى جانب (هذا الجيش الفتيّ الشجاع) ثم نسيت الموضوع في زحمة الحيـاة ، فالبـلاد التي يتحدّثون عنها في الصحف الفرنسية دائماً بعيـدة ، والفرنسيـون لا يشغلون أنفسهم بكل ما هو بعيد عن بلادهم . ويوم حـدّثها فـاضل عن تلك الحرب ، وقرأت على وجهه كلّ ألم الأرض وذلّه أدركت أن عليها أن تعود إلى قراءة بعض ما كتب عن هذا الموضوع . . وهكذا استبدلت كتب التمريض بكتب السياسة . . قرأت كثيـراً وفهمت قليلاً ، تمـاماً كمـا هو

حالها مع فاضل . . إنها تسمعه كثيراً وتفهمه قليلاً . . لكنه لا يبدو أمامها بحاجة إلى من يفهمه . . كان فاضل حيواناً استوائياً غريباً يتكلّم للآخرين وكأنه يحدّث نفسه . . يدخل في معركة لإقناعهم فيبدو وكأنه يقنع نفسه . . الشك . . الحيرة . . التساؤل . . القفز من موضوع إلى آخر دون ترتيب . . الجري وراء المدن والأسماء . . والحدود . . الحديث عن شرطة الحدود والمطارات . . السجون . . عوالم بعيدة عن تفكير اليزابيث وحياتها ، ومع ذلك أحبّت فاضل . . أحبته وانتهى الأمر . . كانت بحاجة إلى أن تحبّ . . وكان بحاجة إلى وجود إنسانيّ ما بجانبه . . وبعد أشهر من علاقتهما ، أصبح للحب معنى آخر في حياتها . . أصبح حب فاضل مسؤولية أن تعود إلى البيت في مواعيد محدّدة لتحضّر طعامه ، وتغسل ثيابه ، وترتّب أشياءه . منحها حبّها له إحساسها الخارق بأنها أنثى ، ولم يعد يُخجلها وجهها . . تنظر في المرآة وتضع قليلاً من المسحوق على وجنتيها ، ثم تنثر لوناً أزرق فوق جفنيها ، وقليلاً من «مدام روشا» وراء أذنيها . . لم تعد تتقزّز وهي تتعرّى أمام المرآة . . ولدت اليزابيث في علاقتها مع فاضل من جديد ووجدت نفسها متصالحة مع نفسها كما لم تكن يوماً . . أن تحبّ فاضل ، كان ذلك يعني لها أن تحبّ نفسها . . هاتان المفاجأتان السعيدتان حدثتا لها في وقت واحد ، حتى أنّها لم تكن قادرة فيما بعد على تحديد أيّتهما جرّت الأخرى . . . قبل فاضل كانت بحاجة إلى أن تشرب وتثمل ، ثم تتناول أقراصاً منوّمة حتى تستطيع النوم وحيدة في سريرها . . وإذا مرّت بها علاقة عابرة ، مضاجعات على عجل كاختلاسات من بضائع مسروقة ، كانت تذلّ كبرياءها وتخلّف لديها مذاق الألم ، والإخفاق . . تحتقر نفسها بعد كل ليلة تقضيها مع رجل ، ولم تكن تفهم أبداً لماذا بعد انتهاء عملية الحب يوليها أولئك الرجال ظهورهم ويمضون عنها فتنظر إليهم بعيني كلب . صحيح أن مثل هذه اللحظات كانت شبه نادرة في حياتها التي يستغرقها العمل ، لكنها ، على ندرتها ، جعلتها في حالة احتقار

دائم لذاتها . كانت تعاقب نفسها بعد فوات الأوان أنها استسلمت لضعفها الأنثوي ، وتقسم في عتمة غرفتها على أن لا تبدأ من جديد . . تقسم على أن توظّف حياتها في عملها حتى النهاية . . لكن اللذّة ، والبحث عن جسد إنسانيّ حارّ هو في الحقيقة تلك المحاولة البائسة التي نمارسها جميعاً لنطرد بها الخوف . . لكي نثبت لأنفسنا بين الفينة والأخرى أن بإمكاننا أن نغري ، وأن نكون مقبولين من الآخرين . وإذا لم تنجح المحاولة نلجأ إلى المكابرة والحديث عن أننا نعيش وحدتنا ، بالاختيار وليس بالهجران أو التخلي . . هل كانت اليزابيث في الماضي تحاول أن تشتري بجسدها اطمئنانها ؟ أن تشتري إحساسها بأنها امرأة مرغوبة ؟ ربما . . لقد اكتشفت بعد أن اطمأنت لعلاقتها مع فاضل أن مغامراتها الصغيرة كانت من قبيل : مبادلة قليل من الجنس مقابل قليل من الحنان في الأمسيات الباريسية الباردة . ومبادلة قليل من الجنس مقابل ردّ اعتبار . حتى أتى ذلك اليوم الذي أصبح لها رجلها هي . . رجلها الذي يعود إلى البيت فيفتح الباب قبل أن تصل . . يشعل الأنوار فتلمح وهي تركن سيارتها في طرف الشارع شعاع المصباح الكهربائي يعبر نافذة غرفة نومها . . لقد استردّت اليزابيث عبر علاقتها بفاضل عافيتها الإنسانية ، وككل النساء منذ الأزل حتى يومنا تحوّلت أو حوّلت نفسها إلى صديقة له ، وأمّ ، ومربّية . . ومرّ الوقت . . وبالرغم من حياتهما معاً . . بالرغم من أنها قدّمته لأصدقائها القلائل ـ ولعائلتها في النورماندي ـ لم تتحوّل المساكنة إلى زواج بل ظلّت تلك التي كانتها . . كانت تريد أن تنجب طفلاً من فاضل ومن أجل ذلك الطفل الذي ترغب بإنجابه بحثت عن شقّة أخرى أكبر من الشقّة التي كانا يشغلانها في «موناروج» .

ووجدت واحدة في شارع « مونبرناس » غير بعيدة عن المستشفى حيث تعمل . ضربة حظّ أسعفتها عندما رحلت إحدى زميلاتها للعمل في أميركا اللاتينية وتركت هذه الشقّة ذات الإيجار الرخيص . . فرحت اليزابيث فرحاً عظيماً ثم بدأت تعيد تكوين عالمها من أجل اثنين هذه

المرّة . . فرشت الأرض بـالموكيت البنّي ، وركّبت الـرفوف لكي تضـع فوقها كتب فاضل الكثيرة التي لا تعرف منها إلا عناوينهـا ، وهي عناوين على كل حال لا توحي إليها بشيء ، ثم وضعت طاولة كبيرة من الخشب في طرف الصالـة وحولهـا ستة كـراسي للضيوف المحتملين على عشـاء يدعوان إليه معاً ، وعلى جـدران غرفتهـا علقت صورة مـزرعة أبيهـا في النورماندي ، ومجموعـة من الدمى الملونـة ، وبعض المناظـر الطبيعيـة العادية التي يرسمها رسامون متسكّعون في حيّ (مونمـارتر) ثم يبيعـونها بـأسعار بخسـة . . وهكـذا أدركت اليـزابيث أن البيت شيء هـام ، وأن «الآخـر» شيء هام . . بيت ورجـل ، وغرفـة نوم وصـالة . أمـا الغرفـة الأخرى فقد خصّصتها مكتباً لفاضل ، علّه ينتهي من تحضير رسالته عن «ما وراء الاستراتيجية» ثم ينجبان طفلاً .

كانت كلما حدثته عن رغبتها بإنجـاب طفل منـه غاب كعـادته وراء الكلمات وقال أشياء كثيرة ، ثم ينتهي ليقرّ بأن ذلك ممكن بعد أن ينهي رسالته ويجد عملاً . فيما بعد . . فيما بعد . . فيما بعد سيكون ثمة وقت لكل شيء . ولكن بعد ماذا ؟ لم تكن تعرف ذلك بالضبط ، ولـم يكن هو نفسه يعرف ، ورغم ذلك ظلّت مستعدّة لـلانتظار طـويلاً دون أن تشـكّ لحظة واحدة بأن «فيما بعد» آتٍ . في الحقيقة كان بيت اليزابيث الـذي يعيش فيه فاضل قد أصبح بيتاً بكل ما تعنيه الكلمة ، لكنه لم يكن يمثّل لفاضل نفسه أكثر من سقف . . مأوى . . مهدّد بأن يفقده في كل لحظة . كان الإحساس بالتهديد يلاحق «فـاضل» منـذ سنة ١٩٦٧ ، يـوم طردتـه سلطات الاحتلال من نابلس ، وقادته قافلة من السيارات العسكـريـة إلى الجسر . . قافلة رافقته وكأنه يمثّل خطراً حقيقياً . ويـوم مغادرتـه نابلس لاحظ لأول مـرة الحواجـز العسكريـة التي أقيمت في كـل الشـوارع . . لاحظ البيوت المحاصـرة . . والشرفـات المعتمة . كـان قد مضى على الاحتلال ثلاثة أشهر رفض فاضل خلالها أن يبـرح بيت أبيه ، رفض أن يخرج للشوارع ليرى واقع الاحتلال . . سكن غرفته فكان لا يخرج منها

إلا ليرى أباه المشلول في غرفته ، فيتقاسم وإياه الأحلام برحيل قريب لقوات الاحتلال . . وأدرك فاضل في ذلك الوقت كم كان حلمه جدّياً ، فالمصيبة أن الناس الجدّيين هم جدّيون في كل شيء حتى في الأحلام . . كان فاضل جدّياً في كل شيء . . في التنظيم السياسي القوميّ الذي ينتمي إليه . . في قراءته للفلسفة . . في حبّه لسحر . . كان يحب سحر بجدية حتى الجنون . . حتى حدود الموت . . كانت الجدّية فجوة ينفذ منها كل شيء وحتى قتل الإنسان الذي نعشق . . إنه اليوم يتأمل اليزابيث وهي تغدو وتروح في البيت دون أن يتحرك في داخله أي إحساس بالعشق . . كان من فرط خوفه في هذه المدينة أن قرّر معايشة اليزابيث . . هي أو سواها لا فرق . . إنه ـ لحقاً ـ أمر مهين أن يرى الأمور بهذه الصورة ، ولكن للغربة ضريبتها . ، هكذا يردّد باستمرار ، ويتذكر الأيام التي قضاها في السجن الإسرائيلي خاضعاً لتحقيق مرهق قبل أن يطرد من وطنه كالكلاب . . يتذكّر التعذيب الجسدي أثناء التحقيق : الأسلاك الكهربائية التي تركت حتى اليوم آثارها على صدغيه . . جثّة أحد رفاقه في الممرّ المعتم أمام الزنزانة وقد حملها الحرّاس لإرهابه حتى يضعف ويكشف أسماء التنظيم الذي ينتمي إليه . . ثم الليالي الباردة بين جدران الزنزانة وخيط دم يسيل من جسمه ، بينما يسمع من الزنزانات المجاورة أنّات أشخاص آخرين فيترنّح رأسه ، وينحني إلى الأمام كأنه منوّم تنويماً مغناطيسياً . . وبعد ذلك يتوقّف النزيف . . وصوت المحقّق الآمر وهو يحدّثه بعربيّة واضحة . . بلهجة عراقية بينما يضرب أخمص رشّاش على كتفه بدقّات منتظمة .

وبعد ذلك . .

كم من الوقت مضى عليه في السجن ؟ لم يعد يتذكر ـ فالأشهر مرت بسرعة . . ببطء . . كل ما يذكره الآن هو غرف التعذيب الباردة وصوت المحقّق .

ـ أنت فلسطيني إذن ؟

ويهز رأسه بالإيجاب بعد أن فقد صوته .

ـ وأنت قوميّ عربيّ إذن . .

يهز رأسه بالإيجاب بعد أن فقد صوته .

ـ وأنت تريد محو دولة إسرائيل عن الأرض وتستعيد حيفا ، ويافا ؟

يبحث عن صوته طويلاً عندما يسمع هذه العبارة . . كان يريد أن يتكلم أن يقول له : «أنا ؟ لا أعتقد أن جيلي قادر على ذلك لكنني لا أستطيع أن أمنع أبنائي» ، ويدرك فاضل اليوم بعد سنوات وسنوات من منفاه . . بعد هزائم وهزائم ، معنى ما فكّر به وصوت المحقق يلاحقه «أنت تريد استعادة حيفا ويافا ؟» . لقد أصبحت نابلس بحاجة لمن يستعيدها . . يدرك اليوم ذلك وهو واعٍ لحقيقة وطنه . . باقٍ على قيد الحياة . . ناجٍ من الموت . . إنسان قيِّض له الخلاص الجسدي يترنّح كلّ مساء بفعل الويسكي فوق ثلّة من الرفاق الذين ماتوا لأجل حيفا ويافا ونابلس ، وها هو يتشرّد في باريس ويسكر فوق تلال من جماجم الرفاق . . يتسلّق سلالم من عظام أجسادهم . . يسير فوق أرض مفروشة بجلودهم . لقد تنزّه بما فيه الكفاية في دروب المنفى حتى أنه لا حاجة به للنظر إلى الوجوه التي حوله لكي يدرك موته هو . في كل مرة يلتقي بقادم من نابلس يشعر بشيء أقوى منه يدفعه للتساؤل «ما الذي جدّ في غيابي» ؟ لكنه سرعان ما يخفي تساؤله ويتغافل عنه مصححاً ربطة عنقه . . أو مستغرقاً في نقاش حول المزايا المقارنة للحياة في باريس أو في أية عاصمة عربية . . بلاهة . . بلاهة مضاعفة واستسلام من يجهل أن المعركة يمكن بدؤها كل يوم ما دام العالم من حوله يغرق في الدم والنار : الحرب الأهلية في لبنان وشعبه طرف فيها ، اتفاقية كامب ديفيد ورحلة القدس وشعبه طرف فيها ، الاغتيالات التي تلاحق أصدقاءه في أوروبا وشعبه طرف فيها . . كل هذه النيران من حوله تشعل ناره من جديد ، لكن عبثاً يحاول أن يستعيد نفسه .

عبثاً يستطيع ذلك ووطنه الذي يتخيّله من المحيط إلى الخليج يتحول إلى (كازينو) مترف يغرق في الوحل ، والدم ، والجوع ، والاغتيالات . . بينما صحف الأنظمة تخرج كل يوم لتحلّل وتنقي ، وتنظّر . . بينما هو يشيخ في الغربة يبحث عمن يرافقه لأجل فكرة . . يبحث عمن يرافقه على امتداد حياته كي لا يضطر لخفض نظره يوماً أمام ولده . . كي يتجرّأ على أن يقول له «لقد فعلت كذا وعليك أن تفعل كذا» منذ متى وهي تلاحقه لأجل طفل ؟

منذ متى تطلب اليزابيث ولداً ؟ لم يعد يذكر ، لكنه يتذكّر الأسباب البديهية التي تحول بينه وبين أن ينجب طفلاً . . إنها نابلس إذا بسّط الأشياء . . في كلّ مساء أو كلّ صباح ، عندما يظل وحيداً بعد ذهاب اليزابيث إلى العمل أو إلى مكان آخر ، يمشي في الشقة عرضاً وطولاً . ثم يجلس وراء مكتبه ليصغي إلى راديو صوت العاصفة وأذنه ملتصقة بالجهاز . كان يمكنه أن يلتقط صوت المذيع الفلسطيني والحروف التي يضغط عليها لينسى غربته وقرفه ، ليستمدّ شحنة يومه ، ليعيد من جديد حبكة أيامه الآتية . من حسن الحظ أن هناك رفاقاً لم يهتدوا إلى ذل المنفى واختاروا البقاء في نابلس ، وعمان ، ودمشق ، والقاهرة والكويت .

ـ أما هو ؟

ـ اسمع يا فاضل ! عليك أن تترك هذه البلاد خلال أيام ، فالسلطات تبحث عن وسيلة لإبعادك .

ـ اسمع يا فاضل ! عليك أن تترك البلاد خلال أيام لأنك متّهم بإعادة تنظيم الحزب .

ـ اسمع يا فاضل ، منذ بدأت اتصالك بالمهاجرين الفلسطينيين في هذا البلد المضيف أصبحوا يعتبرونك خطراً على أمنهم .

البلد المضيف . . سوف يسمع فاضل هذه العبارة كثيراً . . وسيكون

دائماً في «بلد مضيف» مهما تغيرت أسماء المدن ، وحدود الدول ، وكلمات الأناشيد الوطنية .

وسمع فاضل كثيراً وتكلم قليلاً تحت شمس ذلك البلد المضيف في الأيام الأولى . كان لم يمضِ على وصوله من نابلس سوى عدة أشهر عندما بدأ اتصالاته مع المهاجرين الفلسطينيين الذين سبقوه إلى المنفى ؛ مجموعة من المدرسين ، والمهندسين ، والتكنوقراط الذين يسابقون الشمس والسنوات لتكوين ثروات صغيرة يبدأون فيها حياة أخرى ولكن في الهجرة . وبالرغم من الرؤى المختلفة التي كانت تتصارع بينهم ، استطاع أن يصل بهم إلى بديهية نقطة الانطلاق : المشكلة بعد الهزيمة ليست كيف نؤمّن حياتنا . . . بل كيف نضحّي بها لنبدأ حياة أخرى من أجل استعادة الأرض . وما زال فاضل يتذكّر حتى اليوم الجدل العقيم الذي خاضوه في ليالي ذلك البلد المضيف الحارّة . . كانوا يقولون له : «وكيف سنقاتل التكنولوجيا والطائرات بينما لا تزال الدول العربية نفسها في طور البنادق ؟» ويرفض هذه البديهية . . ليؤكد لهم أن الكتب والشعارات ، والأديان لم تحلّ حتى اليوم المشاكل ، ولن تحل أبداً محلّ متفجرات المرحلة . كانت اللحظة التاريخية في عيني فاضل تبدو حاسمة بعد الهزيمة . . اما أن نكون أو لا نكون . لم يعد جدلياً كما تعلّم في الجامعة والحزبِ ، أصبح شكسبيرياً بمعنى ما . وإلا كيف يوفّق بين «القليل من الاشتراكية . . والكثير من الإسلام . . والتمسك بالأصالة والقومية» . . .

هذه البديهيات التي نسجت حياة فاضل ودار حولها تاريخه كله ، بدت له في البلد المضيف وكأنها تحتاج إلى إعادة نظر ، وأصبح عليه أن يعيد تركيب المعادلة بشكل آخر في زمن الثروة . . لنبدأ : قليل من الاشتراكية ؟ لا . . لا ضرورة لذلك إذن التمسك بالأصالة ؟ لا . . لا ضرورة لذلك . . إذن الكثير من الإسلام ، و«ستاندر أويل» و«غولف» و«سوكوني» و«شل» وما تبقى من أسماء أكثر قوّة اليوم من القوميّة العربية

التي يحرص فاضل على جعلها ورقته الأولى والأخيرة . . مغامر مدرّب على مهنته جيّداً يفضل أن يحتفظ بأوراقه القويّة حتى نهاية الشوط . . . شبه الهزيمة نهاية الشوط أم بدايته ؟ السؤال يطرح أسئلة ، والعمل النظري أصبح ترفاً . . إذن لا بدّ من المضيّ نحو الواقع بعزيمة أخرى . الواقع . . الفعل . . اكتملت المعادلة أم لم تكتمل بينه وبين المهاجرين الفلسطينيين في تلك البلاد التي نزح إليها بعد إبعاده عن نابلس . بل في ذلك البلد المضيف كما يحلو للمهاجرين تسميته .

استطاع النقاش النظريّ المكثّف للأحداث أن يبلور تيّارات مختلفة بينهم ، تبدو في ظاهرها متعارضة أشدّ التعارض إلى درجة الافتراق . لكن «فاضل» استطاع رغم ذلك كله أن يستحضر تجربته المكثّفة في الحزب ويستخدمها لإقناع من يمكنه التردّد ، وهكذا تبلورت عبارات «بديل الواقع» و«بديل الهزيمة» لأن «بديل الوطن» أصبح يهدّد وجودهم بخطره الرهيب .

لاحظ فاضل أن نكسة حزيران قد أفرزت في صفوف الفلسطينيين تيّارين متناقضين ، أحدهما يغذّيه النفط بسخاء ، وثانيهما تغذيه مجموعة أفكار لمتمرّدين أوروبيين مترفين ضد الماركسية . الأول يعتبر : أن المعادلة تبدأ بالإسلام كبديل للقومية والماركسية . . «الإسلام القادر على صنع المعجزات . . الذي أوصلنا إلى السند والهند ، والأندلس» .

أما المعادلة الأخرى . . المعادلة النقيض فقد تمثلت في رجال أصغر سناً ثاروا نظرياً على كل ماله علاقة بالماضي ليتمسّكوا بحبال الماركسية معتبرين أنها طوق النجاة نحو مجتمع آخر . . قارب يقود إلى فلسطين دون متاعب . . لكن أصحاب المعادلة الأولى ، كأصحاب المعادلة الثانية ، جميعهم نسوا في المهجر القريب صلب الحقيقة . . نسوا التاريخ . . التاريخ الذي يهدّد ذاكرتهم . إحساس غامض كان يلاحق «فاضل» وهو يلتقي المهاجرين . . إحساس بأن مدافع الحرب في سنة ١٩٦٧ لم يكن هدفها تدمير المدن فحسب بل تدمير الذاكرة

العربية ، وحين يجري التحرّر من الذاكرة يعبر كل شيء ويصبح ممكناً ، بما في ذلك السعادة أو الخيانة . يصبح كل شيء ممكناً إلا التاريخ . فلا مستقبل لشعب دون ماضيه . تماماً كما هو الحال بالنسبة للأفراد . وتساءل وهو يخوض معركته بينهم إذا كان بمقدرته نسيان تاريخ حزبه القوميّ الذي يتّفق طرفا التيار على هزيمة فكره ؟ . . أبداً ، هو غير قادر على نسيان ذلك . . بل ما زال يعتبر تلك الأفكار التي تعلّمها في الجامعة هي البوصلة التي توجّه حياته المستقبلية . . تسكن نخاعه الشوكيّ وكأنها ولدت معه . . تطبع كل حركاته وربما ستطبعها حتى موته . .

كان «فاضل» يخرج من كل اجتماع معهم ويسير في شوارع المنفى الذي يسمّونه : البلد المضيف مندهشاً من تلك القدرة على النسيان التي تسمح لأولئك الذين التقاهم قبل قليل أن يُلغوا بجملتين خمسين سنة مضت بكل زخمها القومي . . كان يتذكر المعارك الحقيقية التي خاضها جيله ما قبل الهزيمة . . خاضوها جميعاً عبر رؤيا تجسّدت آنذاك في حركة القاهرة باتجاه المستقبل . سوف يحمل فاضل القاهرة في جسده إلى حيث يمضي . . وسيعيد لأولئك الذين يمسكون بطرفي معادلة دون عمودها الفقري شيئاً من الثقة بالمهزومين . . : فالمهزومون ما زالوا يملكون الرؤيا الصحيحة . كل يوم كان يمرّ عليه في المنفى وهو يتنزّه في وضح النهار تحت ظل حرارة أربعين ، من الصباح إلى المساء ، يكشف له أنه يعيش في مدينة دون ذاكرة ، تحفر الجرافات ، وتقطع الفؤوس كل ما هو زائد من الماضي . . أشجاراً تنتمي إلى زمن ما قبل الثروة ، بيوتاً طينية يرون في بقائها علامة فقر . وكلّ ما كان يغذّي ذاكرة الشعب هنا يجري اجتثاثه وسحقه بواسطة تلك الآلة النفطية . . لم يكن باقياً من المدينة القديمة غير زبد البحر على الطرف الآخر . . لا شيء آخر من تجويفات الذاكرة . . من فقاعات الإلفة . . من الماضي . وتوقّع أن تولد حركة في وسط مواطنيه الذين اختاروا هذا البلد المضيف ليلجأوا إليه ،

توقّع أن تولد حركة بدون ذاكرة . . بدون ماضٍ . . بدون تاريخ .

عندما كان فاضل يصل بتفكيره إلى هذه النقطة من تاريخ حياته الشخصي ، يشرد بنظره نحو باريس التي تبدو من شرفة بيت إليزابيث كأنها تعاني النزع الأخير . . باريس . . مرسيليا . . لندن . . جنيف . . لقد تنقّل كثيراً في مدن أوروبا منذ ابتعد عن المنطقة ـ ولذلك أسبابه ؛ لقد تعوّد في هذه المدن أن يستخدم النظريّات ، ويقلب دليل الهاتف ويتكلّم لغات غريبة عنه ، ويقفز على السلالم الكهربائية ، ويناقش في أصول الديمقراطيات الغربية لكنه لم ينجح حتى الآن ، ولا يبدو راغباً في خلق توليفة بين صورتين وزمنين يراهما جيداً . . ويعيشهما جيداً .

فكيف يمكن لهذين الزمنين أن يتقابلا معاً ؟ . . كيف يمكن لزمن التكنولوجيا وضبط إيقاع الثواني أن يلتقي بزمن من يأكل وينام ، ويمارس الجنس ، ويضحك في لحظة واحدة ؟ . . يعمل كل شيء في وقت واحد وبشكل رديء . . لكنه يستمرّ رغم اكتشافه للرداءة . وكم تعاني الثورة اليوم من هذا ! . . هذا التخبّط الأعمى في الخيارات ، والأفعال ، والأزمان يشيع الخواء في كلّ شيء . . أوامر . . وأوامر مضادّة . . عمليات عسكرية يجري التخطيط لها زمناً ، ثم يتمّ التراجع عنها في آخر دقيقة . . تحالفات يحضر لها أياماً وليالي ثم تلغى نتيجة لموقف انفعالي وقفه هذا القائد أو ذاك ، أو على العكس ، الانصراف عن عقد تحالفات ضرورية ، والضرب في معسكر الأصدقاء ، وعدم تقدير الضربة الضرورية في مكانها وزمانها . . ورغم ذلك كله يستمر الرجال ذاتهم في شغل المسؤوليات ذاتها ، وبالعادات ذاتها . . . لأن الجميع يتعرّفون على أنفسهم في ذلك !

أما هو ، «فاضل محمد السالم» الذي حرّضهم في ذلك البلد المضيف على التقاط اللحظة التاريخية للفعل ، فأين هو ؟ أين هو منهم ؟

يتأمل باريس من النافذة وتختلط الصور أمام عينيه . . يتذكّر بطريقة

مؤلمة ما نسيه ، كما يتذكر نهرٌ جافّ منبعه الضائع في الصخور . . يتذكر كثيراً كل يوم ويبتلع ذكرياته في أعماقه . . في المقهى . . في الركن نفسه من «كلوزري دوليلي» تعوّد أن يرجع دون خوف إلى ماضيه لأن رفاقه جميعاً يرجعون إلى الماضي . . بل بالعكس هم يعيشون في الماضي لا علاقة لهم بالحاضر . . نادية . . الأخضر . . عبد الرحمن . . محمد كلهم يعيشون في الماضي . . إنهم يعيشون الغياب . . لا . . ربما كان محمد وحده من يحاول الخروج من الغياب إلى الحلم . . إلى الموت . . لكن الموت لم يقبله فردّه إلى الغياب .

ويذكر نابلس . . دمشق . . بيروت . . القاهرة . .

هذه المدن كم ساهمت في تكوين كلّ خليّة من جسده ، وكل ثنية من تلافيف دماغه . . كم برمجت أحلامه ، وأوهامه ، ولحظات فرحه . . سوف يحمل هذه المدن ـ الذاكرة كيفما اتجه وإلى حيث يمضي حتى ولو قضى عمره كله في المنفى ، حتى لو قبل بإليزابيث بديلاً لسحر ، المرأة التي أحبها في مدينته ، والطفلة التي كبرت في ظل الاحتلال فأصبحت بالنسبة إليه حنيناً ، وشوقاً ، وموتاً يومياً يعيشه إلى جانب الحياة .

سوف يحمل تلك المدن ـ الذاكرة في القلب . .

حتى ولو كان هذا الزمن زمن الجلاد لا زمن الضحيّة . . كيف يمكن الامتناع عن الحلم ؟ كيف يمكن التوقّف عن الرحيل اليومي إلى هناك في الحلم . . لو أنه يعود إليهم ويقاسمهم أخطاءهم وما يفعلون . . لو يعود لما شعر بالغربة . .

لو يعود . . .

لو يعود حتى لو تقاسم الأخطاء معهم كما يتقاسم الفقراء رغيف الخبز . . لو يعود !

منذ رحيله وحتى اليوم يحاول «فاضل» أن يقنع نفسه بذلك ، لكن الثورة التي فجّر شرارتها الأولى في صفوف المهاجرين الفلسطينيين في

ذلك المنفى ، أصبحت شيئاً آخر بعيداً عن الحلم بعيداً عما كان يريد . . بعيداً عن الثورة ؟ . .

نعم أصبحت الثورة التي فجّرها بعيدة عن الثورة . . وعلى نابلس أن تقول كلمتها في المستقبل لأنها الوحيدة المؤهلة لذلك .

منذ البداية ولدت ثورته مشلولة وسط تناقض تاريخي حقيقي بين تيارات مختلفة لم تستطع عقول أصدقائه أن توفّق بينها ، فالقوميون اعتبروا الإسلاميين أعداء لهم لا حلفاء . . والإسلاميون اعتبروا الماركسيين زنادقة يستحقّون الصلب . . وعبْر هذه التصنيفات الحجرية نفذ كل شيء . . نفذ النفط ، والخلافات العربية ـ العربية ، والثورة المضادة ، والطحالب الفطرية التي تنمو وتعيش على حافة الثورة اليوم . .

يتأمّل سقوف باريس الرمادية بينما الفجر ينتشر ضوؤه عليها ، وتطير أسراب من الحمام باتجاه السين . . يستعصي النوم عليه . . يشعر بجسد اليزابيث إلى جانبه جبالاً من الغربة . . جبالاً من النفي . . لم يحدّثها أبداً عن كلّ همومه خلال حياته معها .

من وقت إلى آخر عندما تفيض به الذكريات الحزينة . . عندما يسمع أو يقرأ عن أخطاء جديدة . . عندما تنقل إليه الصحف أخبار مجازر جماعية جديدة يتعرّض لها شعبه على يد الصديق والعدوّ . . عندما يسمع كلّ ذلك يصرخ . . يصرخ فاضل بحزنه ، وتردّد صرخاته جدران جسد اليزابيث ، وهذا البيت الذي يعيش فيه منفياً عن كل تاريخه ، وحاضره . .

لكن الصراخ لا يجدي . . هكذا تقول لهم نادية كل يوم . . وهكذا قالت له يوم ذهب إليها ليقول لها : إنها تذكّره بسحر . . وإنه عندما يعود وحيداً إلى غيابه يصرخ بجنون من يحب .

«الفجر الرمادي .. الفجر الرمادي .. وأسراب الحمام .. بداية الشتاء يا فاضل .. زاوية مقهى «كلوزري دوليلي» .. وجوه أصدقائك .. محمد العائد من أحد السجون العربية .. نادية الفارعة الجميلة .. الأخضر وجنونه الأبدي .. عبد الرحمن المتمرّد على سلطان الثروة .. باريس هذه المجنونة تضمّكم لأن لا مدينة عربية أخرى يمكن أن تتنفسوا فيها بحرية وتقولوا ما تشاؤون» .

والماضي ؟ . .

يتذكّر الماضي الذي يهاجمه هذه الليلة دون رحمة ، يوم اختار محمود أميناً لسرّ اللجنة الأولى التي كانت نواة الثورة فيما بعد . قال له أحد رفاقه : «إنك تخطىء في هذا الاختيار دون أن تدري .. محمود متحمّس لكنه لا يقف على أرض خيارات صلبة . ومن لا يقف على أرض خيارات صلبة يا فاضل يتحول العمل الوطني بالنسبة له إلى مجرد حركة فيزيائية ، الربح والخسارة : فيها آنيّان ولا يتّسعان لخدمة استراتيجية بعيدة» . يومها فسّر فاضل كلام رفيقه لصالح الجمود العقائدي الذي ظنّ أنه السبب الأساسي في الهزيمة .. والآن ؟ .. اليوم بعد أن دخلت الثورة في المتاهات ولعبة شدّ الحبل .. بعد أن أصبح السحر هو الفعل ، يدرك خطأ الاختيار . كان محمود يملك ميزة واحدة هي سرعة المبادرة الفيزيائية دون تفكير مسبق .. دون تخطيط لعشرة أيام قادمة .. دون فضيلة التراجع والمراجعة .. وقد انقلب عليهم وعقد تحالفات جديدة نجحت في خلق هياكل للثورة أصبحت الثورة أسيرة لها .. ثم كرّت السبحة ووجد كل من يفكر بشكل مخالف للحركة الفيزيائية نفسه بعيداً عن الساحة .. فاضل أول المبعدين والمطاردين .. هو وأمثاله من المثقفين .. أو من جيل المثقفين الذين فكروا بالثورة فأصبحوا مشرّدين في المنافي .. لكن الثورة أصبحت واقعاً .. وشدّت إليها شعبه المتعطّش للعودة .. أصبح من المستحيل اليوم الرجوع إلى الوراء ، إلى

البـدايات ، لتصحيـح مسـار الثـورة في هـذا الـزمن الـذي طغت عليـه اللاذاكرة . . بل الغياب . . هذا زمن الغياب .

بالأمس سألته نادية في مقهى «كلوزري دوليلي» بعد أن هدأت حدّة المفاجأة بعودة محمد :

ـ هـل الثورة أمـر مـطلق . . هـل بـإمكـان المـرء اليـوم أن يكـون ثورياً ؟! . .

أجابها دون تفكير :

ـ إذا افترضت أن الثورة هي المطلق .

قالت :

ـ إن عصر المطلقات قد زال .

فقال لها :

ـ لا يمكن للمرء أن يكون ثـورياً اليـوم ، دون أن يكون من واجبـه اغتيال رفاقه في الحلبة .

قالت لـه وهي تنفث سيجارتها بألم :

ـ اسمع يا فاضل ، إنّ أيّ فلسطينيّ لا تساوره شكـوك حول مصيـر ثورته هو أحمق خطير . . أيّ رجل لا يعيـد النظر في الأسـاسيات ينبغي نعته بالجنون .

قال لها :

ـ لا يموت المرء ولا يقتل الآن لأجل أشياء تافهة . . إن الثورة تدخل عصر الأضاحي .

وعندما أراد أن يضيف شيئاً قاطعته :

ـ من يتأرجح بين الإصلاح والثورة يسقط في فراغ .

أكان حقاً ما قالته نادية ؟ إنَّ السؤال يعذّبه . . والإجابة على السؤال تعذّبه أكثر وأكثر .

يتقلب فاضل في سريره محاولاً النوم دون جدوى . . يتأمل شعاع الفجر الرمادي وهو يتسلّل إلى الغرفة من شقوق النوافذ . . يتذكّر وجه محمد العائد هذه الليلة من السجن ، محمد الذي تحدّاه مرتين : مرة يوم قرّر الرحيل إلى داخل بلاده أثناء «انتفاضة الخبز» ومرة أخرى عندما عاد بعد صدور الحكم عليه بالإعدام . ولكن كيف عاد محمد ؟

يتقلّب في سريره فيصطدم بجسد اليزابيث ويتذكّر عيني نادية الشاردتين منذ أيام في مجهول لا أحد يعرف سره من رفاق الشلّة . . فيتذكّر وجه عبد الرحمن . . والأخضر ، لقد تحوّل عالمه منذ عام ليصبح هذا الشلّة من الأصدقاء . . هذا الزمن الهارب من بين يديه دون أن تكون لديه القدرة على التأثير فيه . . يتذكّر العبارات القاسية التي ألقتها اليزابيث على رأسه لدى عودته . . يقرّر أن يبحث عن عمل ما «عَلّني أرفع عنها عبء مسؤولية حياتي . . سأبحث عن عمل غداً أو بعد غد . . سأحاول «أن أنهي أطروحة الدكتوراه وأعود» .

ولكن إلى أين ؟ هذا السؤال لا يجد فاضل له جواباً ، كآلاف الأسئلة الأخرى .

سأحاول . . ويتوقّف تفكيره . . سأحاول . . يردّد الكلمة عشرات المرات ويتذكّر وجه نادية الذي يشدّه كل مساء إلى ذلك الركن من مقهى «كلوزري دوليلي» يتذكر عينيها ، صورتها . . عنادها القاسي في مواجهة الغربة . . ويغفو فاضل بصمت في اللحظة التي تستيقظ فيها اليزابيث لتبدأ نهاراً جديداً . . .

* * *

«لم أكن أصدّق عودته . . لم أكن بحاجة لكي أصدّق» . .
ردّد الأخضر هذه العبارات عدة مرات وهو يقطع المسافة ما بين

«مونبرناس» وبيته في شارع «ماريون» في الدائرة الخامسة عشرة . عودة محمد المفاجئة من الموت أثارت في داخله حطام ذكريات سنين طويلة من المنفى الاختياري الذي وجد نفسه فيه عشرين سنة والزمن ينزلق عليه . . حديد الزمن المحمّى يكوي روحه وجسده فلا يترك أثراً فيه . . عشرون سنة يخترع كل يوم أسباباً للبقاء هنا وسط هذا المجتمَع الذي يكاد ينفجر أبناؤه من فرط العافية . . يسيرون على الأرصفة المبلّلة بالمطر دون أن ينظروا بطرف العين إلى الضفّة الأخرى من المتوسّط . . «شجعان هؤلاء الأوروبيّون !» هكذا يردد الأخضر باستمرار أمام نادية في «كلوزري دوليلي» . وعندما ترفع رأسها متهكّمة يضيف : «نعم إنهم أشجع منا . . نحن لم نحتمل التنزّه في مدننا بعد حروب صغيرة كحرب الأيام الستة . . أنت لم تحتملي السير بين خرائب بيروت ، وهم نهضوا من الموت سنة ١٩٤٤ ليسيروا وسط خرائب لندن ، وباريس وبرلين ، وستالينغراد . . ليعيدوا بناءها من جديد . . كل شعب يستحقّ حكامه . . كل شعب يستحقّ ما هو فيه . . » .

«لم أكن أصدّق عودته . . لم أكن بحاجة كي أصدّق» . .

الساعة السادسة صباحاً . . هذا الصباح يستقبل المدينة وهو يتصبّب عرقاً . فقبل قليل بدأت فرحته بعودة صديقه تخور وتتبخّر أمام حقيقة الأشياء ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ . . يردّد الأخضر هذه الآية القرآنية ، محاولاً أن يعزّي نفسه بقدريّة يلجأ إليها كلما حاصرته حقائق الأشياء . لكن الآية القرآنية لم تبعث في نفسه السكينة هذا الصباح ، وها هي عودة محمد من الموت تذكّره بتلك الأيام البعيدة التي يحاول منذ عشرين سنة أن ينساها في هذه المدينة .

طيلة ساعات الصباح الأولى التهم «الأخضر» القرآن . . قرأ أكثر من عشر سور وأعاد قراءتها . . . منذ سنوات لم يقرأ هكذا . . منذ نسي في زحمة الحياة هذه أصله ، ومسقط رأسه ، والأسباب الخفيفة التي دعته

للهجرة . . لقد رحل الأخضر صغيراً عن موريتـانيا . . رحـل في الثانيـة عشرة من عمره ولم يعد إليها . . تـطوّع في صفوف المقـاومة المغـربية وقاتل بشجاعة حتى أعلن استقلال المغرب ، ووجد نفسه دون عمـل ، فانتقل إلى الجزائر ليلتحق بثوّارها في الجبـال . لم يكن يعترف آنـذاك بالحدود الفاصلة ، وكان يردّد أن هذه الحدود إنما وضعتها فرنسا . . لكن لشد ما تألّم الأخضر فيما بعد عندما أدرك : أن هذه الحدود أصبحت أكثر قداسة من دم الرجال الذين قاتلوا لأجلها . . في الجزائر عرف الأخضـر جميع الرجال الذين تحدّث التاريخ باسمهم فيما بعد . بعضهم قتل أثناء الثورة ، وبعضهم الآخر التقاه على أرصفة مقاهي باريس بعد الاستقـلال أما هو الأخضر الموريتاني فقد اعتبر أن مهمته انتهت وقرر الرحيل .

اتّجه إلى الشرق . . إلى الشرق اتجه الأخضر باحثاً عن نفسه . وكم ردّد أمام رفاق الشلّة في «كلوزري دوليلي» أسباب رحيله . . البحث عن الأمّة . . صوت عبد النـاصـر . . اكتشاف قبـر امرىء القيس . . وأشيـاء أخرى تلقّاها أو سمع بها بعيداً في وسط صحراء موريتـانيا . . لكن كـلّ الأسبـاب التي يتحدّث عنهـا الأخضر علنـاً وبصوت مـرتفع لا تقنعـه هو شخصياً . . لقد رحـل عن الجزائـر وكفى الله المؤمنين شر القتـال ! . . رحل لأنه بحـاجة إلى حلم جـديد . . رحـل وانتهى الأمر : لمـاذا ذلك الإصرار المضني من قبل نادية لفهم أسباب رحيله ؟ لماذا تريد أن تفتح الجرح بعد أن التأم ؟ لماذا تريد استعادته من الغياب الذي هما شريكان فيه ؟

آنذاك كان الحلم ميسوراً للجميع : القاهرة التي كان يسمع صـوتها وهو يقاتل في عمق صحراء المغرب ، ثم في شعاب الأوراسي . . كانت لا تزال تضيء وجه العالم . . وعبد الناصر يشعّ كنجمة في الصحراء . . ويتذكّر الأخضر وجه عبد الناصر الذي رآه في الصور المعلّقة على جدران المنـازل في مراكش ، وفـاس ، وعنابـة ووهران . . ويتـذكّر تلك الثقـة

المطلقة التي منحها الناس إيّاه من بعيد . . إذا تخاصمت جارتان على ساقية ماء في نواكشوط كانت تهدّد واحدة منهما الأخرى بأنها ستشكوها لمن لا يظلم ، وذات مرة سأل الأخضر عجوزاً مغربياً في صحراء مراكش هدد جاره بأن يشكوه إلى من لا يَظْلم : ومن هو من لا يظلم ؟ «فأجابه هو عبد الناصر» .

وترك الجزائر إلى القاهرة . . باحثاً عمن لا يظلم ، فلم يره . . سمع صوته الجريح عبر أجهزة الراديو صباح الهزيمة وبكى . . بكى كما لم يبك أبداً في حياته ؟ خرج مع الجموع الغفيرة التي خرجت في شوارع القاهرة تطالب بعودته . . مزّق درّاعته الموريتانية وضرب على صدره . . قال بلغة «الولف» أشياء كثيرة لم يستطع أن يقولها بالعربية التي لقّنه إياها الشيوخ . وعجب لأمر النساء المصريات اللواتي يُجِدْن البكاء كما يُجدن الزغاريد .

كان مرةً يروي شيئاً عن رحيله إلى المشرق عندما استوقفته نادية قائلة : «أتمنّى أن تروي لي كيف كانت القاهرة بعد الهزيمة» .

ويتذكّر أنه توقّف طويلاً أمام سؤالها ، حاول أن يجمع شتات الصور التي التقطتها ذاكرته المتعبة . . صور مضيئة لا يستطيع أن ينساها أبداً . لا يستطيع تفسيرها منطقياً فقد كان هناك شيء أبعد من المنطق . . قال لها : «لم أرَ في حياتي مدينة مهزومة بكل ما تعنيه الكلمات تعيش عرساً . . لم أرَ في حياتي قائداً يتعرّض لتلك الصدمة العنيفة التي تلقّاها الزعيم وينتصر عليها» . قبل أن يتمّ عباراته قاطعته نادية بشيء من الحزن «كان ، واليوم انتهى كل شيء» .

إلى أي مدى كان ما قالته نادية صحيحاً ؟ «بعد خمس عشرة سنة في المنفى اهتزّت صور كثيرة في ذاكرته . . تبدّلت قناعات ومسلّمات . . لم

يصمد أمام ريح المنافي سوى صورة ذلك الزعيم «الذي خاننا بموته» . .

«لقد خاننا عبد الناصر بموته . . لو أنه انتظر قليلاً» . .

يردّد الجملة في فناء الغرفة فيسمع صوته «لو أن عبد الناصر انتظر قليلاً !» يرعبه الصدى فيتراجع إلى جزيرة الصمت . . يتذكّر رحيله عن مدينة القاهرة بعد حرب حزيران مستعيضاً عن مرارة الهزيمة بصبره المتطلع إلى الشرق . . صبر الأيتام المرتدّين إلى ظلّهم ، كان يشعر أنه ليس من قوة تستطيع أن تلتهم ذلك الظلّ أو تقتله . . إنه ظل التاريخ الذي نقتفي آثاره ، ونتتبع خطاه رغم وجود طريقنا الخاصّ دون أن يعرف أبداً أين يصدر ، ومتى حكمه . . في دمشق أحسّ وهو يطوف بمسجد بني أمية ، ويتوقّف أمام قبر صلاح الدين بأن الأموات يبعثون بمجرد أن ينفخ في الرماد الحارّ فصلاح الدين سينهض ليفرض على من حوله السير والظمأ حتى الموت ، وإذا عجز عن المضي فستردّه الهزيمة مثقلاً بالتاريخ .

قال الأخضر بعد سنوات من تلك الزيارة إلى دمشق لأحد أصدقائه : «كنت وأنا أتأمل ضريح صلاح الدين بأن علينا أن نأخذ الهزيمة على عاتقنا . فنحن الذين خلقنا اللامبالاة والاستهتار . أما تاريخنا فبريء من ذلك» .

وبعد دمشق ، كانت بغداد ودجلة . سار الأخضر من بغداد حتى الحدود الفاصلة بين العرب والطرف الآخر من العالم . . وصل حتى مصبّ النهر الذي لا يجفّ إلا خجلاً . . وبلغ الخليج الذي لا يعترف فيه أيّ نهر بمياهه ، وتوقّف يتأمّل من حوله غابات النخيل الفضّية تتلوّى تحت الشمس الحارقة . . شمس جنوب العراق التي لا تعرف الحدود . . وركض الأخضر فرحاً بلقاء النخيل عندما تذكّر نواكشوط ، تذّكر خاله «سي أحمد» الأب الذي ربّاه بعد موت والده . . خاله الذي قاده إلى «داكار» وأضاعه هناك بين قبائل «الولف» ، وعاهرات حيّ

الميناء ، تلك النساء الخلاسيّات الجميلات اللواتي ينتمين بأجسادهنّ إلى آباء أوروبيين بينما تنغرز أرواحهن في عمق تراب أفريقيا ، كان يمضي وقته بينهن وهو يحاول أن يعرف من في الآباء منح تلك أو هذه الحياة ، ثم تخلّى عنها . . وبعد ذلك ، كانت عمّان في زمن الثورة .

عمّان ؟ يردّد الاسم اليوم وهو يشعر بألم الجرح في أعماقه . لقد سار في دروبها من درب إلى آخر دون هدف ، ودون كلل بحثاً عن الثورة التي قرّر أنه سيجدها بأيّ شكل . وذات يوم بينما كان يترك مكتب إحدى منظّمات المقاومة التقى وجهاً لوجه تحت أنوار الرصيف الكاشفة بأحد أصدقائه في حرب التحرير . . صاح بفرح :

ـ وماذا تفعل هنا ؟

ـ أتظن نفسك الوحيد الذي رحل إلى المشرق ؟

لم يتمّ صديقه عبارته حتى دوت صفارة تعلن منع التجوّل في الحيّ فاختفى صديقه ووجد نفسه وحيداً يرقب بصمت تلك الأرصفة الحجرية التي خلت من البشر ، بينما يمتدّ الليل المقفر من النجوم ليغلف الجبال المتناثرة أمامه . . كان الأخضر رغم حمّى أجواء الحرب في عمان يذهب كل يوم إلى مكاتب منظّمات المقاومة ويلتقي بقياداتها ، ويجادل في مستقبل الثورة ثم يحاول أن يقارن بين ما عاشه في الجزائر وما يعيشه في عمان ، وعبثاً حاول أن يبحث عن الصديق الذي التقاه وجهاً لوجه تحت انوار الرصيف الكاشفة قادماً من المغرب العربي ، لكن الجميع أكّدوا له أنه لا يوجد شخص بهذه المواصفات حتى كاد يقتنع أن ذلك الصديق مجرّد وهم ليس أكثر . .

وفعلاً لم يعرف الأخضر حتى هذه اللحظة إذا كان ذلك الصديق وهماً أم حقيقة .

هبّت نسمة خفيفة رطبة من النافذة ففتح عينيه ليرى شمساً شتائية تتسكّع على أبواب نهار ماطر . . كانت الشمس أميل إلى الصفرة ،

وأقرب إلى الأرض ، بينما هو غارق في تأمّلاته داخل جدران غرفتـه . . إنه يكاد يستسلم للنعاس الذي يهاجمه دون رحمة فيتمتم ببعض الآيات القرآنية التي تعلّمها تحت خيام نواكشوط . توقظ الأيام في أعماقه ذلـك الحسّ الشجيّ بـالموت فيضـطر إلى الإستعانـة بكأس مـاء كانت أمـامه ليصحو . آه . . إن باريس ليست الجنّة التي وعد الله بها . . ولكن المدن العـربية الأخـرى التي عرفت في المشـرق والمغرب تعيش بين كـابوس الحقيقة والماضي . .

يغالبه النعاس ، فينكفىء إلى وسادة من القشّ فوق حشية مفـروشة على الأرض .

* * *

لا أحد يدري كيف انتقل الأخضر من رحيله الدائم في مدن المشرق إلى الاستقرار النهائيّ في باريس . . لا أحد بإمكانه أن يقول اليوم كيف وصل الأخضر إلى هنا وبرفقة من ولماذا ؟ لكن ما يعرفه رفاق المقهى أن ذلك البدويّ المتمرّد قرّر بعد مذبحة أيلول أن يهجر العـرب ليبحث عن عرب آخرين . هذا ما يردّده باستمرار عندما يسألونه عن سبب رحيله . . لا أحد يعرف كيف قرّر أن يتزوّج من تلك المرأة التي تعرّف إليها صدفة ، ثم أنجب منها ثلاثة أطفال ، صدفة كمـا يقول . منـذ زمن بعيد بعيـد ، اختفت هموم الأخضر الشخصية ولم يعد يقلقه مصيره أو مصير أطفاله ، لم يعد يقلقه أن ينام أو لا ينام ، أن يـأكلٍ أو لا يـأكل ، أن يعمـل أو لا يعمل . أصبح همّه الوحيد أن يكون عربياً أو لا يكون . وبحث الأخضر في منفـاه أن يكون عـربياً . كـان يخيّل إليـه أن اعترافـاته بـالهـزيمـة ، والثورات المطعونة ، والانتصارات الموهومة ، هي أسس راسخة لانتمائه وسط صخب مدينة باريس ، وهكذا كتب ذات مساء رسالة لأحد أصدقائه يقول فيها :

«ما أزال أمارس متعة التسكّع وحيداً في المنفى . إنني أسكن موطن

الكارثة التي حلّت ببلادنا . لا بدّ لي أن أقول لك اليوم : إن أمة لا يملك رجالها ونساؤها أجسادهم سوف تظلّ أمّة دون مستقبل . . نحن نناقش كلّ يوم تقريباً في مقهى «كلوزري دوليلي» مصيركم وأعتقد أن هذا المصير لن تقـرّره إلا امرأة واحـدة ، تسمى ناديـة ، تعيش بيننا وتحلم بـالعودة إلى بيروت» .

بعد أن أنهى الأخضر رسالته وضعهـا في ظرف ، ثم أغلق الـظرف وكتب على ظاهره عنوان صديقه ثم تذكّر أن إرسال الرسائل إلى الأصدقاء خلف البحر سوف يجعله من جديد قابلاً للمفاجآت ، قانعاً بالانتظار . . وهكذا قرر أن يحمل رسالته ويلقي بها في نهر السين الذي كان قادراً على أن يحملها بعيداً حتى مصبّه ، لكن دون أن تصل إلى من يجب أن تصل إليه . يجب أن لا يعرف الآخر جنون المنفيين أمثال الأخضر . . . يجب أن لا يعرفوا .

ويعيش الأخضر في باريس سنوات طويلة . . يتعلّم أشياء ، ويتذكّر أشيـاء أخرى . إنـه يتقن حفظ التاريـخ بتفاصيله ، أسـرار التاريـخ كلّها تعيش في ذاكرته : سياسيون عرب بأسـرارهم . . وخيانـاتهم . . سقوط من يـرفض الخيانـة منهم . . مـلاحقـة المثقّفين والكتّـاب في عـواصم أوروبا . . اغتيال بعضهم في غرف فنادق حقيرة متواضعة ، أو مكاتب لا اسم لها .

وأخـطر من كل هـذا أو ذاك شـراء من يتقن اللعبـة منهم وتجسيـده رمزاً . كلّ من استطاعوا اغتياله اغتيل ومضى . . كل من استطاعوا إعادته إلى سجونهم خُطف من العواصم الأوروبية أو بيروت ليموت متعفّنـاً في زوايا الزنزانات المعتمة . . كل من استطاعوا تحويله إلى عميلٍ حوّلوه . . أما من استعصى على قدراتهم المتواضعة ، فقد أوكلوا أمره إلى السادة . كان الأخضر يجد لذة خارقة وهو يحكي قصّتهم أمام رفاق المقهى حتى يخيّـل لعبد الـرحمن أن كل مـا يحصل يحصـل في حياة هؤلاء ليعـطي

الأخضر مادة لحكاياه . . . مرة كعادتها وهي تناكف الجميع ، سألته نادية :

- هم . . هم . . هم . . من هم أولئك الذين تتحدّث عنهم ؟

أجابها ضاحكاً :

- هم . . .

تساءلت ببراءة ساذجة :

- ألا ترى أنك تساوي بينهم دون إدراك للفروق ، والمواقف ، والأشخاص . .

قال لها وهو يلقي بكأس الويسكي على الطاولة ، بعد أن أخذ منه السكر مأخذه :

- إنّهم متساوون يا نادية . . هذا الزمن يستوي فيه البشر جميعاً . .

كان يدهشهم بقدرته الخارقة على التقاط الأخبار وتصنيفها في خانات معيّنة ، حتى أصبح الجميع مقتنعين بأن إمكانية الأخضر على الاستمرار في الحياة لا تعود إلى قوى خارقة ، ولا إلى صلابة عوده الذي تربّى في صحراء موريتانية بل إلى امتلاكه لذاك الكمّ الهائل من الأسرار . ورغم ذلك لم يوظف الأخضر أسراره لصالح مستقبله الشخصيّ . . كان يحلو له أن يرويها على قارعة الطريق . . على رصيف مقهى . . في جلسة تضمّ الأصدقاء بعد أن يسكر ، ويختتم قصّته بعبارته التي تحوّلت إلى شعار مرحلة بكاملها يعيشها أصدقاؤه المنفيون :

«نحن مجموعة جبناء لأننا هجرنا بلادنا ، وعبثاً نبحث عن الخلاص في مكان آخر» . عبثاً حاول الأخضر أن يبحث عن بديل لنواكشوط فأعجزه البحث ، وألقى به على شواطىء أوروبا مطارداً بالأحلام المنطفئة والفضائح وزمن الهزائم .

منذ خمس عشرة سنة يردّد الأخضر ملايين الشتائم ، ويلوك لسانه ألوف القصص وتطوف بمخيلته خطط كثيرة للعودة إلى مكان ما على الخارطة العربية ، حتى كان لقاؤه مع أصدقاء المقهى .

لم يلتق بهم صدفة ، بل كانت صداقة قديمة تشدّه إلى محمّد ، أما عبد الرحمن وفاضل فهما رفيقان تعرف إليهما في بيروت يوم كانت تلك المدينة لا تزال قادرة على جمع شمل مثقّفي العرب واحتضانهم . . وهكذا استطاعوا أن يشكلوا حلقة من حلقات مهاجرين غير عاديين . لم تجذبهم باريس بأنوارها أو عطر نسائها . . بل وجدوا أنفسهم بعد انفجار الحرب الأهلية . . بعد اختلاط الأوراق والرؤى والأحلام منفيين في قلب حاضرهم وربما مستقبلهم .

في بداية اللقاءات التي كانت تجمعهم في «كلوزري دوليلي» حلم عبد الرحمن أن يطلقوا من منفاهم تلك الشرارة التي تقرّر مستقبل شعوب تغطّ في نوم عميق وراء المتوسط . لكن الأيام تمضي . . تمضي الأيام سريعة مجنونة دون أن تبدع تلك اللقاءات أكثر من الندب . . ولخّصت نادية ذات مساء واقع أصدقائها ، بل واقعها معهم ، بعدّة جمل يتذكّرها كل منهم عندما يأوي إلى فراشه :

ـ لا تحلموا كثيراً بالزمن الذي لم يعد زمن الكواكبي . . لقد مضى الزمن الذي كانت تُصدِّر فيه باريس إلى الوطن العربيّ زعماء منفيّين . .

لكن الأخضر ردّ عليها قائلاً :

ـ لو بقيت في موريتانيا أرعى الإبل لأصبحت أحد ملوك الموحّدين .

ردّت نادية :

ـ لو ظللت في جنوب الصحراء ترعى الإبل ، لو قبلت بنصيحة خالك بضرورة حفظ الشّعر الجاهلي والقرآن ثم التحوّل إلى معلّم في إحدى الزوايا التيجانية لتغيّرت أمور كثيرة في حياتك . .

ـ كان عليّ أن أبقى فعلاً ، لكنني كما تعرفين بدويّ ، وواجبي أن أمارس قدري في التشرّد .

ـ إذن دعك من الندب !

كلّما كان الأخضر يلفظ هذه الجمل يتذكّر تلك الأيام البعيدة التي

شكّلت ماضيه ودفعت به إلى الرحيل الذي ما زال مستمراً في حياته حتى اليوم ، وربما ستنتهي حياته في الرحيل .

بـدأت رحلتـه الأولى من نـواكشـوط إلى مـراكش عبـر الصحـراء القاحلة ، قرّر أن يصل المدينة ذات البيوت الحمراء سيراً على الأقدام ، هرباً من ملاحقة سلطات الاحتلال الفرنسي التي كانت تطالب برأسه بعد أن اغتال جندياً فرنسياً في جزيرة «سان لويس» القريبة من داكار . لم يكن الأخضر يقصد اغتيال ذلك الجندي الفرنسي ، لكنه ذات يوم وهو يطوف في حي الميناء سمع صوت امرأة موريتانية تستغيث ، فأسـرع نحوهـا ، ليرى الجنديّ الفـرنسي ينهال عليهـا لكماً وضـرباً حتى كـادت أن تلفظ أنفاسها . . وحاول الأخضر منعه ، لكن أصابته الركلات والضـربات في أماكنٍ متفرّقة من جسده بينما وقف الزنوج ينظرون دون أن يجـرؤوا على التدخّل . وعندما تعب الجندي من كيل الضربات للمـرأة الموريتـانية . والأخضر ، انسحب وهو يبصق على الأرض مردداً «أولاد الكلاب» . لم يَكن يعرف أن الأخضر ذا الخمسة عشرة ربيعاً رسم صورته في ذاكرته ، ولن ينسى هذه الصورة أبداً . . سوف تطارده صيحات المـرأة المستغيثة طوال سنين لتقلق راحة نومه ، وتجعل لصباحاته لوناً رمادياً . . لوناً رمادياً كلون صباحات باريس المريرة . .

بعد ثلاثة أيام من حادثة ضـرب المرأة المـوريتانيـة وجدت سلطات الاحتلال الفرنسي أحد جنودها مطعوناً بسكين ، وملقى بجسده في حيّ الميناء بمدينة «داكار» . لم تنفـع حملات التفتيش التي قـادتها دوريّـات الشرطة العسكرية ، أو رجال البوليس في العثور على القاتل . وأنكر كلّ من شهد حادثة شجار الجندي مع المرأة الموريتانية والأخضر أنه رأى أو سمع أو عرف شيئاً . لكن الأخضر أحسّ خوفاً حقيقياً يداهمه هذه المرة وقرّر أن يرحل عن داكار .

وهكـذا اتجه إلى الشمـال ليعبر نهـر السنغـال لا يملك إلا دراعتـه

الموريتانية والمعلّقات السبع ، وألفية ابن مالك التي حفظها عن ظهر قلب . كانت الصحراء ما بين مراكش ونواكشوط حارّة مترامية ، وكان على الأخضر أن يمشيها على الأقدام إذا لم يلتق بالقوافل المتجهة إلى مراكش . . وبعد سنوات من هذه الرحلة ظلّ الأخضر يتذكّر كيف كان جائعاً وتائهاً ، ووحيداً في تلك الرحلة . . . وغير بعيد عن مدينة «السمارة» تعرف الأخضر إلى قبيلة الرقيبات فرافقه أحد رجالها حتى مراكش ثم ودّعه في مدخل المدينة قائلاً : «أنا أسمّى الشيخ إذا قدر لك أن تعود فاسأل عني في السمارة» وهزّ الأخضر رأسه دون أن يقول لمرافقه : «لن أعود أبداً» .

أوّل المدن . . أوّل الجدران . . أوّل محطّة من محطّات الرحيل كانت مراكش بمآذنها المربّعة ، بقرميدها الأحمر ، بطرقها المظلّلة بالسنديان الوحشي وتين الصبّار . ووجد الأخضر نفسه لأول مرة يطوف في مدينة عربية . كان في الخامسة عشرة من عمره ولا يستطيع أن يفرّق بين جدار وجدار . . بين حلم وآخر . . بين محطة ومنفى . . ثلاثة أيام وهو يطوف في طرقات المدينة ، وكان إذا اشتدّ به الجوع قرع أيّ باب من الأبواب التي تصادفه ، وطلب إلى أصحابها طعاماً . .

ذات يوم ، «حملت المرأة الجميلة لي الطعام ثم تأمّلتني بصمت وأنا آكل بشراهة بدويّ لم يذق الزاد منذ أيّام . . كانت ذات عينين ساحرتين . . وشعر أسود كالليل ينسرب على كتفيها ويمتد حتى الينابيع . . وقد انتظرت حتى أتيت على كل ما قدّمته لي ثم صحبتني إلى داخل الدار ، وفي حمّام رأيته لأول مرة في حياتي غسلتني ، وسكبت عليّ ماء الورد . . ثم . . صحبتني إلى سريرها . . كنت أترنّح من الخوف ، بينما نهار صيفيّ حارق يلقي بثقله على المدينة . . يحاصرني كأنه يريد منعي من الهرب . . قوة لامرئية قيّدتني إليها وخفت أن تبتعد عني . . عندما خلعت ثيابها قطعة قطعة أمام عيني أصبحت هي والرؤيا شيئاً واحداً . . كنت أجهل ما عساها أن تكون تلك المرأة . . من هي ؟

ولماذا اصطحبتني أنا «الأخضر ولد السالك ولد بوه» إلى عالمها وحجرتها ، وسريرها ؟ كنت أجهل ما عساها أن تكون تلك الجميلة . . أعوام مضت وأنا لم أنسَ الدار الواسعة ، لم أنسَ ساحة الدار ، والبحيرة الصغيرة وفي وسطها المرأة ذات الشعر الأسود ، ذات الجسد الأسمر تحت ناظري يلاحقني أبداً . . . لقد رافقتني المرأة في كل رحلاتي وتحوّلت مع الزمن إلى رؤيا بعيدة . . .

عندما عدت بعد سنين إلى مراكش وبحثت عن بيت المرأة ذات الشعر الليلي لم أجده . وفي نهاية زقاق ضيّق من أزقّة المدينة قابلت شيخاً يتوكأ على عكاز كان جالساً تحت شجرة عوسج برية لا أدري كيف نبتت في تلك الأرض القاحلة . . سألت الشيخ عن المرأة فهزّ رأسه وتأمّلني لحظة ثم نهض وقادني إلى هضبة خارج المدينة تقع في أعلى المنحدر حيث تنتشر بعض القبور المطلية بالكلس الأبيض . . كانت تبدو للناظر من بين شجر العنّاب كأنها محطّات نور على طول تلك الصحراء الممتدّة . كان القبر طويلاً ، أطول من جسد المرأة التي عرفتها ، وقبل أن ألفظ حرفاً ، نظر إليّ الشيخ نظرة من خبر الحياة وتوالت عليه المصائب حتى هدّته . . ثم انتقل بعينه ليرقب شعاع الأفق البعيد وراء مدينة مراكش التي كانت تبدو أسفل المنحدر حمراء قانية كدم لم يجفّ بعد . . مدينة تكثّف نيران وجودها الأسطوري منذ أيام المرابطين . . . إنها لا تنام باكراً كبقية مدن الصحراء . . إنها تسهر بانتظار فرسان التاريخ الذين رحلوا إلى الأندلس تاركين وراءهم نساء ساحرات ذوات شعور سوداء ، يستلقين على خاصرة النهر . . كانت مراكش في أسفل الهضبة صامتة بينما صوت الشيخ يتناهى إليّ :

ـ لقد ماتت الجميلة . . ولم يعرف أحد سبب موتها .

هبطت المنحدر والشيخ يلحق بخطواتي . . وتقدّمني بعد ذلك ، ثم عبر طريقاً ضيّقاً مسوّراً بالعوسج البرّي وأنا أتبعه ، وكان على يميننا

جدول ماء يهبط من أعلى صخرة معلقة في الفضاء ، وعن يسارنا مدينة مراكش . . وكانت السماء حزينة تنذر بالمطر . . قال الشيخ :

ـ سيبدأ الموسم جيّداً هذا العام ، لكن الفرنسيين كالجراد يأكلون كل شيء .

لم أخبر الشيخ بأن الفرنسيين تركوا مراكش باتجاه الشمال ، لم أقل له إنني مقاتل في جيش التحرير . . . لم أقل له أشياء كثيرة كنت أختزنها في الذاكرة ، وفجأة انهمر المطر ، وامتلأت الطريق بسيول عارمة راحت تتدحرج من أعلى الصخرة باتّجاه الجدول . وأغرقني المطر كما أغرق رفيقي الشيخ قبل أن ألمح مجموعة نجوم سماء ضائعة بين السحب . لم أكن أعرف أن العاصفة تجمع قواها قبل أن تعيد هجومها علينا مرة ثانية . . وقد انفجرت العاصفة كشبح قرمزي يسيل فيجر وراءه شمساً عجوزاً . . . كنا قد وصلنا إلى مدخل مدينة مراكش فرفعت رأسي إلى السماء لأخمن متى ستنتهي العاصفة ، وعندما التفتُّ لأخبر الشيخ لم أجده . .

وانتهى كل شيء . .

بعد ذلك بيومين أخبرت أحد رفاقي في جيش التحرير بما حصل لي في مراكش فنصحني ـ وكان من أصل مراكشي ـ ألاّ أعود إلى المدينة مرة أخرى حتى لا يقتلني زوج المرأة . . وحاولت أن أشرح لصديقي أنها ليست امرأة كبقية النساء . . قلت له : «عندما قادتني إلى غرفتها ونفضت شعرها الأسود أحسست أن بحوراً من العطر تتفجّر في وجهي . شعرت أنني قادر على مقاومة الموت طالما بقيت في ظلّ شعرها» . وعاد ينصحني أن لا أعود إلى المدينة مرة أخرى فلم أصدّقه . . كنت أعرف أن المرأة وحيدة في هذا العالم ، وليس لها زوج أو أطفال ، كنت أعرف أن الدار التي قابلتها فيها كانت داراً واسعة مليئة بشجر العنّاب الأحمر . . كنت أعرف أن صحراء ما تنام على ثديي تلك المرأة ، كل الصحراء تنام

على ثدييها . . لم تكلمني أبداً . . لم أسمع صوتها . . لم تنطق بحرف واحد . . بل ظلّت صامتة طوال الوقت الذي قضيته في دارها ، وأحسست أن المرأة وحيدة في هذا العالم ، وأن قدراً ما . . . قوة خفية قد عزلتها في هذه الدار لكي تستطيع تطويع جمالها الخارق» .

يروي الأخضر قصته أمام رفاق الشلّة في مقهى «كلوزري دوليلي» بعد أن ينال السكر منه مناله ، وقبل أن يسقط في بئر أحزانه كما تعوّد في آخر الليل . وتسأله نادية :

- ألم تعرف اسمها يا الأخضر ؟
- أبداً لم أعرف اسمها .
- ربما كانت سجينة تلك الدار حتى الآن ؟
- لم أر على معصميها قيداً أو آثار قيد . لقد قال لي الشيخ إنها ماتت .

وهل تتذكّر الدار التي دخلتها ؟

يغرق الأخضر من جديد في حزنه ويستمرّ في رواية ذكرياته :

«عدت إلى مراكش بعد خمس عشرة سنة من هذه الحادثة وبحثت عن الزقاق الضيّق المظلّل بشجرات العوسج والعناب ، لكنّني لم أجده . كنت متأكّداً من أنه يقع في جنوب المدينة على كتف الصحراء ، فسألت رجالاً كثيرين صادفتهم عن الزقاق والدار والرجل الشيخ فلم يعرفوا شيئاً .

-صفها على وجه الدقّة يا الأخضر . .

هكذا كانت تحرّضه نادية عندما يروي تفاصيل ماضيه فيجيبها :

- لا أستطيع . . لا أستطيع .

ثم يردّد كأنه يهمس في صمت الليل :

- لا أذكر إلا عينيها . . وشعرها . . ورائحتها النفاذة .

كان يحاول باستمرار ، بعد أن يأخذ السكر منه مأخذه ، أن يتذكّر تلك المراكشية الجميلة ، لكن الذاكرة تخونه حتى وإن خيل إليه في

مرات عديدة أنه يسمع حفيف شعرها الأسود . . كان شعرها الأسود أوّل ليل عاشه . . أوّل عطر لامرأة لامسه في جسد لم يستطع أن يعبر أسواره ، بل ظل أمامه يرقبه بدهشة بدويّ ، بينما كانت تقف أمامه مرفوعة الرأس كإلّهة يونانية . لا يستطيع الأخضر أن يحدّد لماذا كانت ذكرى تلك المرأة تقوده بشكل عفويّ إلى النظر في عيني نادية ، في وجه نادية . . في صوتها المترع ببحّة محببة . . في شموخها النادر الذي لم تكسره الحرب الأهلية ولا سنوات الغربة . أشياء وأشياء من تلك المراكشية التي لا يتذكّر اسمها ، ولا عنوانها . . . وكثيراً ما ردّد الأخضر بحرقة وهو ينسحب في نهاية الليل نحو بيته في شارع (ماريون) ، حيث ترقد زوجته التي يعيش معها صدفة ، كما سبق له والتقاها صدفة ، ثم تزوّجها صدفة ، كثيراً ما كان يردّد : «ما أشبه نادية بالمرأة المراكشية ، لكنني لا أجرؤ على تخيّلها عارية» .

ويضيف وهو يتأمل الليل الماطر كأنه يقرّ حقيقة يريد إقناع نفسه بها : «أما نادية فلا يمكن تعريتها . . يمكن انتظارها ، والبكاء على صدرها ، والغضب منها ومعها ، والرحيل في ظلّ شعرها إلى آخر العالم . لكن من الصعب امتلاكها» .

* * *

عندما قرع محمد باب بيت البشير في الساعة السادسة صباحاً نهض البشير بسرعة ليفتح الباب . . . كان قد مضى على وجوده داخل البيت مرابطاً بجوار آلة الهاتف الصمّاء ثمان وأربعون ساعة . بعد أن تلقى برقية استطاع أن يفكّ رموزها تقول له : «لا تغادر البيت ، إن أحد رفاقنا قادم إليك بعد أن نجح في الهرب من السجن» . وتوقّع البشير أن يكون القادم هو محمد لا سواه رغم الأنباء التي تضاربت قبل أيام عن إعدامه .

كانت قناعة البشير شبه الوصفية بعودة رفيقه ترجع إلى معرفته الحقيقية بطبيعة ذلك الذي استطاع أن يهرب من الموت عدة مرات رغم

الحراسة المشدّدة التي فرضت على سجنه . في كل مرة كان ينجح فيها الدكتاتور بإلقاء القبض عليه . وفي كل مرة كان محمد ينجح في الهرب وخلال فترة الانتظار التي طالت راجع البشير رسائل محمد إليه منذ عرفه وحتى الآن . تلك الرسائل البرقية التي كان يرسلها إلى باريس من هذه العاصمة أو تلك ليحدّد أمراً تنظيمياً أو ليوجّه تعليمات محدّدة بينما هو يتنقل بصمت بالغ في مملكة العمل السرّيّ ، مطارداً من شرطة الدكتاتور ورجاله .

في العواصم الأوروبية ، وبعد اغتيال صديقهما (علي) في باريس ، أصبح تنقّل محمد أحد الأسرار التي لا يعرفها داخل التنظيم إلا ثلاثة أشخاص مسؤولين عن تأمين حياته ، يأتي على رأس هؤلاء البشير ، وكم حاول هؤلاء الأشخاص الثلاثة منع محمد في الفترة الأخيرة أثناء «انتفاضة الخبز» من العودة إلى البلاد دون أن تنجح مساعيهم . لقد ظنّ خطأ أن «الظروف الموضوعية للثورة قد حانت» ، وأن إقصاء الدكتاتور أصبح ممكناً . لكن محمد الذي أمضى نصف عمره يتنقّل في ممالك العمل السرّي فاته أمر هامّ هو : أن السياسة ليست كافية وحدها لإبعاد دكتاتور من قصره ، بل لا بدّ من تحالفات كثيرة ، وهي تحالفات كان محمد يرفض باستمرار عقدها بحجّة أن كل الأحزاب السياسية في الداخل تورّطت في تأييدها للدكتاتور ، فقدمت له في فترة من أكثر فترات الوطن دقّة وحساسية سنداً ، أو عصاً يتكىء عليها . أما التحالفات الخارجية فأمرها أكثر تعقيداً ، حيث أن الظرف العام الذي تمرّ به المنطقة في هذه المرحلة تجعل التحالفات الخارجية أقرب إلى الاستسلام . وقد قرأ البشير في صمت غرفته آخر رسالة تلقّاها من رفيقه في السجن . رسالة يقول فيها :

« أعتقد أن فترة السجن ستطول هذه المرة إذا لم أعدم . إنهم يتحدّثون هنا عن إمكانية إعدام جماعيّ في الفجر ، ومنذ الأمس بدأ ثلاثة من السجناء إضراباً عن الطعام بهدف تحسين أوضاعهم ، وظروف اعتقالهم . لكن ردّ السلطات كان حاداً و رهيباً ، إذ قادوهم نحو الفضاء

القريب من السجن وطلبوا إليهم أن يحفروا خندقاً أمضوا ثلاثة أيام في حفره ، وعندما انتهوا منه ألقى بهم الجنود في الحفرة وردموها ، فانتهى الإضراب . لا تستطيع أن تتصوّر مدى الرعب الذي أصبنا به جميعاً داخل الزنزانات المنفردة . عندما عاد الجنود إلى ممارسة تسليتهم اليومية بأجسادنا ، أنا شخصياً تعرّضت للجلد المبرّح ، والكيّ بالكهرباء ، ثم أجبرت على التجرّد من ملابسي والجري في ساحة السجن على مرأى من عيون السجناء . . . لعلّك تذكر السجن إيّاه ، فقد سبق واعتقلنا فيه معاً أيام المقاومة ضد الاحتلال الإنكليزي . واليوم مضى على الاستقلال عشرون عاماً والسجن هو نفسه ، والحرّاس أصبحوا من أبناء البلاد . إنهم يقفون أمام الزنزانات بحقد ، ولديهم اعتقاد كامل بأننا أعداؤهم . ألا تعتقد أننا هُزمنا ؟

«هل تذكر السنوات التي قضيناها معاً في السجن أيام الاحتلال ؟ ألا تذكر مراحل التعذيب الجسدي ، والصمت الإجباريّ ؟ كان بمقدرتنا تحمّل ذلك ونحن مراهقون لم تُستهلك أجسادنا بعد . أما اليوم فأشعر بوطأة العمر تزداد قسوة وحدّة ، وبالتالي فإمكانية الصمود أصبحت أقل . إن ما يعذّبني أيّها الصديق : ألا أستطيع الصمود تحت التعذيب ، لكنني لو اعترفت فسأجرّ رفاقاً كثيرين إلى الموت . لو افترضنا أن الله قضى أمره ، فعليك مسؤولية الاستمرار ، خذ بالك من الأولاد لو حصل أي شيء» .

مرّت الرسالة من يد إلى يد إلى يد ، قطعت الزنزانات والأنفاق السرّية وحدود دولة الدكتاتور حتى وصلت إلى باريس . قرأها البشير مئات المرات علّه يجد بين سطورها بعض أمل يؤكّد له ، أو يمنّيه فقط بإمكانية صمود رفيقه داخل السجن ، لكن آماله كلها كانت تتساقط وتضيع مع تواتر الأنباء من داخل البلاد . لقد دفن محمد دون شك في رماد وحدته .

هكذا كان يعتقد البشير . وكان يدرك أنه لن يعود إليهم هذه المرة .

أما هو ومئات من رفاقه خارج البلاد فكانوا يعدمون بطريقة مختلفة كل صباح . . يصدّقون أو لا يصدّقون خبر إعدام رفيقهم مئات المرات في اليوم . . يردّدون : سوف يصعد من موته ويعود إلينا تماماً كمجيء الأساطير . يردّدون : لن تنفع أسلحة الدكتاتور في قتله ما دامت روحه سوف تتجسّد في مكان آخر وكل شيء يبدأ من جديد . . .

كان رفاق محمد يؤمنون بقدرته . . . يؤمنون بعودته ووجوده ، لأنهم بحاجة لذلك الإيمان .

ها هو البشير منذ الأمس ينتظره في زاوية بيته المطلّ على شارع (سان جرمان) ، ها هو ينتظره منذ تلقّى برقية من أحد رفاقه في الداخل تنبئه بشكل شيفرة كان عليه فكّ رموزها : «سيصل الرجل الذي انتظرت» . . لكن محمد يفترض أن يصل في العاشرة مساء ، فالطائرات القادمة إلى باريس من ذلك البلد المجاور لبلد الدكتاتور تقوم في المساء ، ما الذي أدّى إلى تأخيره ؟ وكيف قضى ليلته وأين ؟

لم يكد البشير ينتهي من طرح الأسئلة على نفسه حتى دقّ جرس الباب . . إنه هو في هذا الصباح الماطر . . فتح الباب . . رأى البشير رفيقه ملفوفاً بعتمة الصباح . . تنحّى قليلاً وأفسح له المجال كي يدخل . . عبر عتبة البيت باتجاه الصالة وهو ينظر حوله بقلق ، قبل أن ينبس بحرف . . التقت عيناه بعيني رفيقه . . نظرة تدفع كل الديون المتراكمة . إنه لشيء عظيم ورائع أن يكتفي المرء بالإحساس . كانت الأشياء من حوله تقول إن رفيقه قد انتظره طويلاً . . أحسّ بشيء من الذنب لأنه لم يفكر بذلك فتوجّه من المطار إلى مقهى «كلوزري دوليلي» قبل أن يهتف له أو يمرّ به . لكنه لم يستطع أن يفعل غير ذلك ، كانت عينا نادية تناديانه بكلّ ما تحمله عيون النساء من حلم . . . يضغط على شفته السفلى وهو يتذكّر ذلك . . هل هي عادة رومانسية تلك العاطفة التي تسكنه . . . امرأة بعيدة بعيدة ، أو هكذا يشعر . . امرأة . . تبغ معتق . . سرّ نحفظه في أعماقنا لنعيد الاقتراب منه . وتذكّر محمد أن

الحب ليس لـه هو . إنـه لأولئك الـرجال الـذين يخـرجـون من بيـوتهم ويعرفون في أي ساعة سيعودون . . لأولئك الرجال الذين يتمتّعون بكامل وقتهم منـذ بدء الـزمن ، ومع ذلـك فقد حـاول داخل أسـوار السجن أن ينساها . . أن ينسى عينيها . لكن عبثاً . . كان يعيد ترتيب الأمور والوجوه التي تركها خارج سجنه فيـأتي وجهها الأول يسمـع صوت البشيـر يثرثـر بأشياء كثيرة وها هو يتبين بعض الجمل مثل :

ـ لا بد أن ترحل غداً عن باريس ، اذهب إلى لوزان : سويسرا أكثر أماناً .

يجيب نصف حالم :

ـ لا أعتقد أنهم يفكرون باغتيالي في فرنسا، إن العلاقـة بينهم وبين الدكتاتور لا تسمح بذلك .

ـ لا تتّكل على هذه الفكـرة ، لقد غيّـروا أساليبهم ، ثم عليـك أن تفكر بردّه : هل الدكتاتور وافق على هربك ؟

لم يجـد محمد لـديه أدنى رغبـة في النقاش . كـان قلقاً وتعبـاً من المخابىء السرية والتشرّد ، وتلك الحياة المجنونة . . . إنه مـرهق حتى الوجع . . . متعب . . فالرحلة مـا بين السجن والحدود أصعب الرحلات التي قضاها في حياته . . . هذه المرة لـم يشعر وهو يترك السجن متخفياً في ثيـاب أحـد الحـرّاس بشيء من الانتصـار والـزهـو لأنـه خـدع الدكتاتور . . . أبداً ، بل كان حزيناً عندما تخطى بوابة السجن لأنه فهم بعمق أن خلاصه الشخصي لم يعد هو الحلّ ، فالبـلاد تغرق في البؤس وقـد رأى بعينه أثنـاء انتفاضـة الخبز الـطائرات تحصـد بقنابلهـا أجسـاد المتظاهرين .

خـرج من السجن إلى الطريق حيث كـانت سيارة «فـولكس فاجن» زرقاء بانتظاره . فقاده سائقها إلى بيت أحد رفاقـه في طرف العـاصمة ، وهناك اختبأ ليلتين ، لكن أيّ مخبأ لرجل صورته تملأ الشوارع مع أوامر

مشـدّدة بـالبحث عنـه ؟ . . . وهكـذا انتقـل من بيت إلى بيت . . إلى بيت . . . يسمع عبر أجهزة الراديو . . . ويقرأ في الصحف الأوامر التي صدرت بشأنه والجوائز التي وضعت ثمناً لرأسه .

وعندما استطاع رفاقه أن يصحبوه إلى خارج البلاد ، ويؤمنوا سفره ، أحسّ بالبؤس : ربما تكون هي المرة الأخيرة التي يرى فيها أرضه .

لاحظ البشير شرود رفيقه وأحس أنه يعاني في تلك اللحظة ألمـاً لا حدود له .

ـ هل تريد أن تستريح قليلاً ؟

هزّ محمد رأسه بالإيجاب ، وفهم البشير أن «محمد» يرفض في هذا الصباح أيّ شكل من أشكال الحوار . . . إنه بحاجة لكي يستردّ نفسه . . وترك له الغرفة وخرج يحضر فنجان قهوة في المطبخ فتحرك محمد باتجاه السرير الـوحيد ، واستلقى عليـه . . . عندمـا استراح جسـده أحسّ ألماً فظيعاً يهاجمه من جديد كلما تحرك . ويستذكر أنهم كسروا إحدى فقراته أثنـاء التعذيب . . يتـذكر في عتمـة الغرفـة الصباحيـة وجـوه رفـاق شلة المقهى . . . وجه ناديـة الذي بـدا بالأمس حـزيناً ، فـرحاً للحـظات . وعندما اختفت فرحة لقائها به ، علت وجهها من جديد كآبة وكأنها تعيش كارثة . . عيناها . . . عينان تبحران في البعيد دون هدف محدّد . . لقد تعوّد قبل رحيله إلى بلاده أن يراها أكثرهم حزناً ، ولكنها أكثرهـم تفـاؤلاً وشجاعة . . . شجاعة !؟ يلفظ كلمة شجاعة مرات ومـرات . . . يحس وقعها في قلبه كوقع أغنية سمعها في طفولته . . . إنها تعذّبـه . . . كلمة واحدة تدفع بقدره منذ كان صغيراً وحتى اليوم ، هي تلك الكلمة البائسة التي قتلت قبله رجالاً ونساء .

«هل أنت شجاع يا محمد» ؟ .

كان طفلاً في الثامنة عشرة من عمره عندما أجـاب على هذا السؤال بشكـل عملي يوم اضـطرّ إلى أن يذهب ليـلاً إلى أقرب مـركز لسلطات

الحماية وينتزع سلاح أحد الجنود ثم يعود إلى رفاقه الذين راهنوا على ذلك ، وتحوّل بعد هذه الحادثة إلى رجل كامل . . . إلى شجاع . ما زال يجرّ شجاعته خلفه وأمامه حتى هذا اليوم . لو قبل أن يتنازل عن بعض تلك المبادىء التي لقّنوه إياها صغيراً ! . . ربما كان قد استراح وأراح هذا العالم .

ربما . . هذا هو الشعور الذي يداهمه في تلك اللحظة . ولكن ماذا يدفع به إلى حافة المرارة هذه ؟ هل انتهى كل شيء ؟ هل أصبح الدكتاتور خالداً ؟ هل دخل هو في مرحلة الغياب كأصدقائه رفاق المقهى ؟

يقترب وجه نادية من عينيه . . . الوجه الذي كان له ضوء الصبح في سجنه . لقد أحبّها بصمت وهدوء ، وعندما قال لها ذلك قبل رحيله فضّلت أن يجرحا إصبعيهما كيف ما اتفق ويتآخيا . . . قالت له بين الجدّ والهزل : «دعك من الحب يا محمد . أنا لا أصلح لذلك» وكانت نادية قريبة منهم جميعاً . . . بعيدة عنهم جميعاً حميمية وصديقة . . . لكنها تبدو منذورة لعالم آخر . وربما لرجل آخر ، لا أحد يستطيع أن ينفي أو يؤكّد ذلك .

الأخضر يردّد أمامه باستمرار «إنها لا تختلف عن النساء جميعاً» لا بد وأنها عاشقة . . . عذّبته الفكرة : تقلّب في فراشه بألم . . . كان حريصاً بعد فراره من السجن أن يصل باريس بسرعة ، وكان تلهّفه لرؤياها يتحوّل إلى كارثة عندما طلب إلى رفاقه اصطحابه إلى الحدود قبل أن تهدأ زوبعة هربه من السجن ، ولولا فطنة الرفيق الذي كان يقود السيارة التي تقلّه لأعيد إلى السجن مرة أخرى . يتذكر ذلك الحاجز القريب من الحدود . . . كانوا قد كثّفوا الحراسة وعزّزوا الأفراد بمجموعة ضبّاط شرطة جدد . لم يكن هو أو رفاقه قد حسبوا حسابها . . . قال له رفيقه : «حافظ على هدوئك يا محمد وسوف

أتصرف» . وهكذا اقترب منهم الرفيق دون وجل ، وعندما وصل نقـطة التفتيش حيّاهم بطريقة توحي أنه أحد أفراد الجهاز السرّي «كيف أحوال الإخوة» ردّوا عليه التحيـة مفسحين الطريق لـه فمضى دون أن ينظر إلى الوراء . أدرك محمد أن العمل السري بين رفاقه تحوّل إلى «أيّ كلام» ، فالاعتماد على الذكاء المطلق والحيلة لا تكفيان لمحاربة الخصم ، لقد انتهى التخطيط والسرية في صفوفهم منذ زمن بعيد .

ثورة أيّ كلام ؟ نضال أيّ كلام ؟

قال لنفسه : «ألا يمكن أن تعـطى تلك المجتمعات المتخلّفـة شيئاً أفضل ؟ وتساءل بصوت مسموع ردّدته جدران الغرفة : «أهي صـدفة أن يكون الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه محكوماً بالبؤس» ؟

ويردّ تساؤله إلى الأعماق : ماذا فعلت أوروبا أفضل من ذلك ؟ ألم تشعل حربين عالميّتين ؟ ألم تدعم أكثر الدكتاتوريات بؤساً في تلك البلاد التي كرّست تخلّفها وبؤسها . . وتتعبه الأسئلة . . .

أحس التعب والنعاس يتسلّلان إلى جسده . . . وغفي بينما كان نور الصباح الرمادي يختلط بحبال المطر ، وأصوات المارّة .

* * *

ها هم في زاوية المقهى بـانتظار قـدومها . . . هـا هو الليـل فارس جامح بدأ سباقه قبل قليل مع أعمارهم . . . وتمرّ الساعة الأولى من الليل مغلفة بالصقيع والمطر . . . تتنفّس باريس رياح الغـرب ويبدأ الحـديث كالمعتاد . . . آخر أخبار المنـطقة . . . الـوضع في لبنـان . . . انقلاب عسكري في موريتانيا . . . تصريحات جديدة مسلّية لأحد الحكام العرب الذين لا يكفّون عن الكلام . . .

هذا المساء يبدو المقهى أكثر حيـاة . . عدد الـزبائن يبـدو أكثر من قبل . . . عيونهم الجامدة المشدودة إلى اللاشيء أكثر إنسانية . . . لقد عاد محمد من الموت . هل يعرف أولئك الغرباء معنى ذلك ؟

قال الأخضر كأنه يخبر محمد بما جرى خلال غيابه :

ـ لم نعد نلتقي إلا لنشتم أو نندب .

ردّ فاضل :

ـ وماذا تريدنا أن نفعل ؟ لقد استولوا على كل شيء .

كان عبد الرحمن كعادته غارقاً في الصمت ، يرفع عينيه ليتأمل المارّة عبر زجاج المقهى ، سأل موجّهاً كلامه إلى محمد :

ـ هل أعدم عبد الغني في وجودك ؟

نكس محمد رأسه وكأن السؤال تحوّل إلى حبل مشنقة . . . ظلّ صامتاً دقائق . . . تذكّر وجه عبد الغني ، أحد رفاقه الذين اعتقلوا معه . . . ملامح الرعب ، والخوف ، والرغبة بالحياة . . . ثم الخيبة والرحيل إلى الموت .

أجاب محمد : حدث ذلك قبل فراري من السجن بعشرة أيام .

قال عبد الرحمن : «قرأت تفاصيل الإعدام في إحدى الصحف الفرنسية ، ولم أصدق» .

أجاب الأخضر :

ـ غريب أن لا تصدق . . . العكس يكون استثناءً .

قال محمد :

ـ كنا نتوقع الإعدام لنا جميعاً منذ اليوم الأول الذي قبض فيه علينا .

صمت قليلاً وراح يروي تفاصيل الإعدام :

« حدث ذلك في الظهيرة . كانت الشمس تلهب رؤوس الحرّاس الذين اقتادوه من زنزانته . . . شمس حارة قاسية تعلن وقت الظهيرة . . . باحة السجن عارية وواسعة إلا من شجرتي صنوبر . كان عبد الغني عندما يلمحهما من كوّة الزنزانة يقول : «تخيّل كيف عاشت هاتان الشجرتان داخل الأسوار ! ولم يكن يدري أنه سيصلب إلى إحداهما قبل إعدامه . . . كان سجناً يطل على البحر ، قلعة قديمة بناها المرابطون في

تلك البقعة . ومن باحة السجن كنا نلمح أشرعة سفن تغادر الميناء الصغير في عتمة الليل . . . السجناء داخل السجن يروون قصصاً كثيرة عن ترحيل بعضهم إلى مكان مجهول . . . كانوا يردّدون : إن السفن تأتي فارغة وترحل محمّلة بالسجناء المقيّدين بسلاسل حديدية غليظة ، ونادراً ما يرجع سجين من رحلته . . . كانوا يؤكّدون بأن من تحمله السفن يتم اصطحابه إلى هناك ، إلى جزيرة السندس حيث يعدم قبل شروق الشمس وحيداً ، مصلوباً إلى جذع شجرة . بعضهم يتحدّث عن تبادل السجناء بين الدول القريبة المطلّة على المحيط . . . أحدهم قال لي : يا محمد ، إنهم يتبادلوننا كتبادل النساء في مرقص ، لأن السجون ضاقت بنا هنا . . .

رأيت عبد الغني يجرّ خطاه الثقيلة نحو المشنقة المنصوبة في باحة السجن ووراءه سار حراسه منكّسي الرؤوس ، بينما انطلقت أصوات السجناء خلف حديد زنزانتهم يردّدون : «يا ظلام السجن خيّم » .

قاطعه عبد الرحمن وهو يرشف كأسه بألم واضح :

ـ هذا نشيد جاءكم من الشرق حيث السجون واسعة كالقارات .

ضحك محمد بسخرية وتدخل الأخضر في الحديث :

ـ لقد رفعنا عرائض تطالب بإطلاق سراحه . جمعنا تواقيع الكثيرين هنا ، وعندما ذهبنا لمقابلة السفير رفض أن يفتح أبواب السفارة في وجهنا .

قال محمد :

ـ لم يعد هذا الشكل من الضغط يؤتي ثماره ، كان ذلك في الماضي .

قال فاضل :

ـ ألم يكن ممكناً إنقاذه ؟

هزّ محمد رأسه بالنفي واستمرّ في الحديث :

«لقد أسرع الدكتاتور بإعدامه قبل أن يلتقط رفاقنا أنفاسهم بينما كانت موجة من الرعب تجتاح البلاد بعد هدوء الانتفاضة . نحن داخل السجن لم نكن نملك له إلا أن نودّعه باستكانة ، بعد أن هلكت أجسادنا من التعذيب الذي مورس علينا هذه المرّة بوحشيّة . . . كان يسير مرفوع الرأس ، نعم كان يسير مرفوع الرأس نحو شجرتي الصنوبر . . . نحو إحداهما» .

واختنق محمد بكلماته عندما اقتربت نادية من المائدة التي جلسوا إليها . لقد وصلت متأخرة عن موعدهم المعتاد . . . لم تحدث ضجة كعادتها ، فقد كانت كلمات محمد تنساب بينهم كصلاة مطعون . . . وقفت بهدوء خلفه حتى أتمّ كلماته . . . سمعت الجمل الأخيرة قبل أن يلمحها . استغلّت لحظات الصمت الثقيل الذي نشره حديث محمد في الجوّ وجرّت مقعداً لتلقي بنفسها عليه . جمعت شعرها المبلّل بالمطر واعتصرته بيديها ثم أعادته إلى الخلف وهي تنفخ الهواء من فمها كما يفعل الفرنسيون عندما يكونون غير راضين عن الحديث .

ـ أيها السادة لقد مللت أحاديثكم عن السجون ، والغربة ! لماذا لا تفعلون شيئاً آخر ؟

كأنها أطلقت نكتة طريفة ضحكوا لها جميعاً وسمعت صوت الأخضر يردّد :

ـ نعم جاءت السيدة جاندارك ! ماذا تريدين أن نفعل ؟

قالت نادية :

ـ أي شيء غير الجلوس هنا في هذه الزاوية . . . لقد مضى على لقائنا الأول عام كامل ، وماذا كانت النتيجة ؟

تحدّث عبد الرحمن موجّهاً كلماته إليها :

ـ وهل لدى السيدة غيفارا خطّة جديدة ؟ ولماذا لم تطبقي خطّتك على لبنان يا ناديا ؟

أدركت نادية أن الجميع يسقطون هذه اللحظة في بؤرة اليأس . . . لا فائدة . . . لا فائدة من . . . إسداء النصائح . . . لا فائدة من الخطاب فهي مثلهم . . . إنها لا تعرف ماذا ستفعل غداً . . . لكنها صحوة مفاجئة تأتيها على غفلة .

قال محمد :

ـ كنا نتحدث قبل قليل عن إعدام عبد الغني .

ضربت بكفّها على الطاولة . . نفخت الهواء من فمها مرة أخرى دليل عدم الرضى :

ـ لا فائدة ، ماذا تريد أن تفعل ؟ لقدفجرّوا اليوم سيارة مفخّخة في بيروت الغربية .

رفعت يدها تومىء لنادل المقهى أن يأتي ، وحوّلت نظراتها لتتأمل الزبائن القلائل من حولها . كان صوت بيانو عتيق ينطلق من الزاوية بينما تتربّع السيدة مارلين وراء البار كعادتها .

قال محمد :

ـ إنني أفكر بالذهاب إلى بيروت .

أجابت نادية :

ـ أتساءل باستمرار لماذا تركتها ، أعتقد أن علينا جميعاً أن نعود إلى هناك .

تكلم عبد الرحمن :

ـ أصبحت بيروت حقيقة مخيفة .

أجابت نادية :

ـ إنها حقيقة كل المدن العربية ، وما يحدث في بيروت يحدث في مكان آخر تحت أسماء وشعارات مختلفة .

غـرقت في الصمت بينما كـان الأخضر يصبّ لنفسـه كأس ويسكي ويتلهى بوضع قطع الثلج فيه . . . خيّم الصمت عليهم جميعاً كالعادة كل مساء . . . إنهم يأتون إلى هنا محمّلين بتعب اليوم وأحداثه . . . ويبدأون مساءهم بالشتـائم والذكـريات . . . وبعـد أن ينفد الكـلام ، ويقولـوا ما يعجزون عن قوله طيلة يومهم ، يغـرقون في الصمت . وكـانت هي منذ الأمس تبـدو أكثـرهم صمتـاً . . . هـا هي تـدرك معنى هجـرتهـا عن بيروت . . . لقد هاجرت لأنها لم تكن قادرة على الخيـار . . . مطر في بيروت وقنابل وقتلى ، وشهداء ، ورجال خانوا . . . ورجال في طريقهم إلى الخيـانـة . . . حبيب سقط تـحت ضـربـات الـطائـفيـة . . . والشعارات . . . صديقـات تشرّدن في أركـان الأرض . . . أمّ دفنت في حقول الجنوب تحت ركـام قنابـل القصف الإسرائيلي . . . ورغم ذلـك فالبعد عن بيروت أكثر مرارة من العيش في جحيمها . . .

منـذ أن تركت بيـروت إلى بـاريس وهي تتحـرّق إلى العـودة . . . وبانتظار العودة تعيش نادية وقع مدينة مجنونة . . . أحلام أصدقاء عاجزين عن الفعل . . . وحده محمد من قرّر عدم الاستسلام للتّيار ، لكنه يبـدو بعد عودته خائر القوى ممزّق الإرادة ، تذكّر تلك الليلة التي جاءهـا فيها إلى غرفتها وحدّثها عن رحيله . . . حدّثها طويلاً طويلاً حتى أشرف الليل على نهايته . وقبل أن يمضي قال لها جملتين ثم غرق في الصمت . . . قال لها «إذا لم أعد فتذكّري أنني أحبّك» لم تكن بحاجة لمـا قالـه حتى تعرف معنى تلك النظرة الحزينة الآملة التي يلقاها بها منذ عرفته . لكنها لم تكن قادرة على حبّه . فمنـذ رحيلها عن بيـروت وهي تتساءل : هـل فقدت القدرة على الحب حقاً ؟! تسأل نفسها في صمت وتتأمل وجوههم حولها . . . الأخضـر . . . عبد الـرحمن . . . فاضـل . . . محمد . . . كيف تنسى وجوههم وقد تحـوّلت تلك الوجـوه إلى وطن لها . . . كيف تنسى أنها عندما تضطر بحكم عملها في أحد المحـلات المهاجـرة إلى السفـر خـارج بـاريس تعـرف وهي تـودّع المـدينـة أن هنـاك من يحسّ

غيابها . . . كانت بحاجة إلى من يحسّ هذا الغياب . . . كانت بحاجة إلى من يسأل عنها . . . كانت بحاجة إلى من يحبّها . ولكنها غير قادرة على الحب . . . قبل أيّام ودّعت عمر عائداً إلى الصحراء . . . ودعته وهي تردّد : «إذا كان عليَّ أن أحبَّ رجلاً فلتكنْ أنت» ولم تقنعه جملتها ، فهزّ رأسه وهو يغيب في زحمة المسافرين وردد : «إذا قرّرت أن تتركي باريس فسوف أنتظرك» . منذ يومين تحاول أن تنسى وجوده ، لكن وجهه يلاحقها في مكتبها . . . تجده بين السطور التي تكتبها . . . تسمع صوته من حولها . . . يبدو أنه أقوى منها . . . رجل ينتمي إلى أرض . . . تضحك في سرّها . . . تتساءل «وهل ينتمي عمر إلى أرض حقاً» ؟ هل الصحراء بكل ما يدور عليها من صراع تمثّل تلك الأرض الموعودة لعمر ؟.

آه ! أصبحت عاطلة عن الحب !؟

منذ التقتهم هنا في هذا المنفى تحوّلوا إلى أهل واخوة وأصدقاء ووطن ، «أنت بحاجة إلى وطن ، أيّتها المهاجرة من جحيم بيروت» . . . ترشف كأس الويسكي وتتأمّل وجوههم . . . لو استطاعت أن تحبّ «محمد» فتغسل عن جسده زمن التشرّد في المنافي والمخابىء السرّية . . . لو تستطيع أن تعشق الأخضر فتعيده إلى إنسانيته . . . لو تستطيع أن تتآخى مع عبد الرحمن وفاضل ، لو تتحوّل إلى فلسطين بالنسبة لفاضل . . . لو تستطيع أن تتحوّل إلى حلم ! لكنها لا تستطيع أن تكون إلا هي : نادية الجنوبية المهاجرة من جحيم الحرب الأهلية في لبنان . وضعت كأسها على المائدة واتّجهت بعينيها الواسعتين إلى الأخضر . . . تأملت شعره الوحشي وهيئته الرثّة التي تخفي وراءها كل نبل هذه الأرض . . . تأمّلت «محمد» الذي لا يتحدّث أكثر مما يجب . . . يزن حواره وزناً دقيقاً دون أن يقتصد في الكلمات . . . تأمّلت شروده . . . وارتدّت بعينيها إلى داخلها ، ثم سمعت صوتها يردّد في محاولة تكسر حدّة الصمت :

«يا سادة ، أُدعى نادية ، وأنا أيضاً لا يعجبني اسمي في القرية لأنه يرمز إلى ماض لم أستطع أن أتّحد به . . . ولـدت في جنوب لبنـان ولـم أندم على ولادتي» .

وقال الأخضر :

«أنا صحافيّ مهاجر أتهرّب وأتبرّأ من الواقع العربي» .

قطع عبد الرحمن ذلك الحوار العقيم الذي لم يبدأ وسأل نادية :

ـ هل من أخبار جديدة اليوم ؟

قبل أن ينهي جملته سمع صوت مارلين ينادي عليهم من خلف البار وقد التصق رأسها بجهاز ترانـزستور صغيـر بينما علت قسمـاتها إمـارات اهتمام بالغ .

«أيّها العرب ، أنت يا الأخضر ، يا ناديـة ، لقد قـامت الحرب في بلادكم !» .

انفضّوا جميعاً وهبّت نادية متّجهة إلى سيدة الحانة :

ـ «ماذا قلت . . . الحرب . . . أين ؟!» .

وقف الأخضر نصف ثمل يجرّ قدميه باتجاه البار حيث وقفت مارلين ونادية ، خـطف جهاز التـرانزستـور من أيديهمـا وأخذ يـدير الإبـرة على المحطات المختلفة . كانت الإذاعات كلّهـا تتحدّث عن انفجـار أحداث دامية في مدينة عابد . وطغت أخبار عابد على أخبار المؤتمر الـدولي . كان العالم كلّه مشدوداً إلى تلك البقعة من الأرض . فلطـالما ظنّ ذلك العالم الغبي أن عابد تستعصي على الثورات .

ـ أحداث في عابد يا عبد الرحمن !

ويقفز عبد الرحمن لدى سماعه الخبر . . . يردّد دون وعي والدموع

تقفز من عينيه : «نعم أحداث في عابد . . . ولكن لماذا الآن ؟ لماذا اليوم ؟ لماذا تأخروا ؟» .

يختلط صوت عبد الرحمن بصوت إذاعات بعيدة . . . يحاول الأخضر عبثاً التقاط صوت الراديو . . . ينتقل جهاز الترانزستور من يد إلى يد . . . تبدّل الموجات ، والمحطات بينما تظل الأخبار هي . . . هي . . .

حاول الأصدقاء بجهد التقاط إذاعة عربية يمكن أن تعطي أخباراً إضافية توضح ما يحدث هناك . كانت الإذاعات جميعها تعلن عن أهمية الأحداث ، فعابد لم تعد خلال السنوات الماضية مجرّد مدينة رملية تمتدّ على جبال من الحنين إلى الماضي . . . لقد أصبحت مركز الفعل المضادّ للحلم ، وأصبح أي قرار يسحق الحلم ويقتله يتخذ هناك في عابد . . . هناك في المدينة الرملية حيث في إحدى قلاع المدينة يعيش عشرة رجال لا أحد يعرف ملامحهم . عشرة رجال يملكون كل أموال الأرض ، تأتمر الجيوش بأمرهم ، وكذلك رجال لا حصر لهم على خارطة الوطن .

أحداث في عابد . . . القرار في عابد ، والفعل دائماً في مكان آخر . . . القرار في عابد حيث عشرة شيوخ يتنصّل كل منهم من نتائج فعله كتهمة عندما يتحول فعله إلى واقع في هذه المدينة العربية أو تلك . . . إن ماضي أولئك الخمسة التي جمعتهم الأيام في مقهى «كلوزري دوليلي» هو ماضي الضحايا للشيوخ العشرة . . . تماماً كما هو حاضر جيل يعيش تفاصيل الحرب الأهلية في كل بقعة من الوطن .

أحداث في عابد .

ويكبر السؤال ليطغى على المقهى ، وباريس ، والبحر ، والجسر الملكي وقطارات آخر الليل المهاجرة إلى المجهول .

من تجرّأ على القيام بفعل مضاد للشيوخ العشرة ؟ . . . من فكر أن

يقلق راحتهم في عجزهم . . . في شيخوختهم الروحية والإنسانية ؟ من فعل ذلك ؟

لقد كانوا قادرين على اضطهاد الأطياف ، وبطون المحيطات ، والأشجار البعيدة ، بينما هم لاهون عن العالم القادم إلينا بتذكّر الماضي .

أحداث في عابد ؟!

ليس هناك من فعل أخطر من ذلك الفعل . . . وعلى الأصدقاء الخمسة أن لا يملّوا الحنين إلى زمن مضى . . . إلى حلم بالمستقبل . . . فالحنين والحلم ليسا مجرد مصطلح يغرق في كؤوس الويسكي ، أو التشرّد على الأرصفة .

إنها عابد مَنْ نهضت هذه المرة . . . عابد مقرّ الشيوخ العشرة ، موطن الذهب والثروة التي أشاعت البؤس في كل روح قادرة على الحلم .

وضع الأخضر جهاز الترانزستور على الطاولة بعد أن انتهت نشرة أخبار إذاعة «B.B.C» باللغة العربية ، كانت الإذاعة تتحدث عن خمسة عشر شاباً اقتحموا السجن الكبير في مدينة عابد وأخذوا بعض الرهائن من السجناء ثم أطلقوا صيحة دوّت لها أرجاء المدينة ««الله أكبر والنصر للمسلمين» وتقول الإذاعة : «إن من الصعب معرفة أبعاد هذه الانتفاضة أو هذا التمرّد . فمدينة عابد مدينة محرّمة على الصحافيين والمراسلين ، وهذا ما يجعل الحكم على ما يحصل هناك قضية صعبة ، إذا لم تكن مستحيلة» .

قال الأخضر :

ـ أعتقد أن الانتفاضة لا ترقى إلى مستوى التغيير ، وسيظل الشيوخ العشرة قادرين على مبادلة الدولارات بالصواريخ المستهلكة .

علقت نادية :

ـ أين من ينادي على أولئك الشباب المحاصرين بأسمائهم ، ويقول لهم : إننا معكم ؟

أجاب فاضل :
ـ إننا نجهل أيّ شيء عن هويّة القائمين بها ، كما نجهل أهدافهم .

قال محمد : ماذا نفعل هل نقف ونسمع ونتفرج ؟

قال عبد الرحمن : مهما تكن أهـدافهم ، فسيكون نـاقوس الخـطر الذي ينذر بالنهاية .

كان عبد الرحمن قلقاً ، ينقل عينيه في وجوه رفاقه . . . وغصة قاتلة في أعماقه . . . وقد حاول أن يتكلم فلم يجـد الكلمات التي تعبـر عن مشاعره . . . كان في تلك اللحظة فرحاً ، وحزيناً ، وخائفاً . . . فهو دون سواه ينتمي إلى تلك البلاد التي تتحرك رمالها اليوم وهو وحده دون سواه يـدرك يأس هؤلاء الشبـاب الذين ذهبـوا وعائـلاتهم إلى السجن ليقولـوا لا . . . ما زالت البـلاد تنبض إذن ، وما زال هنـاك كثيرون لم تجـر في دمائهم سموم النفط ، وبالتالي فهم قادرون على الغضب والفعل .

ولكن ماذا لو فشلت الانتفاضة ؟!

إنهـا ستفشل ، فمن المؤكـد أن ليس هنـاك من يقف خلفهـا . . . وأحسّ عبد الرحمن بـألم بالـغ في الصدر لأنـه أدرك معنى الفشل . . . الفشل يعني ضحايا آخرين . . . سجناء آخرين . . . ومنافي جديدة . . . وأشخـاصاً جـدداً مثله إن كتبت لهم الحياة . . . أشخـاص قلقون . . . حائرون . . . يغيبون . . . يحضرون . . . ييأسون .

سمع فاضـل يعلق على نبأ أذاعتـه لندن يقـول : «إن سيد الشيـوخ العشرة ترك مؤتمراً دولياً ليعود إلى عابد لمتابعة الموقف» .

قال الأخضر :
ـ إن خير حلّ لعصابة الحكام هو أن يشتـروا جزيـرة لهم في عرض المحيط وكلما سقط أحدهم يذهب للالتحاق برفاقه .

وساد الصمت من جديد . . . صمت الأصدقاء الخمسة ليغرقوا في الغياب .

هدأت حدة المفاجأة ، وطرحت أحداث عابد عليهم تساؤلات كانوا قد نسوها أخرجتهم من قلق الاستسلام إلى قلق الأمل . . .

قلق الأمل في أن يبدأ التغيير من مدينة الرمال . . . من وكر الشيوخ العشرة القابعين هناك في إحدى القلاع التركية .

عشرة شيوخ يبلغ سن أكثرهم شباباً التسعين عاماً ورغم ذلك فما زال القرار لهم ، وما زال الأمر في أيديهم لأنهم يملكون الثروة . وتذكرت نادية بسرعة وجه أحدهم يوم التقت به في أحد المؤتمرات يسير ببطء متكئاً إلى ذراع أحد مرافقيه ، كان يبدو عن بعد ميتاً أو على وشك الموت ، وعندما دخل قاعة المؤتمر وقف الجميع له ودوى تصفيق في القاعة لم يتوقف إلا بعد ساعة . . لمَ يتوقف إلا بعد أن تعبت الأيدي وأقبل الليل . في اليوم الثاني شدها فضولها القاتل أن تذهب إليه لتسأله : كيف يستطيع أن يقرر في حق وطن وهو على أبواب الموت ؟ . . ولا تزال تذكر بذهول إجابته (لقد عاش والدي ثلاثمائة عام ، أما جدي فقد طار إلى السماء وهو على أبواب خمسمائة عام .

هكذا حكم أجدادي وأبي وسأحكم مثلهم .

منذ ذلك اليوم قررت نادية ألّا تذهب إلى عابد . . ألّا تركب طائرة تمرّ في سمائها . . . ألّا تحب رائحة الرمل والأعشاب البرية التي تزنر المدينة . . وأصبحت عابد بعيدة عن عيني نادية ، قريبة من عيون حكام وطنها جميعاً . . .

منذ ذلك اليوم وهي تفتح الراديو صباحاً لتسمع نشرة الأخبار حتى النهاية علها تعرف أن زلزالاً نسف تلك المدينة ونسف وكر الشيوخ العشرة ، علها تعرف أن سكتة قلبية فاجأت الجميع على حين غرة . . . علها تسمع عن نار اشتعلت في غابات النخيل التي تزنر المدينة ووصلت

إلى القلعة التركية . وكما يئست من أخبار الحرب في بيروت ، يئست من انتظار المعجزة . . من انتظار العاصفة ، أو الزلزال ، أو السكتة القلبية .

أخبار الأحداث في عابد كسرت حدّة النسيان الداعي لوجود أولئك الشيوخ في حياة هؤلاء الأصدقاء الذين يضمهم (كلوزري دوليلي) كل مساء . وفجأة ابتدأت الذاكرة الرحيل إلى ما وراء البحر . . الرحيل إلى الطرف الآخر من المتوسّط . . ساعة رحيل الذاكرة إلى الجنوب قالت نادية بشيء من المرارة :

ـ حسناً ! ربما تكون نهاية الشيوخ . . .

وصمتت لأنها عجزت عن إيجاد الكلمات . . .

قال محمد :

ـ غريب أمر أولئك الحكام ، إنهم يعيشون بلا عيون . . . بلا نظر . . بلا أسماء. لا يترك أحدُ منهم كرسي حكمه إلا إلى القبر أو السجن.

ابتسمت نادية بمرارة وردّدت :

ـ حتى ما تقوله لم يعد صحيحاً ، إنهم لا يمرضون ، ولا يموتون ، ولا يرحلون نحن الذين نرحل تاركين الأرض لهم . . . لقد تركت بيروت لهم ومضيت تماماً كما تركت أنت، وهو، وهو، وهو مدنهم وجاءوا هنا.

أجاب محمد :

ـ ولكن اسمعي جيداً يا نادية ، ما يحدث في عابد اليوم سيحول كل مدينة عربية إلى بيروت جديدة . . . إنني أسمع صهيل الخيول . . نعيق الطيور الجارحة قادمة من الشرق . . . وعندما يصل هؤلاء ستكون الكارثة عليهم وعلينا .

أجابت نادية :

ـ ربما كان ذلك صحيحاً ، ولكن علينا من اليوم أن نلحق بالعرب في كل مكان ونخز عيونهم كي يفتحوها جيداً على هذا العالم .

* * *

كان عبد الرحمن يتابع حوارهم بقلق ، بينما ظلّت أصابعه تدير إبرة جهاز الراديو علّه يلتقط نبأ جديداً . لقد فجرت أخبار انتفاضة «عابد» في أعماقه ذلك الحنين الذي خنقه في الغربة ، الحنين إلى العيش فوق أرض حرّة ، يقول فيها ما يشاء ، ويكتب ما يريد ، ويحب كباقي البشر دون الإحساس بالذنب .

فجّرت «عابد» الآلام ، ونكأت الجراح .

فجّرت ذكريات السجن المرّة ، والتنظيم السّري الذي خانه أحدهم . . . والتعذيب داخل الزنزانات في تلك الجزيرة البعيدة . . . ثم الهرب والحنين ، والضياع ، في أرض الله الواسعة .

انتفاضة في «عابد» . . . انتفاضة في وكر الشيوخ العشرة .

إنها تعني لعبد الرحمن الكثير . . . إذاً لم يتحوّل دم مواطنيه إلى نفط ؟ وما زال هناك من هو قادر على المقاومة والرفض ؟ هناك من يقاوم . . . فهل تتحول المقاومة إلى ثورة ؟ . . . هل تبدأ الثورة من تلك المدينة الغائبة الحاضرة ضد الحلم ؟

منذ زمن وهو يحلم بالثورة . . . يحلم بثورة كان يظن أنها مستحيلة . . . لكن أحداث «عابد» اليوم تعيد إليه شيئاً من أمل ، وتحيي في داخله حلماً كان قد مات منذ زمن بعيد .

تقول نادية :

ـ إن النفط تحوّل إلى كارثة .

يجيبها محمد بثقة :

ـ المشكلة ليست في النفط يا نادية ـ لماذا لم يتحوّل إلى كارثة في انكلترا أو أميركا ؟

أدّت كلمات محمد إلى لحظات من الصمت طغت على الحاضرين ، وحاول الأخضر أن يقول شيئاً لكن الكلمات خانته فأجهش

في البكاء . . . إن حياته في باريس أصبحت لا معنى لها ، ومع ذلك فهو يستمرّ فيها حياً ميتاً . . . ويلعن في سرّه ذلك اليوم الذي قرّر فيه أن يهجر الصحراء . . . لم يكن يعرف أن مصيره ومصير أطفاله سوف يقرّر بالصدفة . . . وسوف ترتبط حياته بفضلات النفط . . . فلولا عمله في إحدى وكالات الأنباء العربية لمات جوعاً ، ولتشرد أطفاله في الطرقات . . . ولولا النفط فلن تستطيع نادية أن تدبّر شؤونها في باريس بعيدة عن الحرب الأهلية . . . ولولا فضلات النفط لما استطاع محمد أن يموّل ذلك التنظيم السري الذي يقاوم به الدكتاتور . . . ولولا النفط أو فضلات النفط لما استطاع عبد الرحمن أن يرحل إلى باريس .

أحس هدير النفط في دمه . . . وعندما اكتشف بؤس الحقيقة ضحك بهستيريا . . . ثم ردّد كأنه ينبه أصدقاءه لاكتشافه :

«لا إله إلا الله . . . استغفروا الله أيها الأغبياء» . . .

وانفجر الجميع ضاحكين وسأل محمد :

ـ ما علاقة التوحيد بما نقول ؟

ألقى الأخضر رأسه إلى الوراء ، فانعكست أشعة المصباح على وجهه ، وبدأ أمام أصدقائه كحيوان غريب . . . تائه في عالم لا يعرفون أسراره ثم هتف بصوت مرتفع .

ـ إنني أحلم بغاندي . . . إنني أحلم وأردّد : أنا باحث عن الحقيقة .

فسألت نادية بسخرية :

ـ عن أي حقيقة تبحث يا الأخضر ؟

قال :

ـ عليكم أن تعودوا إلى الأوليات أيها الأصدقاء . علينا أن نسمي الأشياء بأسمائها ، علينا أن نقول الأبيض أبيض ، والأسود أسود وإسرائيل إسرائيل ، والملك ملكاً ، والرئيس رئيساً إلى آخر هذه البديهيات .

ضرب الأخضر بكفه على المائدة فتناثرت الكؤوس وعلا صوت مارلين وراء البار :

ـ أنت يا الأخضر إذا كسرت كأساً واحدة فستدفع ثمنها ثلاثة أضعاف .

وانفجر الزبائن القلائل الذين بقوا في المقهى ضاحكين . . . كان الأخضر يشتم باللغة العربية . . . كلمات لم تفهمها مارلين ، لكن أصدقاءه الأربعة أدركوا أن نوبة من الجنون اجتاحت الأخضر ، وخافوا أن تتطور أكثر وأكثر ، فقال محمد :

ـ لننصرف ! الوقت متأخر ، وهذه الليلة لن تمرّ بخير .

ردّد الأخضر من جديد :

ـ علينا أن نسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية ، لقد اختلطت الأمور والقيم ، منذ أصبحت الخيانة وجهة نظر ، والانتماء رغبة :

كان عبد الرحمن صامتاً . . . أحسّ في تلك اللحظة أنه بحاجة بالغة للإيمان . بحاجة إلى أن يقول شيئاً . . . أي شيء . . . وضع يده على كتف نادية يهزّها برفق :

«نادية ! ألا تشعرين أن الله قادر على الانتقام ؟ . . . نادية ! إن الله هو الناموس الذي لا يتغيّر ، وإلّا كيف تفسرين انفجار عابد ؟» .

أحسّت نادية بالرثاء والحزن ، وأدركت أن لا شيء يجمع هؤلاء سوى الرغبة بالهرب والنسيان ، ربما كان محمد الوحيد بينهم من حول النسيان إلى فعل ، لكنه فعل أجهض في بدايته .

نهضت تريد الانصراف ، أمسكت يد عبد الرحمن بها بشدة وأجلسها إلى كرسيها من جديد ليجبرها على مشاركتهم النقاش :

ـ اسمعي يا نادية ! أنا لا يهمني الدين بشكل جوهريّ ، ما يهمني هو علاقته بالمفاهيم الثورية .

تطوّع الأخضر في الردّ على عبد الرحمن :

- ما علاقة الدين فيما يحدث الآن يا عبد الرحمن ، لو كان ذلك صحيحاً لأصبح الموت عادة محببة .

قال عبد الرحمن :

- «هذا صحيح ، فالمسلم يغامر بحياته مرة واحدة ، والحقيقة عنده هي الموت ، في حين أنها تمثل لدى الغربي لانهائية الحياة ، ولانهائية الزمن» .

أجابت نادية :

- في كلا الحالتين يبدو الموت عظيماً . . .

وخيم الصمت عليهم من جديد ، واتجهت عيونهم إلى فضاء الشارع خارج المقهى . كانت الحياة في تلك الساعة هادئة ذات وقع رهيب . . .

عندما انبعث صوت بيانو عتيق من زاوية المقهى . . . بدأ «الفرد» عازف الكلوزري مقطوعة « الرحيل » . . . صمت الجميع . . . غرقوا في الصمت كعادتهم بعد أن يأخذ التعب واليأس منهم كل حماس . . . أصبحت اللغة عبثاً على الأصدقاء الخمسة . . . في تلك اللحظة كانوا موزّعين ما بين عالمين : عالم وراء جهاز الترانزستور حيث مدنهم ، وأهلهم ومصير شعوبهم ، وذلك العالم الحاضر الذي يعيشونه . عالم خليط من التشرد ، والبؤس والبحث الدائم عن سبب البقاء .

وتختلط موسيقى شوبان هذه المرة بأصوات زبائن آخر الليل . . . بأصوات الليل . . . خارج المقهى . . . بوقع حبات المطر على الأرصفة الحجرية . . . بصوت مارلين خلف البار ووراءها صورة «الان دو كاستيلنو» الذي أوجد لحياتها سبباً بعد صمت مدافع الحرب العالمية . . .

تختلط الموسيقى بضجيج شوارع الموت ، هناك في المدن البعيدة .

ونـهضوا جميعاً . حان وقت الانصراف .

كانت نادية تتأمل وجه عبـد الرحمن وتدرك ماذا يعني بالنسبة له خبر الانتفاضة في «عابد» إنها مدينته التي يعشق ، مدينته التي بعد عنها حتى كاد البعد ينسيه تفاصيل حياتها ودروبها . . . عبد الرحمن وحده سيمضي ليلته وربما ما تبقّى من حياته ـ إن عاش ـ باحثاً عن أسباب ذلك التمرد ، والقـائمين به ، وأسمـاء من سيعدم منهم ، وأسمـاء من سيبقى على قيد الحياة .

نهضوا جميعاً متجهين إلى خارج المقهى ، كان الليل ينشر ظلمته على بـاريس ويوزع بؤسـه على القلعة في العـابرين في تلك السـاعات الماطرة ، وكانت نادية تتقدم الجميـع وكأنهـا هاربـة من مجهول بـاتجاه مجهول آخر ، ويسرع عبد الرحمن للحاق بها ويمسك بذراعها متسـائلاً كأنه يسأل نفسه :

ـ وأنت ما هو تقديرك لحجم ما حصل يا نادية .

ضحكت نادية ضحكة مأساوية وتطلعت إلى السماء الماطرة قبل أن تقول له :

«لنكن عاقلين يا عبد الرحمن ، لم نعد أطفالاً ، هل تظن أن تمـرد عشرة شباب أو خمسة عشر في «عابد» سيغيـر مصير العـالم . . . سوف يصطادونهم يا عبد الرحمن واحداً واحداً ، وسـوف نخرج في تـظاهرات لتأييدهم ، لكن لا شيء يتغير وستعود الأمور إلى مجاريها » .

كان محمد قد اقترب منهما بينما شغل فاضل والأخضر في حـديث آخر ، سمع محمد ما قالته نادية فهز رأسه مؤيداً ، في تلك اللحظة عبر تحت الجسر الملكي قطار آخر الليل متجهـاً إلى الجنوب . . . ضـاعت الأصوات . . . والتساؤلات والتمنيات ، وافترقوا .

* * *

بلغ عبد الرحمن بيته . . . فتح الباب وأشعل النور فألقى الضوء الظل على حاجياته القليلة المتناثرة في تلك الغرفة الرطبة التي أعارته إياها محامية فرنسية صديقة تدافع عن قضايا العرب في فرنسا . كانت أنباء التمرّد في «عابد» تلاحقه كسوط موجع وتعيد عليه ما رغب في نسيانه . بدت له البلاد في تلك اللحظة بعيدة أكثر مما تستطيع ذاكرة مناضل منفيّ متعب استحضارها . ماذا يريد المتمردون ؟

من هم ؟ ما هي انتماءاتهم ؟

رفاق المقهى لم يعيروا ما حصل الاهتمام الكافي . كانوا قد يئسوا قبل زمن من هذا العالم العربي . يئسوا وكان هو أكثرهم يأساً لأنه يعرف أسرار تلك البلاد الوهميّة بلاد (عاد وثمود) ، يعرف بؤس ما يعانون فهو ابن المنطقة . ولد هناك بين جدائل النخيل على حافة الصحراء ، كبر هناك بين جدائل النخيل على حافة الصحراء ، وعى هناك بين جدائل النخيل مبرّر وجوده ، وتعلّم الشيء الذي لن ينساه أبداً ، بل سيظلّ يعذّبه حتى نهاية عمره ، تعلم عبد الرحمن أنه عربي أو ولد عربياً كما يقول ، وبعد ذلك ؟ بعد ذلك ماذا يا عبد الرحمن ؟

هكذا يسأل نفسه . . وهكذا يجيب :

«بعد ذلك» : كانت شاقّة ومضيئة . . نظر حوله يتأمّل جدران الغرفة الرطبة الموحشة . أين هو اليوم من عبد الرحمن الذي اكتشف وهو لا يزال صغيراً معنى أن يكون عربياً ؟ لقد بدأت الذكريات تهاجمه بعنف ، وهجره النوم كما تهجر غانية مجنونة صدر رجل . . . هاجمته الذكريات وسط هذا الصقيع الغربي . . . وسط أمواج المنفى والتشرد . . . وسمع صوت رجل آخر يروي ذكرياته . . . ربما كان صوته هو . . وربما كان صوت عبد الرحمن الآخر الذي رفض أن يهاجر .

«كانت الصحراء تلقي بنارها على رأسك يا عبد الرحمن ، الشمس حارقة ولا ملاذ إلا تلك القمم الرملية . . . تذكر أن الرمال كانت تقذف

بك إلى الرمال ، وعطش جارح يجتاح جسدك . . . كثبان بعيدة تبدو وكأنها نهاية العالم . وحدك كنت تقطع الصحراء الفاصلة ما بين «أرم» «والبتراء» كانت الصحراء شاسعة والملاذ الأخير بالنسبة إليك مدينة «إرم» على الطرف الآخر منها . . . تضرب الرمل بقدميك لتتأكد أنك تسير على أرض صلبة . . . كنت تردّد يا عبد الرحمن : لقد اغتصبوا كلّ شيء ولم يتركوا لي حفنة رمل واحدة . . . عندما كنت تتعب ويهدّك الرحيل . . . تضع خدك على الأرض وتتحسّس القدرة الكلّية على الصبر . . . الصحراء واسعة وخالية من الأشجار ، لقد اغتصبوا كل شيء وحتى الأشجار رحلت إلى أرض أخرى . . . » .

يومها وأنت تسير وحيداً في تلك الأرض . . . تذكرت قدميك المتورّمتين من جَلْد حراس السجن وهي تغوص في الرمل فتعجز عن السير ، ويبدو لك الموت قريباً . . . تذكرت تكسر أغصان الشوك الجافة تحت وطأة قدميك وهي تزيد ألمك ألماً .

تلوح لك من بعيد بضع نخلات متوحّدة في تلك الصحراء ، ويلوح لك أمل الوصول إلى حدود «إرم» المدينة ـ الحلم التي كنت تطوف شوارعها في عتمة زنزانتك المنفردة . .

تتوحد والنخيل في الطريق من السجن إلى المدينة ـ الحلم بينما تطاردك اليوم ذكريات الرحيل .

هذه ذكرياتك عن ذلك الرحيل من السجن إلى الحرية . . لا بل هناك الكثير من الذكريات . . . ذكريات تلاحقك كيفما اتجهت ، وأين تعيش ، وأين تنام . . . كنت جائعاً وبحاجة إلى كأس ماء . . . تمنّي نفسك بالوصول قريباً إلى مدينة «إرم» . . . تمنّي نفسك بأن تجد صدفة من يطعمك في هذه الصحراء أو يؤويك . . . لكن أمنياتك لم تتحقق وكان عليك أن تسير ثلاث ليالٍ وثلاثة أيام . . . ترتعد خوفاً وأنت تنظر وراءك علّهم لحقوا بك أو اقتفوا أثرك . . . لكن عينيك لم تقعا إلا

على أسراب حمام مهاجرة . . . لم تكن حقاً أسراب حمام بل كانت طيور الصحراء التي تعوّدت سكنى الرمال وأكمات الهضاب . . .

أنت تحلم يا عبد الرحمن !

كنت تحلم وأنت تسمع همهمة الطير من حولك كأنه ينشد نشيد حريتك . . . نشيد هربك من السجن . . . هربك من سياط الجلادين . . . من صرخات التعذيب التي مزّقت سكينة الصمت القاتل من حولك . . . كدت تصرخ في صمت الصحراء : ما أقسى أن يرحل الرجل وحيداً إلى حريته ، حتى وإن كان الرحيل نحو «إرم» . لكنك لم تجرؤ على الصراخ . بل تستمر في رحلتك بينما تردّد في داخلك تلك العبارة التي سمعها أصدقاؤك كثيراً فيما بعد : عجيب هذا الوطن العربي ! يسجنونك في بقعة منه ، ويمنحونك حريتك في بقعة أخرى ، لا حباً بالحرية ولكن حرصاً على الخلاف ! ليختلفوا إذن إذا كانت حرية إنسان واحد ثمناً لذلك . . . ليختلفوا ويملأوا هذا العالم خلافاً .

واليوم ! هل أنت حرّ يا عبد الرحمن ؟!

سرت طويلاً . . . تعبت . . . افترشت الرمال الحارقة قبل أن يقذفك الرحيل المضني إلى ظلّ نخلة من ثلاث نخلات متوحّدة في تلك الصحراء التي تفصل حدود بلادك عن حدود الملجأ . . . تصل إلى هناك . . . تصل إلى المدينة ـ الحلم . . . تصل إلى «إرم» .

ولكن قبل أن تصل حلمت كثيراً بالثلج ، والمياه تجري من وراء الأكمات الرملية . . حلمك كان يتبدّد فجأة إذا طار أمامك طير أو داهمك وعيك بحقيقة الأشياء . . . كنت تتأمل النهار والليل ، وأشجار الشوك ، والحيوانات البرية كأنك تكتشف الحياة للمرة الأولى .

كأنك تكتشف وجودك نفسه للمرة الأولى . . كأنك تكتشف رمال الصحراء للمرة الأولى . . . كل شيء يبدو أمامك غريباً . . . غريباً . . . غريباً . .

للمـــرة الأولى . . . أدهشتـك تلك الــزهـور الصفــراء الشـوكيّــة وتساءلت : كيف تعيش الزهور في الصحراء ؟ أنسيت أن ثمة زهوراً تنبت دون اعتبار للأرض القاحلة ؟ أزهار بلون البنفسج . . أشجار بلون دمك وقد تخثّر تحت المياه الباردة التي كانوا من حين لآخر يغرقون بها زنزانتك في أحد سجون بلادك . . أشجار بلون البنفسـج تكتشف وجودهـا للمرة الأولى بين الرمال رغم أنك ابن الصحراء . . ينشقّ السكون أمـامك عن غزال برّي واسع العينين يجري بخفة دون أن يعيرك انتباهه . . تتمنّى في وحـدتك تلك أن تقـرّب وجهك من عيني الحيـوان الذي يقفـز أمـامـك بخفّـة ، وتردّد : «من لا يعـرف الصحراء لم يخلق بعـد» . . . تطاردك طفـولتـك بـإصـرار مـدهش . لقـد ولـدت في قلب السكـون الشـامـل للصحراء . . . فوق بقعة تمتدّ ما بين الخليج والنخيل . . وانطلقت بعد ذلك بحماس في هذا العالم . لكن الرحلة ما بين الطفولة والكهولة أدمتها السجون والمطاردة . . . كنت منبوذاً في العشيرة ، فعزيت نفسك بأناشيد عروة بن الورد . . . وأشعار امرىء القيس . . . كنت تحفظ أشعار عروة وتردّدها في ظلام وحدتك داخل جدران السجن .

في فضاء تلك الصحراء وأنت هارب نحو حدود «ارم» استطعت أن تروي لنفسك قصـة طفولتـك ، وشبابـك ، وكهولتـك . . . كنت سعيداً وأنت تسمع صوتك في غير وجل من حراس السجن أو قضاة التحقيق ، أو أجهزة الاستماع التي غرسوها في دارك قبل أن يلقى القبض عليك .

طفـولتـك . . . أصلك ؟! ذكـريـات بعيــدة لا يحضـرك منهــا إلا الشمس . . . لكنك تعرف على الأقل أن والدك ووالدتك هاجرا بك طفلاً من تلك البقعة بين النخيل والخليج إلى الأردن ، فوالـدك كان من القلة الذين تحمّسوا لمرافقة ثورة ١٩١٤ معتبراً أن كل الأرض العربية أرضه . التاريخ يبدو اليوم لك كالحلم . . . كانت مدينة «البتراء» هي أولى المدن التي عرفت . . . وفي «البتراء» شهدت أولى قطرات المطر تغسل الأعمدة الرومانية . . . وظلّت تلك الذكرى تلاحقـك . . . انطبعت في ذاكـرتك

كوشم رغم رحيلك فيما بعد إلى مـدن كثيرة . . . وتعوّدت أثناء الرحيـل أن تمارس موهبتك البدوية في التشرّد على الأرصفة .

كانت رغبة القراءة متسلّطة عليك بشكل إرهابي لـم تستطع أن تفلت منهـا . . . لم تستطع أن تفلت منهـا أبداً حتى هجـرت النـوم من أجـل ذلك . . . وها أنت منذ سنين لم تنم خوفـاً من أن تهرب منـك الحروف والكلمـات التي كتبها متشـرّدون مثلك ، كبـرت يـا عبـد الـرحمن . . . وساعد الحظ أباك على إلحاقك بالمدارس فأصبحت تقرأ وتعي . . . ثم ذهبت إلى أوروبا لتدرس علوم الكيميـاء بعد أن اكتشفـوا لديـك موهبـة التحليل . . . ذهبت إلى أوروبا وأنت صغير . . . ثمانيـة عشر عـاماً من عمرك مضت قبل أن تركب أول طائرة .

أوروبا ، والصقيع ، . . ستة أعوام في مدينة صوفيا تـدرس خلالهـا طبقات الأرض ، وتعانقـك صديقتـك البلغاريـة . كانت المسـافات بين صوفيا والصحراء الأولى التي ولدت فيها تماماً كالمسـافات التي تفصلك اليوم عن مسقط رأسك . . . فهل ستعيش ما تبقّى لك من العمر في الحلم بسباق المسافات الطويلة ؟

كـانت صوفيـا مـدينـة غـريبـة عنـك ، لكنهـا تـذكّـرك بـالصحـراء البعيدَة . . . فتروي لـ «إيـرما» ذكـرياتـك دون خوف . . . وهي تستمـع إليـك بشيء من الـدهشـة وتسـألـك بين الحين والحين : « إذا لـم تكن قـد ورثت عن أجـدادك بئـر نفط بـالصـدفـة ؟ » . . . كنت تهـزأ من أسئلتهـا وتحـاول أن تشـرح لهـا : « إيـرمـا ! لم أرث عن أبي إلا الهجـرة والحديث عن المـاضي . . . لم أرث إلا الذكـريات والنصـائح وهـذا الوجـه المتعب الـذي تـرين أمـامـك » . كـانت إيـرمـا تغـريـك بضحكة صافية جميلة ثم تنظران معـاً إلى تلك السماء الـرماديـة وكأنهـا سرقت لون عينيك . . . لحظات فرح قليلة تعيشها في أوروبا وأنت تدرس الكيمياء ، تلك اللحظات التي جمعتك بمواطنيـك العابـرين حيث كنتم تجتمعون في مقهى البلقان ، وتشربون القهوة التركيـة ، وتتحدثـون عن

عبد الناصر ، وحزب البعث ، وثورة السودان والأحزاب الشيوعية العربية . مرة سألتك إيرما ذات الدم السلافي عن ماضيك . . . كنت في العشرين من عمرك وتملك أعواماً من الماضي . . . وأعواماً من الحلم . . . ربما حدثتها آنذاك عن طفولتك في مدينة «البتراء» ، عن المدرسة الإنكليزية والشتاء القارس . كنت تقطع المسافة بين داركم والمدرسة سيراً على الأقدام بينما تطاردك الريح الباردة . . . وصقيع الأرض الذي تطأه أقدامك الحافية .

وتسألك إيراما ذات الدم السلافي عن المساء في «البتراء» . . . تسألك عن الليل . . . كنت تحدّثها عن المصباح الغازي الوحيد الذي كان يضيء داركم الملقية بإهمال على كتف الصحراء . . . دار بعيدة بعيدة بعيدة اليوم . . . دار هناك على الطرف الآخر من الأرض . . . هل لا تزال الدار في مكانها ؟ وهل لا تزال «البتراء» مدينتك في مكانها ؟ وهل ما زال البشر هناك يذكرون وجهك . . . وأسئلة كثيرة . . . أسئلة لا تملك لها إجابات لكنك تتذكر جيداً ذلك المصباح الذي كانت تجتمع حوله القبيلة لتسمع قارىء سيرة عنترة ، والهلالي ، ومن نافذة تلك الغرفة كنت تلمح من بعيد أضواء معسكرات الإنكليز ، وكنت تعرف جيداً أن بلادك مستعمرة . . . عندما كبرت أصبحت تعي جيداً ماذا تعني هذه الكلمة .

يوم سألتك . . . إيرما ذات الدم السلافي إذا كان ماضي وطنك يشكل لك قلقاً ؟! حاولت أن تشرح لها أن الماضي يعيش في الحاضر ، ولم تفهمك رغم أنك بذلت جهداً خارقاً لتوضيح ما تريد قوله ، مستعيناً بالقواميس والإشارات والخرائط . . . لم تكن تدرك بعد أن القضية ليست قضية كلمات في لغة لا تتقن الحديث بها . . . بل هي أكثر تعقيداً من ذلك .

وصل عبد الرحمن إلى صوفيا لدراسة هندسة النفط بعد أن نجح الحزب الذي انتمى إليه سراً وهو لا يزال تلميذاً في المرحلة الثانوية أن يحصل له من «الرفاق البلغار» على منحة دراسة تساعده فيما بعد على بدء

حياته قوياً . . . ليس هذا ما أراده الحزب فقط ، لقد أراد لعبد الرحمن أن يعود مستقبلاً ليعمل في إحدى الدول النفطيّة كي يشد أزر التـنظيم . . . لقد أراد قادة الحزب ، أو بالأحرى القادة الخمسـة الذين يهيمنـون على الحـزب منذ سنين أن يعـود عبد الـرحمن إلى مسقط رأسه لبنـاء تنـظيم جديد ، بعد أن عجزوا هم عن اختراق أسوار العزلة التي ضـربها ذلـك القطر حول نفسه بمساعدة الإنكليز الذين يعرفون البلاد جيداً .

عرف عبد الرحمن أنه في صوفيا لسنوات معدودة يعـود بعدهـا ليبدأ أصعب وأقدس مهمة يراها في عينيه . هكذا تعوّد التنظيم أو الحزب على تربية كوادره ، كان يلتقطهم صغاراً وهم لا يزالون في المرحلة الثانوية من مراحل دراستهم ليجنّـدهم في صفوفـه ، ويوجّههم وفقـاً لإمكانيـاتهم ، واحتياجاته في داخل الحزب . . . كان هؤلاء الشباب الصغار يجدون في الحزب الأسرة ، والأصدقاء والحلم . وعندما يحاول عبد الـرحمن اليوم أن يتذكر طفولته في الحزب يبذل جهداً كبيراً كما لو أنـه يحاول التقـاط قبضـة ضباب . . أصبحت ذكـرى الحزب في هـذا المنفى هشّـة وغيـر مرئية ، فقـد ابتعد الـزمن به عن بـدايات التجـربة ، وتمـزّق حزبـه إلى أحزاب وشيع ، وفرق ، بعضهم لحق بمعسكر العـدوّ ، وبعضهم الآخر يحاول أن يجد لنفسه وهماً يعيش في ظلّه ، بينما هو وأمثـاله من الـذين حاولوا أن يفعلوا شيئاً ويجسّدوا الأحلام التي تربوا عليها واقعاً ضاعوا ، وتشرّدوا ، ثم وجدوا أنفسهم وهم في نهايات العمر أمام الـلاشيء . . . أمام الأحلام المطفأة ، والأبواب المغلقة ، واليأس القاتل .

وجدوا أنفسهم أمام جدار المساومة والخيانة ، وتخاذل القيادة . . . وانتهى الأمر بأغلبيتهم إما إلى السجون أو إلى المنافي .

عندما تشتد أزمة الذاكرة بعبد الرحمن في مقهى (كلوزري دوليلي) يملك الجرأة للاعتراف أمام نـادية كيف ارتبط بـالثورة بشكـل نهائي في مدينة البتراء . كان ذلك على يد مندوب للحزب أرسل من (المركز) كي يكسب إلى صفـوف الثـورة المحتملة أصـدقـاء جـدداً . . . لم يكن

عبد الرحمن بحاجة إلى جهد خارق كي يرتبط بالحزب . . . كان مهيّأ لذلك بشكل طبيعي ، فقد حاول أحد أساتذته ـ الذي لاحظ ذكاءه الخارق ـ أن يضمّه إلى «حرس الوطن» معتقداً بأن يوجهه الوجهة السليمة التي تتفق ومستواه العقلي . . . كان الأستاذ ينتمي إلى حزب (التحرير) ويفخر بذلك ، ويعلنه داعياً إياهم إلى الالتحاق بـ «الشرعية» التي تنشر جناحيها على البلاد فتكرّس العدل . لقد شعر ذلك الأستاذ أن أذكى طلّابه لا يعير رسالته الكثير من الاهتمام فأحس بأن عليه واجباً إضافياً يحتّمه إخلاصه للوطن . . . حمل ذات يوم مجموعة نشرات رسمية للحزب تتحدث عن خطر الشعارات التي يطرحها «القوميّون الزنادقة أعداء الإسلام» وأعطاها لعبد الرحمن كي يقرأها ، ولو أن ذلك الأستاذ الأحمق أراد كسب عبد الرحمن إلى صفوف الحزب القومي لما فعل أفضل من ذلك . واكتشف عبد الرحمن عبر النشرات المضادة أن كل الأطراف تقود إلى المركز . تقود إلى تلك القيادة الخيالية القابعة في مغارة ما من مغارات الوطن القومي . . . تشرف على العالم ، وتنظم شؤونه وتعيد ترتيب الوطن العربي . وعايش عبد الرحمن الحلم ثم استسلم له بكامل إرادته ووعيه ، وعندما جاءه ذلك المندوب من القيادة لم يفاجأ ، ولم يجد في الأمر معجزة خارقة لكنه سحر وهو يشهد مع بعض زملائه في المدرسة ، الاجتماعات السرية التي تنتهي دائماً في منتصف الليل بمهمات أسطورية . واستمر عبد الرحمن في التنظيم واستمرت الزيارات السرية لمندوب القيادة إلى مدينته دون انقطاع ، كان المندوب في كل مرة يصل فيها إليهم يحمل أوامر جديدة من القيادة . وكان عبد الرحمن ورفاقه ينفذونها باعتبارها مسلمات لا يجوز فيها النقاش ، لأن القيادة وحدها تعرف وتقدّر مجرى التاريخ . وهكذا عندما قرّرت القيادة أن على عبد الرحمن أن يرحل إلى صوفيا لدراسة الكيمياء ، فعل ما طلب إليه دون أن يسأل مندوب القيادة تفسيراً لهذا القرار ، بل بالعكس فقد دخل مع أسرته الحقيقية معركة حامية لكي يكون بمقدرته السفر بدلاً من

العمل في إحدى الشركات الأجنبية بعد حصوله على الشهادة الثانوية . . . كان مستقبل الحزب هو مستقبله الشخصي ولم يكن له من مستقبل بعيد عن الحزب .

في صوفيا اعتبر عبد الرحمن نفسه جندياً في مهمّة عليه إنجازها بأسرع ما يمكن . . . لم يكن وحيداً في تلك المدينة الغابية ، فالحزب بالتنسيق مع الأصدقاء البلغار استطاع أن يتابع خطوة كل واحد من أعضائه بدقة . وحتى عندما اكتشف عبد الرحمن عالم المرأة في جسد إيرما علم الحزب بذلك ، وكتب مسؤول التنظيم القومي في بلغاريا رسالة إلى (القيادة) القابعة في إحدى مغارات الوطن يعلمها بتفاصيل حياة (البعثة) ومشاكلها ، ومتطلباتها . . . في نهاية الرسالة لم ينس أن يشير إلى علاقة عبد الرحمن بإيرما التي تعمل سكرتيرة في منظمة الشباب . وقدرت القيادة ـ كما عرف عبد الرحمن فميا بعد ـ بأن هذه العلاقة لا تشكّل خطراً على مستقبل عبد الرحمن الحزبي ، لأن المرأة التي يخرج معها في نهاية الأسبوع ، هي مناضلة حزب صديق تستطيع أن تعرّف عبد الرحمن على جوانب في الحياة تساعده على فهم مهامّه المستقبلية .

كان عبد الرحمن يتمنّى أن يحدِّث إيرما عن اكتشافه للحزب ، لكنه كان يتراجع باستمرار عن ذلك لاعتقاده بأن انتماءه يجب أن يظل سراً حتى على أقرب الناس إليه . . . ألم يعلّمه الحزب ذلك . . . ألم يقل له : لتظلّ ضحكتك سراً ، وحبّك سراً ووجودك سرّاً ؟!

وتمرّ به الأيام في صوفيا مذهلة . . . يشهد من بعيد ومن تلك المدينة . . . المخاض المضني لسنوات الخمسينات في وطنه . . . يشهد مع زملاء عرب مثله جاؤوا للدراسة في هذه المدينة (بسبب انخفاض تكاليف الحياة) بداية الانتفاضات في الجزائر وانفجار الثورة في مصر ، وذلك القلق المضني في سورية ، وكان كل هذا يعني له أشياء كثيرة . أحلام أو مشاريع أحلام . . . بدايات تبحث عن النهايات السعيدة لها كالأفلام الدرامية المصرية . . . وهكذا في رحلة دراسته اكتشف

أصدقاء ، ورفاق درب . اكتشف عالماً يختلف عن العالم الذي ودّعه في البتراء . . . عالم النظريات وطرح الأسئلة . كان تجمّع الأصدقاء في مقهى البلقان يساعد عبد الرحمن على خروجه عن ذلك الانضباط الحديدي لكي يشرب كأس فودكا ، ويلقي بنكتة سياسية ، ثم يحاول أن يتساءل بصوت يسمعه : إذا كانت الثورة العربيّة التي يحضّر لها حزبه شبيهة بما حصل في مصر . . . سأل عبد الرحمن مرة أحد زملائه العرب الذين كانوا يدرسون معه «ما رأيك بما حصل في مصر ؟» وأجابه شاكر الذي كان ينتمي إلى أحد التنظيمات الماركسية في بلد عربي : «ما حصل في مصر انقلاب يا عبد الرحمن . . . انقلاب شبيه بما يحصل في بلاد أميركا اللاتينية . ضابط يتسلم السلطة فيحكم وحيداً حتى يأتي من يحل محله من الضباط» . ظل السؤال يعذّبه باستمرار «ونحن ؟ حزبنا ماذا سيفعل ؟ وما هي الثورة التي يربّوننا لأجلها ؟ ما هدفها ؟ ما هي أبعادها ؟» .

كانت مثل هذه الأسئلة لا تجد جواباً لدى عبد الرحمن ، وعندما يطرحها على مندوب القيادة الذي يزورهم بين الحين والحين يسمع جواباً واحداً «الثورة العربية لم تحصل بعد ، وعلينا أن نعدّ لها» .

وازدادت الأسئلة وظلّت الإجابات عليها مبهمة وغامضة . . . كان يجيب وهو يردّ على تساؤلات إيرما أنه لا يملك حصيلة كافية من الكلمات باللغة البلغارية تساعده على شرح موقفه في الحياة وما يحصل في بلاده ، لكنه أدرك فيما بعد أن إجاباته الناقصة المبهمة هي هي بلغته الأم وهو يتحدّث بها إلى شاكر . . . كان يحسد شاكر لأنه أكثر وضوحاً وتحديداً منه ، يحسده لأنه شبه مطمئن إلى أن مستقبل الإنسانية محسوم بشكل نهائي لصالح الطبقة العاملة . لم يكن عبد الرحمن قادراً على هذا التحديد وظن بأن الخطأ فيه هو . . . ظن أنه ليس في مستوى الثورة التي كانت ترسم في مغارة من مغارات الوطن . . . مغارة مجهولة من جميع أعضاء الحزب أمثاله ، كما هي مجهولة من علماء الجغرافية .

وانتهت سنوات دراسة عبد الرحمن ، وحصـل على لقب دكتور في الكيمياء ، وكان عليه أن يغادر صوفيا إلى بلاده . . . كان عليه بالأحـرى أن ينتظر الأوامر التي ستصدر إليه من القيادة ، تلك الأوامر التي ستحدّد مستقبله . وأحس بضيق بالغ شبيـه باللوعـة وهو يـودع إيرمـا . . كان لا يستطيع أن يحدّد مشاعره حيال تلك المرأة التي عاشرها . لكنه كان يعرف أن ثمة مهمات جساماً تنتظره في بقعة ما على أرض الوطن الذي حدّده له الحزب . . الوطن الذي يمتدّ من المحيط إلى الخليج . . ومن أجل تلك المهامّ الجسام ظلّ عبد الرحمن يقنع نفسه باستمرار أن الحب شيء عابر في حياته وأن المرأة حاجز بينه وبين الثورة المرجوّة .

وجاء يوم الرحيل . كان القطار الذي سيعيده إلى الوطن سوف يترك محـطة صوفيـا في المساء ، وعلى رصيف المحـطة وجد عبـد الـرحمن أصـدقاءه القـلائل الـذين ارتبط بهم أثناء دراستـه في بلغاريـا قـد خفّـوا لتـوديعه . . . إيـرما تبكي وهي تقبّله . . . شـاكر يؤكـد أنـه سيكتب لـه بـاستمرار . . . مـازن ذلـك الـرفيق الصـديق الـدمشقي الـذي لم يعـد عبـد الرحمن يعـرف مصيره كـان أيضاً في محـطة قطار صـوفيا يلوّح لـه بيديه .

كانت الرحلة باتجاه استانبول فأنقره ، ومن هناك يستقل عبد الرحمن حافلة إلى الاسكندرون ، ثم حلب . كان الركـاب من حولـه في عربـة الدرجة الثانية قلّة من البلغار والأتراك الـذين تعوّدوا على مـا يبدو القيـام برحلات مماثلة بين البلدين . . . في طريق عودته لم يلحظ عبد الرحمن خضـرة الغـابـات الـداكنـة ، ولا تلك السهـول الشـاسعـة المـزروعـة بـالخضروات والتبـغ . أغمض عينيـه وغـرق في أسئلة كـان طيلة فتـرة الدراسة في صوفيا يطرحها على نفسه دون أن يجد لها إجابات محددة . تلك الأسئلة التي تتعلّق بمعنى كلمة «ثورة» . هذه الكلمة التي جعل منها محور حياته منذ كان طالباً في ثانوية مدينة «البتـراء» . هذه الكلمـة التي ستظل باستمـرار وحتى اليوم سبب وجـوده وربما ستؤدّي إلى مـوته . . .

هذه الكلمة التي يغلفها البرق والشرارات والمخابىء السرية ، وجموع الرجال والنساء يركضون تحت وابل رصاص . . . كلمة من جمر هي الخاتمة لرؤيا تبدّت له في أحلامه كقوس قزح ضيّق من خرائب بابل . . . فجر يبهر نهاية العالم بالضوء الساطع لصباح مشرق في صحراء الذهول والإعصار . . . كلمة لا يرتعش قلبه إلا حين يسمعها واضحة بلغته . . . أسئلة كثيرة تحولت إجاباتها فيما بعد إلى حماقات على أرض واقع لا علاقة له بالحلم . . . ذلك لأن أي «ثورة» ما هي إلا تجسيد لمنافع محددة . . هذه المنافع أو تلك المصالح لم تكن واضحة أبداً لعبد الرحمن . . . كان عبد الرحمن وأمثاله مجرد فنانين دون مؤلفات ، وخطباء دون جمهور .

لم يكن يفهم وهو في طريقه إلى وطنه . . . لم يكن يرى أو يجرؤ على الفهم . . . أما اليوم ، وبعد تلك الرحلة العبثية الطويلة التي استهلكت شبابه ، فإنه في هذا المنفى الباريسي يرى بشكل أفضل . لكن وضوح الرؤيا الذي أكسبه إياه السجن ، والرحلة على الأقدام في الصحراء ، وانتظار الموت في تلك الجزيرة المعزولة عن العالم حسم الأمر بشكل بائس . أصبح عبد الرحمن اليوم مستسلماً بشكل كلّي للخيبة ، ويكاد يكون جسده وعقله غير قادرين على استقبال أحاسيس أخرى . . . حتى الحب . . . تلك العاطفة الضرورية لاستمرار الدهشة بالحياة تركها وراء ظهره في السجن . . . ولم يعد يملك القدرة اللازمة للبدء من جديد . . . أصبح عبد الرحمن يعيش ترف رجل متقاعد قبل السن القانونية . . . كل ما يستطيع فعله هو اجترار الماضي في زاوية مقهى «كلوزري دوليلي» والحلم بامرأة كنادية .

وبعد ذلك ؟ . يحاول عبد الرحمن اليوم أن يتذكر (بعد ذلك) فتقفز أمامه أحداث «عابد» وتنفجر في داخله ثورة الذكريات .

بعد ذلك كانت عودته إلى مدينة البتراء حيث بدأ الحياة الأولى . . .

لم يطل المقام بعبد الرحمن في مدينة البتراء التي أحدث وصوله إليها عاصفة من الفرح ، وربما سيذكر أهل تلك المدينة لأجيال أول «دكتور» من مدينتهم عاد إليهم من أوروبا . . . خلال الأيام الأولى من إقامته في بيت عائلته استقبل عبد الرحمن وودّع أصدقاء طفولته . . . وجوهاً نسي ملامحها خلال سنوات في صوفيا . . . كان يمنع نفسه أن تذهب في ضعفها الإنساني إلى درجة الارتباط بالمكان والأهل والأم البدويّة ذات الوجه المتغضن واليد الموشومة ، الأم التي حاولت خلال أيام عبثاً أن تقنعه بالزواج وإنجاب الأطفال فكان يجيبها : «إن وقت الزواج والأطفال لم يحن بعد ما دام الوطن ليس حراً . . . » .

ولم تكن أمه البدوية ذات اليد الموشومة تفهم شيئاً مما يقول ، وكثيراً ما هزّت رأسها استغراباً دون أن تحظى بجواب شاف .

بعد شهر واحد من إقامته في البتراء تلقّى عبد الرحمن عن طريق مندوب جديد للقيادة أمراً بالتوجّه إلى مسقط رأسه مرفقاً بعقد عمل لدى إحدى الشركات الفرنسية العاملة بالتنقيب عن النفط هناك ، وكما رحل عن البتراء قبل ستة أعوام إلى صوفيا بشكل آلي جمع بعد الرحمن أشياءه القليلة مرة أخرى وودّع تلك الأم ذات اليد الموشومة والوجه المتغضّن . منحته أمه بركتها النهائية قائلة : «أنت ابن أفضل أب ، فإذا عدت إلى الصحراء ابحث عن مكان الخيمة التي ولدتك فيها» لاحقت هذه الجملة عبد الرحمن فيما بعد طيلة فترة إقامته في ذلك البلد النفطي . . لكنه لم يستطع أن ينفذ إرادة أمه بسبب مهامه الكثيرة التي جعلت منه رجلاً آلياً موزعاً بين العمل في حقول النفط والاجتماعات المتواصلة التي تنتهي مع الفجر . . . اجتماعات برفاق سبقوه للعمل هناك . . . برفاق جدد انضمّوا إلى التنظيم . . . وجوه لم يكن يتوقّع عبد الرحمن أبداً أن تكون إلى جانب حزبه ، بعضهم ينتمي إلى الأسر الحاكمة وبعضهم الآخر يحتلّ مواقع هامة في الدول أو شظايا الدول التي انبثقت من تحت ركام الجيولوجيا مع انبثاق النفط .

واليوم بعد انفجار الأحداث في «عابد» .

يتقلّب عبد الرحمن في فراشه . . . فيتقلّب الهمّ والخيبة في أعماقه . . . منذ زمن لم يعد عبد الرحمن يشعر بالأمل في أي شيء . . . كان سؤال واحد يحيّره هو : لماذا بكت أمه وهي تودّعه في المرة الأولى إلى أوروبا ؟ ولماذا لم تبك عليه يوم رحل إلى مسقط رأسه ؟ سؤال تافه وسط زحمة الأحداث التي عاشها ، لكنه سؤال يلاحقه ويطرحه على نفسه باستمرار . كمية الكحول التي سكبها في جوفه تلك الليلة لم تستطع أن تساعده على النوم . . . ومدّ يده من جديد إلى جهاز الراديو للبحث عن إذاعة ما تعطي إيضاحاً لما يحصل هناك . . . سمع إذاعات مختلفة . . . ومن خلال شظايا الكلمات ، وشذرات الأنباء المتقطعة استطاع مع خيوط الفجر الأولى أن يرسم صورة لما حصل ويحصل الآن في «عابد» أصبحت الصورة واضحة . . . إنها تمثّل مغامرة جديدة لمجموعة يائسين ضاق بهم كما ضاق به من قبل انتظار «الأوامر العليا» . . . وضاقت بهم أحلامهم فجمعوا أطفالهم ونساءهم واتجهوا إلى السجن في «عابد» ليمارسوا على سمع العالم ونظره انتحاراً جماعياً . . . وبعد أن يتمّ الانتحار وتختلط دماؤهم ودماء أطفالهم بمياه البئر المقدّسة ليقل الحكام الذين أجبروهم على هذه المجزرة ما يريدون قوله . لكن عليهم أن يعرفوا أن هذه البئر سوف تنضح لقرون قادمة بجرثومة «الثورة» وكل من يشرب من مياهها ستحلّ الثورة في جسده إلى نهاية حياته .

يتقلب عبد الرحمن في فراشه محاولاً النوم ، لكن النوم الذي يستعصي على كل المشرّدين والخائبين أمثاله بدا له في تلك الليلة أبعد من الحلم . راودته ذكريات السنوات الثلاث التي قضاها في ذلك البلد النفطي . . . راودته محاولته تقوية التنظيم وإعداده على أسس جديدة . . . لقد وجد أمامه مجموعة رفاق لا يتعدّون أصابع اليد مضت عليهم شهور طويلة دون أن يتم الاتصال بهم من قبل القيادة العليا . . .

دون أن يتمّ توجيههم لعمل ما يجب عمله ، لذلك اقتصر نشاطهم على اللقاء مرة في الأسبوع في بيت أحدهم للنقاش في الأوضاع العامة . . . وحتى النشرات التي يفترض أن يتم إيصالها بانتظام لهم لم تكن تصل فعلاً . . . أحس عبد الرحمن بالبؤس وهو يرى أمامه البلاد بأثرها تحت قبضة الشركات النفطية . كان أخطبوط رهيب يمتصّ دم الناس ومستقبل حياتهم بينما هم لاهون عن حقيقة كل شيء بالتمتّع بفضلات النفط . . . وغرق عبد الرحمن في دراسات جيولوجية كلفته بها الشركة الفرنسية حول احتياطيّ النفط ، وعندما انتهى من الدراسة الأولى أذهلته المفاجأة . . .

كانت الأرقام والبحوث تشير إلى أن احتياطيّ البلاد لن يكفي أكثر من خمس عشرة سنة . أعاد الدراسة مرة ومرتين وكانت النتائج متماثلة . وعندما دخل إلى مكتب رئيسه ليعرض عليه نتائج أبحاثه فوجىء . . . بل ذهل حين طلب منه ذلك المهندس الفرنسي الشاب بلطف مبالغ به : أن يعتبر ما توصل إليه في بحوثه سراً من أسرار الشركة لا يجوز البوح به لأحد . لكن مفاجأته بلغت حدّها الأقصى عندما اكتشف بعد أيام قليلة أن النتيجة نفسها توصل إليها مهندس فلسطيني يعمل لدى إحدى الشركات الأميركية المنافسة لشركته . وحين حاول ذلك المهندس أن يبلّغ سلطات البلاد بنتائج دراسته قبل أن يسلّمها للشركة الأميركية ، وُجد في بيته مذبوحاً من الوريد إلى الوريد . في اليوم التالي لم يجد رجال الشرطة المحلية الذين أشرفوا على نقل الجثة إلى المشرحة كما لم يجد رجال التحقيق أي أثر لتلك الدراسة . والطريف في الأمر أن الجريمة قُيّدت ضد مجهول ، والأكثر طرافة أن الدولة المضيفة لم تقبل بدفن جثة المهندس الفلسطيني في أرضها بل طالبت «منظمة التحرير» بترحيلها عن البلاد علماً بأن ذلك المهندس لم يعرف عنه الانتماء إلى أي تنظيم فلسطيني .

بعد سنوات من هذا الحادث يجد عبد الرحمن نفسه غارقاً من جديد

في بحور الذكريات البغيضة التي قذفت بـه إلى هذه البـلاد . . . فلماذا فجّرت أحداث «عابد» في داخله كل ما يحاول نسيانه ؟!

حاول عبد الرحمن عبثاً أن يسـرّب نتائـج دراسته إلى بعض أجهـزة الإعلام العربية وما أن علم الحـزب بذلـك حتى تلقّى زيارة مفـاجئة من مندوبه في المنطقة . . . زيارة كان هدفها إبلاغ عبد الرحمن رسالة قصيرة جداً «الزم الصمت» . . . وقد نطق المندوب الرسالة بتصميم بـالغ منـع عبد الرحمن من مناقشته . . . منذ متى تناقش أوامر الحزب ؟ ومنـذ متى تطرح الأسئلة ؟ .

وتمـر الأيام ، ويستـطيع عبـد الرحمن بعـد جهد بـالغ تكـوين فرع للحزب استطاع أن ينظّم نفسه ويحدّد أهدافه المحلية . لكن هذا الفرع كان محكوماً بالسرية المطلقة والعمل البطيء . . . بعـد سنين من رحيله عن تلك المنطقة . . . وبعد تجربة السجن والهرب والتعذيب ثم الهرب من جديد ، قال عبد الرحمن لنادية ذات يوم في ذلك الركن من «كلوزري دوليلي» : «وهل تعتقدين يا نادية أن الأمر يستحقّ كـل هذا التعب . . . هل يستحق تكوين فرع لحزب سرّيّ سجن ثلاث سنوات ، وتشريد في هذا العالم بعيداً عن أي دور ممكن إلى هناك ؟» لم تجبه نادية على هذا السؤال ، بل هزّت كتفيها دليل الحيرة ثم غرقت في الصمت .

بالأمـس ، نـظرت إليه بعينيها الواسعتين الشبيهتين بعيني غزال طعن في الظهر وقالت بعد أن استمعوا جميعاً لأحداث «عابد» : «هذه نتيجـة عملك يا عبد الرحمن» .

كانت نادية الوحيدة بين الأصدقاء من استطاع وضع يده على جرحه لكن هذا لم يكن يغيّر من الأمر الواقع كثيراً . . .

قلق . . . رغبة مستحيلة بالنوم . . . النـوم أصبح الحبيب البعيـد ، والـوطن المشتهى ، والمرأة المستحيلة منـذ داهموا البيت الـذي ضمـه ورفاقه في ذلك البلد النفطي ليقودوه إلى السجن . منذ ذلـك اليوم ودع

عبد الرحمن لذة النوم لآخر مرة ، وبعدها كان يمضي الليالي ساهراً في زنزانته بانتظار الإعدام شنقاً ، أو بإلقائه من فوق سور السجن إلى البحر طعماً لسمك القرش . طريقة جديدة أبدعها التخلّف العربي . . . يتحوّل السهر والقلق والصحو القاتل إلى جزء من تكوين عبد الرحمن الفيزيائي . . . أصبح يخاف النوم لأنه يخاف الموت . . وظلّ يتقلّب في سريره ساهراً . . . وما زالت الذكريات تطارده وها هو يتذكّر تفاصيل اليوم الذي ألقي فيه القبض عليه وعلى رفاقه . . . جاؤوا إلى بيت أحد أعضاء التنظيم كأنهم على موعد مع السجن أو الموت . جاء أعضاء التنظيم جميعاً الواحد إثر الآخر لمناقشة نتائج الدراسة التي أعدّها عبد الرحمن عن مستقبل البلاد النفطي ، وقبل أن يغرقوا في قراءة الدراسة تناقلوا فيما بينهم تلك الأنباء التي تقول : بأن السلطات المركزية ألقت في العاصمة القبض على ثلاثين ضابطاً من ضباط الجيش بتهمة القيام بانقلاب ضد الحكومة ، وذكر أحدهم بأن آخر المعلومات التي تلقّاها من صديق عسكري تؤكد أن الثلاثين أعدموا .

واختلفت الروايات حول إعدامهم ، فبعض الرفاق أكّد أن الإعدام تمّ رمياً بالرصاص وقد نفذه وزير الداخلية شخصياً : والبعض الآخر قال - استناداً إلى معلومات متفرقة حملتها القبائل - إنه تمّ بإلقائهم من طائرة عسكرية أحياء في قلب الصحراء وأن بعض القوافل وجدت فيما بعد أثراً لأجساد بشرية .

قبل أن ينتهوا من الكلام عن أخبار إعدام الضبّاط الثلاثين . . . قبل أن يقفوا جميعاً ليردّدوا شعار الحزب المقدّس ، ثم يبدأوا اجتماعهم الرسميّ حصلت المفاجأة . . . بدأت المفاجأة بطرق خفيف على الباب تبعته فترات صمت أمسك الجميع خلالها أنفاسهم . . . تكرّرت الضربات بشكل أقوى . . . وسمعوا صوتاً حاداً يطلب إليهم أن يفتحوا الباب . . . وتبادلوا النظرات . . . من يكون الخائن ؟

ظلّ هذا السؤال حتى اليوم دون جواب ، رغم الجهود المضنية التي

بذلها عبد الرحمن فيما بعد لمعرفة حقيقة القصّة التي كانت نتيجتها ثلاث سنوات من عمره وعمر رفاقه داخل أسوار سجن في جزيرة معزولة وسط مياه الخليج .

ثلاث سنوات في السجن . . . ثلاث سنوات يجد عبد الرحمن اليوم نفسه عاجزاً عن استحضار تفاصيل أيامها ولياليها . . . فهل نسي ذاكرته داخل الأسوار وخرج إلى العالم دون ذاكرة ؟

جلس في سريره ، وأشعل النور . عندما لمح خيوط الضوء تسقط على الأشياء من حوله أحسّ برعشة أعادته من ضياع الماضي إلى صفاء اللحظة التي فجّرتها أخبار الانتفاضة في مدينة «عابد» هذا المساء في أعماقه .

ويعود إلى الماضي ليتذكر . . .

مرت الأيام بطيئة داخل السجن حتى أدى صراع على السلطة بين أعضاء الأسرة الحاكمة إلى خلل في أجهزة الأمن ساعد عبد الرحمن وثلاثة من رفاقه على الهرب . كما ساعد تكتّم الحرّاس على «جريمة هربهم» عدة أيام إلى إعطاء رفاقهم الفرصة كي يخرجوهم من البلاد . وقد استطاع عبد الرحمن وأحد رفاقه أن يقطعا المسافة بين السجن والحدود في شاحنة خضار مقابل مبلغ من المال زوّدهم به أحد أعضاء التنظيم . وبعد الحدود بدأت الرحلة باتجاه «إرم» سيراً على الأقدام .

«كان عليّ أن أنتظر غياب الشمس كي أبدأ ورفيقي الرحلة . . . وفي انتظار الغياب جلسنا في ظل شجرة عوسج صامتين . . . كنا نتجنّب الحديث عن السجن . ونحاول العودة إلى الوراء . . . إلى ما قبل الزنزانات المنفردة . . . إلى ما قبل الشك القاتل الذي لاحقنا في رحلتنا . . . كانت عيوننا أنا ورفيقي تنطق باتهامات غامضة لبعض من بقي من رفاقنا هناك . . . وكنا نحاول أن نطرد تلك الاتهامات لكن الشك القاتل ظلّ يلاحقنا . . . لقد انهصر العقد الذي يجمعنا ، وتهاوى كل

شيء لكننا رفضنا أن نقر بذلك . . . ولفت انتباهي في تلك الظهيرة لون الشمس ، والأرض ، والسماء من حولنا . . . أدركت أن الحياة لا تـزال مستمـــرة رغم السجن والمـــوت . . . غـــزلان شـــاردة بين الأكــمـــات الرملية . . . طيور حجل مختبئة بين الأعشاب الجافة . . . شمس تتربع السماء كملكة أبدية . . . شجرات نخل بعيدة تغيب وراء السراب دليـلا على وجود بشر اختاروا هذه البقعة من الأرض ليحيوا فوقها .

رجال ، وصحراء ، وعيون هاربة من السجن .

كنا ننظر إلى السماء بدهشة كأننا نسمع أنينها العميق وضربات قلبها المترع بالذكريات الأبدية . . . ثم تهبّ ريح قوية فتنعش همومنا وأغانينا وذكرياتنا . . . تبعثر الريح جدائل الحزن التي نحملها على أكتافنا كالهنود الحمر . . .

تضاربت فرحتي بالحرية وإحساسي بالفراغ الخائر في كـل شيء كنت على أبواب الأربعين وكانت الصحـراء حولي واسعـة كالبحـار لم أعد أذكر ماذا قـال رفيقي . . لم أعد أذكـر . . لكن ما يخيـل إلي أنني فعلته . . ما يخيل إلي أنني أقدمت على فعله هو : إن احتضنت الأرض وتذكرت صوفيا تذكرت إيرما ونهديها المثيرين . . . تذكرت أمي العجوز التي تنتظر عودتي في البتراء كأنني فراشة أو طير سنـونو . . . كنت أكثـر من رفيقي كـلاماً ، وهـذيت بمحرمـات . . . أكلت الحشائش ، أيقـظت الـطيـور النائمة . . . صـرخت بأعلى صـوتي . . . كشفت صدري واتجهت إلى السماء أدعو على هذه الأمة بالفناء ، لكن الصحراء كانت واسعـة أمامي كالبحار واسعة وغامضة كالمستقبل الذي أنتظره الآن .

كان علينا أن نسير باتجـاه حدود «إرم» وهـذا يعني وفقاً للحسـابات البسيطة مسيرة يوم كامل على الأقدام بعد أن تتكىء الشمس على الطرف الآخـر من قبة السمـاء . . . وبانتـظار ذلك سـألني رفيقي سؤالاً ساذجـاً وبسيطاً : «لماذا لم نقاوم يوم جاؤوا لإلقاء القبض علينـا» ؟ سؤال بسيط

لكنني لم أستطع أن أطرحه على نفسي من قبل ، أو بالأحرى كنت أخاف أن أطرحه على نفسي وأنا داخل أسوار السجن لأنني بكل بساطة لا أملك جواباً له ، فالمقاومة كما قالت أمي هي ردّة فعل طبيعية تترجم كل ما تربّى الإنسان عليه ! أما عدمها فيطول شرحه .

سرنا تحت الشمس التي اتكأت على خاصرتها في الطرف الآخر من السماء باتجاه «إرم الجميلة» أو «إرم الصامدة» كما كان يحلو لرفيقي أن يقول . . . كنا قد فقدنا القدرة على الكلام . . . فقدنا القدرة على السير بينما المسافات بعيدة ، و«إرم» على الطرف الآخر من الهضبة . . . أصبحت الشمس أكثر حدة ، وتحت تلك الشمس الحارقة . . . ودون أن أدري اتجهت بذكرياتي إلى صوفيا . . . إلى «إيرما» الجميلة الشقراء . . . شعرها ينسكب على كتفيها ويغطي جزءاً من وجهها وهي تعانقني فأملّ عناقها لأنني أشعر كأنها تسرق زمني ، وأتخيّل نفسي ثورياً رديئاً مفرط الإهمال .

كان عام ١٩٤٨ يلاحقني في صوفيا حتى أنني كلما التقيت يهودياً في المقاهي التي تعوّدت ارتيادها أخفض رأسي حتى لا تلتقي عيناي بعينيه فتستيقظ في دمي تلك القصة القومية . . . أدركت إيرما معنى ذلك جيداً يوم طلبت إليها أن تترك المقهى ولم يكن قد مضى على وصولنا ثوان . . . التفتت حولها فوقعت عيناها على مجموعة شباب يتكلمون اللغة العبرية . . . حاولت أن تعزّيني فقالت جملة لا تزال تلاحقني كسكين ممغنطة حيثما اتجهت : «عبد الرحمن لا تهرب من الواقع كل امرىء مسؤول عن تاريخه ، وكل شعب مسؤول عن قيادته» . عام ١٩٤٨ ظل يلاحقني هناك وأنا أدرك أن ثمن فلسطين كان بخساً وأصرخ : «إيرما . . . لا أريد أن أحدّثك عن بلادي يا إيرما» .

تغرق عيناها الخضراوان في الصمت وتروي لي ما سمعته من أمها عن قصص الجيش الأحمر ، والثوار ، وشهداء بلوفدف ، والنساء اللواتي قاتلن بشراسة .

تفـرَّق أصدقـاء صـوفيـا في أنحـاء الأرض . . . ولا أدري إذا كـان بعضهم ما زال يذكرني .

ويأتي المساء ونحن نقطع تلك الصحراء . . .

عشية ذلك المساء دخلنا «إرم» . . . ظنّ كلٌّ من مر بنا ونحن نقطع ساحة النصـر حفاة الأقـدام ممزّقي الثيـاب أننا ننتمي إلى عـالم أولئـك الصعاليك المتسوّلين . . . لم يتوقّف أيّ عابر ليسألنا ماذا نريد ؟ كنا نظنّ في السجن أن وجوهنا وصورنا ومـلامحنا أصبحت معـروفة لكـل ساكني الأرض العربية كأبطال في ذاكرة التاريـخ . . . وأنا أعبـر حافي القـدمين ممـزق الثياب ، كنت ظمـآن وروحي تشتعل . . . فثمـة جوع منسيّ في داخلي يستيقظ فجـأة . أفكر بـالنصـر والهـزيمـة . . . أفكـر بـالأبـطال العظام . . . أفكر بزمن الكرز وعيون الغزلان الصحراوية وهي تبكي في ضوء القمر .

أسير في شوارع «إرم» . . . نسير في شوارع «إرم» على غير هدى . كان علينا أن نبحث عن بيت رفيقنا «مسعود» الذي كان مندوب القيادة إلينا ونحن في ذلك البلد النفطيّ البعيد، أتذكر الآن أرصفة «إرم» . . . أشجار الياسمين في مداخل البيوت . . . النساء الجميلات ذوات العيون البقرية تطلّ من النوافذ والشرفات . كانت إرم الجميلة تغفو تحت ظل الحـرب والخوف من الحرب لكنها في غفوتها الهازئة من الأبدية تظل خشبة نجاة لنا ، كما كانت حلماً ونحن في السجن . . . إيمان رائع كان يسكننا من الفجر إلى الفجر بأننا سندخل «إرم» ذات يوم . . . وكثيراً ما أنشدنـا في ساعات بؤسنا ووحدتنا تلك الأناشيد الرائعة التي تعلّمناها صغاراً .

نصل إلى حيّ الهضبة ونطل على المدينـة الغارقـة في عتمة بـداية الليل . . . أضواء تلتمع وتخفق صرخـات مكتومـة لعشاق عـابرين . . . رائحة الياسمين والزيزفون وأطفال «إرم» . . . يا إلّهي أهذا هو الوطن ؟

نسـرع الخـطى . . . يســألني رفيق الـدرب إذا كنت أعـرف بيت

مسعود . . . أهزّ رأسي بالإيجاب بينما تتغلغل في جسدي عبر الثياب المهلهلة رطوبة الليل الربيعي . . قال لي ذلك الرفيق الذي انتظرنا قريباً من السجن ليلة هربنا «عندما تصل إرم يا عبد الرحمن ابحث عن مسعود . . . إذا وصلت في الصباح ستجده في مكتبه حتى الثانية ظهرا وإن وصلت ليلاً فاصعد إلى حيّ الهضبة ، وبعد جامع المرابط ادخل الشارع الثالث إلى اليمين ثم عُدَّ الأبواب على يسارك ، وسيكون بيت مسعود هو البيت الثالث» .

وسألت ذلك الرفيق الذي انتظرنا أمام باب السجن أو قريباً منه «وإذا لم أجد «مسعود» ؟ » قال «سوف تجد «مسعود» ، افعل ما أقوله لك . . . اقرع الباب وإن سألك من الطارق ؟ أجب : «جئت بالفرس الشقراء» . . . وضحكت عندما ردّد لي هذه العبارة مرتين . وتذكّرت دخول فيصل بن الحسين إلى دمشق ، ثم خروجه منها . . .

رعشة باردة عبرت جسدي لذكر «الفرس الشقراء» ، قلت لذلك الرفيق : «ألا تجد شعاراً آخر أكثر واقعية ؟» قطّب الرفيق حاجبيه وقال : «لا وقت لمزاحك يا عبد الرحمن . . لا وقت ، عليك أن تقطع الحدود بأسرع ما يمكن» .

وهأنذا في «إرم» . . .

هأنذا أمام جامع المرابط . . . الشارع الثالث على اليمين . . . أعدّ الأبواب على اليسار : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، كان الباب الثالث عبارة عن باب خشبيّ لا يميّزه عن سواه من الأبواب إلا ذلك اللون الأزرق الفاتح الذي دُهن به . . وأقرع الجرس . . يتناهى إليّ صوت من الداخل يسأل : «من الطارق ؟» فأقرع الجرس ثانية وثالثة . . . كنت عطشان وبحاجة للبكاء . . . هربت الجملة التي يفترض أنها مفتاح السر بيني وبين مسعود وسمعت نفسي أردّد بحرقة :

«أنا عبد الرحمن يا مسعود ، افتح لقد هربت الفرس الشقراء» .

أطلّ مسعود من نافذة فوق الباب ورآني أنتظر مع رفيقي في عتمة الليل الربيعيّ ، هبط مسرعاً وفتح الباب ثم قادنا إلى الداخل . في صالة البيت رأيت وجه رفيقي الذي كان مسؤولاً عنا في السجن . . . رجل حازم . . دائم الابتسامة . . . ينتمي إلى أحد بلدان الشمال الأفريقي ، عرف جيداً كيف يعتني بمخابئنا ، ونشراتنا ، وكتبنا بحيطة وحذر . يوم قبض علينا استطاع رغم صعوبة الظروف أن يظل على صلة معنا في السجن ليطلعنا على آخر التطوّرات . لكن مسعود أو إمكانياته لم تصمد أمام الحصار الذي فرض علينا . هل كان الحصار فعلاً أم أن مسعود تعب من ملاحقة أخبارنا ؟ . . لا بأس . . إن النتيجة واحدة . . النتيجة واحدة» .

يرتجف عبد الرحمن كأن رعشة حمى أصابته . تبدو له الذكريات وكأنها تمشي طبقات كثيرة على شفتيه . . . يدرك أنه أضاع أشياء كثيرة . . . بدت له الحياة مملّة كالمطر بلا ماء . . . وكالحرب بلا صراخ وقتلى . . . يشعل النور في الغرفة ويقفز من سريره . . . يتأمل وجهه في المرآة . . . يتأمّله جيّداً ، فتجتاحه الرغبة في أن يحطّم المرآة ليتجنّب رؤية الهزيمة في عينيه ، لكنه يرفع كتفيه وكأنه يمضي تحت غيوم مرفوعة في سماء بليدة كالأشرعة على رؤوس الحراب . . . يدرك أنه يقف اليوم وحيداً أمام العالم ليشقّ طريقه بعيداً عن الرفاق والحزب أحسّ أن شهوته لحبيبة بعيدة تتمايل في داخله كالنخيل . . . تتموّج كالبحر . . . تمنّى أن يرى نادية في تلك اللحظة . . . تمنّى أن يعانقها ويقول لها : «لم نهزم بعد أيتها الجميلة ، لم نهزم بعد ، فانتظري أن تطلّ الرايات من مكان ما . . . تمنّى أن يذهب إليها الآن فيحكي كل شيء ولينته العالم بعد ذلك . أدرك عندما وصلت أفكاره إلى هذا المنعطف أن ثمة ما يريد أن ينساه أو يهرب منه . هناك من الذكريات ما يريد أن ينساه . . . وأن يمحوه من سجلّ الذاكرة ، ولكن عبثاً الماضي يلاحقه أينما ذهب . . الماضي سكين جارحة . . أهي سيف الخيبة أم الهزيمة؟!

«تلك الليلة التي قررت فيها أن تهرب من السجن ، كانت الليلة الثالثة من ليالي عيد الأضحى . . . وكانت الخطة تقتضي أن يساعدكم بعض الحرس ممن استطاع رفاقكم إقناعهم على التسلل ليلاً إلى الشاطىء حيث ينتظركم مركب صغير في عرض الخليج . فالسجن كان عبارة عن شبه جزيرة وسط مياه الخليج الراكدة ، وفعلاً تمّ كل شيء كما رسم لكن عندما وصلتم إلى الباب الخارجي حدثت المفاجأة . أحد الحراس لم يكن على علم بالخطّة فحاول اعتراضكم لم يكن أمامكم إلا أن تصطدموا معه . ووضعكم ذلك الحارس أمام خيار صعب . . . كان الخيار يقضي إما قتله وإما كمّ فمه وشدّ وثاقه . . . وبعد ذلك ماذا فعلت يا عبد الرحمن هل قتلته أم أحكمت وثاقه ؟ .

تسألك نادية يوم زرتها في بيتها ذات يوم وأنت تروي لها قصة الهرب من السجن : «وهل قتلت الحارس يا عبد الرحمن ؟» كان سؤالها يحمل في حروفه مرارة هذه الأرض . . تسألك بينما كانت عيناها السوداوان مسكونتين بخيال تاريخ هائج . . . خفت أن ينقلب خيالها ضدك . . . خفت لأن خيالها هو أحد العناصر الرئيسية التي تدفعكم للإعجاب بها . . . لم تكن خائفاً من الإدانة بالخطأ أو الخطيئة فأنت لا تخشى الخطيئة ، لقد تعوّدت منذ زمن بعيد أن الأخلاق والمواقف الصحيحة والخطيئة أيضاً ، توجه الإنسان نحو ما يحمله من عظمة . . . هذا ليس مهماً على كل حال» .

ينظر عبد الرحمن إلى النافذة ويتأمّل خيوط الصباح الأولى تنعكس فوق الثلج ، هل سقط الثلج دون أن يدري ؟ الثلج ما زال يتساقط ، وها هو يعود إلى عصور مظلمة في تاريخه . . . عصور تبدو اليوم سحيقة البعد . . . ساعة حاول الحارس أن يطلق عليه النار في مدخل السجن ، اندفع نحوه وأمسك بيده . . . كانت معجزة أن يستطيع السيطرة عليه قبل إطلاق النار . سيطر على البندقية والحارس . . فنظر إليه الرجل بعينين فزعتين يطل منهما الرجاء والبؤس «لا تقتلني» قال الحارس: «لا تقتلني

فلذيّ ثلاثة أطفال وأم عجوز مشلولة ليس لها في العالم سواي». آنئذ ألقى عبد الرحمن بالبندقية جانباً وقرّر أن يعود إلى السجن مرّة أخرى . . . أية لحظة جنون كانت ؟

فكّر في تلك اللحظة بكل فقراء وطنه . . . الحمالون . . . العمال . . . العاهرات . . . خاف الموت . . . خاف أن يموت ولم يبدّد خوفه ما تذكره من أفكار عن الموت «الموت ولادة لكل شيء» بل «هو الكلمة والذكرى وصمت الأشياء» .

في تلك الليلة ، هدرت مياه الخليج ، وكان هديرها انعكاسات زرقاء لليل أبديّ في تلك البقعة من الأرض . . . بدت له المصابيح في دروب الجزيرة كما كانت تبدو له من قبل في صوفيا والبتراء يوم كان حراً وحالماً ! وضع البندقية جانباً وقال للحارس : «لن أقتلك فافعل ما شئت» . وقبل أن يتمّ جملته كان الحارس قد استعاد وضعه فأمسك بالبندقيّة ووجّها إلى صدر عبد الرحمن طالباً إليه العودة إلى السجن . . . لم يستطع عبد الرحمن أن يفعل شيئاً آخر غير الامتثال ، وقبل أن يخطو خطوة واحدة في طريق العودة إلى الزنزانة استطاع رفيقاه السيطرة على الحارس . . . مرّت ثوان لم يكن بمقدرة عبد الرحمن أن يدرك ما يمكن عمله حين صرخ عليه أحد رفيقيه : «خذ البندقية واقتله يا عبد الرحمن ، لأنه سيقتلنا لو نجا» . وبشكل آلي أمسك عبد الرحمن بالبندقية وأفرغها في صدر الحارس مغمض العينين حتى لا يصطدم بنظرات الرجاء التي أطلقها عليه في المرة الأولى . تناثر دم الحارس على ثياب عبد الرحمن . . . فسرت رعشة باردة في جسده . . . مشى في عتمة الفجر باتجاه الشاطىء حيث كان ينتظرهم مركب صغير استطاع أن يقودهم بعيداً عن السجن ، ومن هناك تركوا البلاد . . وظلّت عينا الحارس منذ ذلك الوقت تلاحقانه ، فيشعر بنفسه مطارداً في كل مكان بينما يبدو له ماضيه كله كالأسطورة . . . وكل ما بقي من حقيقة هو عينا الحارس القتيل . . .

ينظر عبد الرحمن في ذلك الفجر إلى باريس يغطّيها الثلج . . . ينظر ويتذكّر تلك الليلة التي قاده فيها قلقه إلى بيت نادية . . . لم يفكر أبداً كيف اتّجه إليها وكيف وصل بيتها ، وأي طريق عبر ؟ وجد نفسه مسمّراً أمام الباب يقرع الجرس بعد منتصف الليل . فتحت نادية الباب فدهشت لرؤياه لكنها أفسحت له الطريق بصمت ليدخل . جلست أمامه وهي ترتدي قميص نوم قطنياً يستر جسدها ، بينما تناثر ليل شعرها حول وجه نقيّ خالٍ من الأصباغ . . . هادىء ومطمئن . . . تحدّثت فطافت بالهزائم والقلق والانتصارات . . . تحدّثت عن بيروت المدلّهة في حبّها . . . كانت تبدو تلك الليلة كأسيرة في أغلال لكنها أسيرة استعصت على الأسر تقفز من زمن إلى زمن . . . من مدينة إلى مدينة . . . من حرب إلى حرب . . . كان يستمع صامتاً عندما توقّفت عن الحديث فجأة لتسأله : (وأنت ، ما الذي جاء بك إليّ ؟) . لم يجبها على سؤالها لأنه لم يكن يملك إجابة محدّدة .

كانت تعرف . . . وكان عبد الرحمن يعرف كما يعرف الجميع أن نادية لا تقصد بصفتها أنثى . . . بل لم يعد هذا الوجود الأنثويّ المجرّد يثير في أذهانهم تلك الشهوات الساذجة إلى جسد امرأة . . . العلاقة معها شيء آخر . . . دخول في عالم من الرؤى . . . والقدر . . . والجنون . . . والحلم . . . حاول أن يقول شيئاً فتلعثم وهي تنظر إليه بتركيز خارق . . . مرت ثوان قبل أن يجد نفسه غارقاً في نحيب حادّ تتطاير منه الكلمات بدون هدف .

وروى لها كل شيء . . . قصة هربه من السجن . . . قصة الحارس القتيل . . . قصة الحزب الذي شرّده . كانت نادية تعرف ذلك منذ زمن بعيد .

قالت له : «إنني أفهمك يا عبد الرحمن ، نحن صديقان ، واحدنا بحاجة إلى الآخر» . وقفت ، اتّجهت إلى زاوية الغرفة حيث موقد غازي عتيق تعدّ فنجاناً من الشاي . . . كان طرف وجهها يبدو في الضوء

المنعكس من مصباح معلّق بالسقف عالماً من السحر . . . عادت تحمل فنجان الشاي وقدّمته لعبد الرحمن ثم احتلت مكانها قبالته على الأريكة المخملية . . . هدأ روعه ، وفي صوت معذّب آتٍ من أعماق الغربة والمنفى حكى لها مرة أخرى قصة هربه من السجن . . . حكى لها قصة الحارس القتيل . وظلت تستمع إليه صامتة . لم تلق بكلمات يفهم منها التبرير أو النصح . . . وسمع صوتها ينساب إليه بهدوء :

«انسَ قصّة القتل يا عبد الرحمن . . . عليك أن تنسى . . . لقد جعلوا منا قَتَلَة بشكل أو بآخر . . . انسَ موضوع الحارس وتذكر أنك لو لم تقتله لقتلك ورفاقك دون أن يعي معنى موتكم» .

نهضت من مقعدها واتجهت إليه ، احتضنته بحنان ، ونشرت عليه عطر جسدها . . . لم يعد يذكر بعد ذلك إذا كان ما نفذ إلى شرايينه هو رائحة عطر جسدها أم رائحة الحياة . . . أم رائحة الأزهار الصحراوية التي وجدها في الطريق إلى «إرم» عبر الصحراء ؟. ورغم ما فعلته ظلت نادية بعيدة عنه . . . انسحبت إلى مقعدها مرة أخرى ثم استمرّت متسائلة : «وهل من أخبار جديدة عن رفاقك ؟» . كان عبد الرحمن يدرك أن نادية تخاتله عن اللحظة ، فنهض من مقعده واتّجه إليها ، جلس راكعاً على ركبتيه أمامها ، وأمسك بكفيها ثم هزّها قائلاً : «نادية ! هل هناك فائدة من كل ما فعلناه ؟» . ظلّت صامتة فهزّها بعنف : «نادية ! تحوّل كل أصدقائك إلى قَتَلَة في بيروت . أما من بقي منهم بعيداً عن ساحة القتل فهو مقتول حياً» . ابتسمت تلك الابتسامة الهادئة وأجابته : «لن يكون للكلمة معنى يا عبد الرحمن ما دام هناك أطفال يموتون في بيروت . . . إن الشيطان يكتسح العالم» .

نهضت فتناثر حولها سحرها الطاغي . . . سمعها تقول كأنها تحدّث نفسها . «لماذا يجب أن نبحث عن معنى الحياة ؟ » . . وهزّت كتفيها متسائلة « كم عمر صديقتك إيرما الآن ؟» ظلّ صامتاً . وتساءل في سرّه : هل يمكن لوجود رجل وامرأة توحّدهما غرفة مغلقة أن يثير توارد أفكار

بهذه الدقة ؟ » كان يفكّر بايرما في تلك اللحظة ، ومن خلال كلمات كثيرة تناثرت في فضاء المكان استطاع أن يمسك بجملة قالتها : « لقد تركنا بلادنا أصغر مما وجدناها ، لكن النفوس كالأشياء لها حدود وقدرة على الاحتمال ، والعودة إلى النصر يا عبد الرحمن أسهل من صنعه ». ظلّت عباراتها تهزّه أياماً إثر هذا اللقاء . وأحسّ بعدها فترة من الزمن أنه أسير تلك المرأة المستحيلة . . .

غادر بيتها في الفجر . . . ولم يعد منذ ذلك الفجر يتذكّر شيئاً عن لقائه بمسعود في « إرم » بعد هربه من السجن . لأن اللقاء كما يعيه اليوم كان بارداً لا يسنده إلا بضع كلمات تشجيع ووعود بمستقبل شبيه بذلك الواقع الذي كانت عليه « إرم ». . . واقع الخوف والحصار ، نصر إعلامي في الإذاعات والصحف والتصريحات الرسمية وهزيمة حقيقية لكل المبادىء التي بنى الحكم نفسه على أساسها في ذلك البلد العربي .

وبالرغم من خيبة أمله التي أحسّها بعد لقائه برفاقه في « إرم » أمضى عبد الرحمن أياماً يلتقي « القيادة التاريخية » لحزبه في ظل هزيمة عسكرية محدّدة الأرقام والأهداف والأبعاد . . . حاول عبثاً خلال تلك اللقاءات أن يمسك بخيط المستقبل ، لكنه عجز وعجزوا عن مساعدته . . أدرك بعمق أنه عاش أسطورة . . . شك أن يكون هو نفسه أسطورة . . . كان يبحث عن القمم ولم تكن البطولة أو العظمة أمامه .

سأل كثيراً وسمع أجوبة متناقضة ، وأحسّ وهو يعيش أيامه بعد السجن في « إرم » أنه أمام جيش من الموظّفين قيل له إنهم رفاقه بعد أن خرجوا إلى العلنية . . . جيش من الموظفين الكسالى الذين يمارسون تأثيرهم في الناس عن طريق الأوامر والأوامر المضادّة . . جيش يتشدّق بالتعبيرات الماركسية الوافدة إلى « إرم » بعد الهزيمة ، تعبيرات لم تصل إلى عبد الرحمن في السجن ، وكان يعرف كيف يرفضها وهو في صوفيا لأنها نقيض حزبه (القومي) لم يكن عبد الرحمن قد زار « إرم » بعد أن

وصل الحزب فيها إلى السلطة إثر انقلاب عسكري . . ، ففي تلك المرحلة من تاريخه الشخصي كان تائهاً بين رمال صحراء النفط ، وكأنه يعدّ رفاقاً جداً من أجل المستقبل ، وقبل أن يحصل الانشقاق الذي مزّق جسد الحزب من المحيط إلى الخليج حتى وصل إلى المنافي ، كان عبد الرحمن قد دخل السجن ، وانقطعت أخبار رفاقه عنه . . . والأخبار القليلة التي وصلته هو ورفاقه الثلاثة داخل الزنزانات لم تكن تكفي لتحديد الصورة التي هي عليها الحال خارج السجن . . . وظل يحلم ويحلم حتى جاءت الهزيمة بكل فداحتها وجنونها .

عندما عرف بأخبار الهزيمة تحوّل السجن إلى جحيم . . . مساء الخامس من حزيران بكى الحراس جميعاً وبكى السجناء معهم . . تقاسموا الطعام والماء وأعقاب السجائر . . تحدّثوا عن موجة الجفاف التي تجتاح البلاد وتحرق الزرع . . . أقلعوا عن الكراهية ليوم أو يومين . . كبروا جميعاً في ظلّ الهزيمة دون أن ينتبهوا . . وعندما عادوا لينظروا خلفهم على مهل ، بعد أيام من انتهاء الحرب ، وجد السجّان نفسه سجّاناً ، والسجين داخل الزنزانة يعزّي نفسه بالانتظار ، كان عبد الرحمن يعزّي نفسه عن أخبار الهزيمة بالحلم ، فحلم أحلاماً كثيرة لا حصر لها ، وفي أحد هذه الأحلام ، وجد نفسه محمولاً على جناحي طائر يطوف به كشاهد على جثث القتلى تحت شمس سيناء ومرتفعات الجولان . واعتبر نفسه منذ ذلك التاريخ الضحية وليس الشاهد أو الجمهور ـ نعم وجد عبد الرحمن الحلّ . بانحيازه الكامل إلى جانب الضحيّة . . . هل تحوّل عبد الرحمن في السجن إلى ضحية حقاً ؟! .

لا . . . كان ينبض بالحياة وينتظر ، رغم كل شيء ، حتى كان يوم هروبه من السجن . هرب بمساعدة الحزب وقطع الصحراء سيراً على الأقدام نحو « إرم » . . . كانت « إرم » كعبته ولا يحقّ لأشجارها أن تجفّ ، ولا لنهرها الذي تغنى باسمه أن ينضب . سار تحت شمس الصحراء واسترجع كلّ ماضيه ، من الطفولة التي لم تنهض بعد من

بؤسها ، إلى الشباب المصلوب تحت أحذية شيوخ القبائل وعسكر الهاجاناه ، وما بين الطفولة والشباب ، وجد طريقه إلى الحزب . . كان الحزب في الذاكرة أماً وأباً ومستقبلاً . . .

وهكذا ظلّ في غياهب السجن ، وهكذا كبرت ذاكرته في رطوبة الزنزانات . كان وحيداً داخل الجدران الأربعة ، لكنه لم يكن كذلك . فغنّى الحلم . وفي الصباحات الكئيبة كان يدرك أن رفاقاً كثيرين يتعاطفون معه ، ويتذكرون اسمه . مثل هذه الأفكار أنقذت عبد الرحمن من سكّين الوحدة التي كادت أن ترتدّ إلى صدره فتمزق القلب النابض وتطفىء الحياة في ميدان اللاوعي والخيالات النزقة التي تطارد السجين . كان الحزب في الذاكرة داخل السجن يبدو مستودعاً للأسرار التي حمته منذ ربط مصيره بمصير رفاق مجهولين ، وقيادة تسكن في أرض ما . . . أسرار حمته من اليأس . . . أسرار رافقته ليصبح أسيراً لها .

وبعد السجن في « إرم » أمضى ليالي طويلة يرافق « مسعود » ليلتقي بالقيادات الجديدة التي قيل له إنها حلّت محل تلك القيادة البائدة التي لم تستطع فهمَ الحاضر والمستقبل ، أمضى ليالي طويلة يناقش علاقة الاشتراكية بالفرويدية ، وينازع أحاسيس ومفاهيم مثقلة بالمستقبل ، لكن المعركة أمامه لم تكن تحتاج إلى ذلك النزوع النظري . . . كانت واضحة كل الوضوح ، تتمثّل بجملة واحدة « الحرب القومية » هذه الجملة على بساطتها كانت بعيدة عن أذهان القادة الجدد . وتذكّر عبد الرحمن ذات مساء ، وهو أمام السكرتير العام الجديد للحزب ، جملة لورنس التي كتبها على باب بيته الريفي « ومن هم »؟ فردّدها عدة مرات والسكرتير العام يحاول إقناعه بالخطّ الجديد ، فجأة توقّف عبد الرحمن عن النقاش ليسأل محدّثه :

ـ « وما رأي الرفيق المؤسس في تطوّرنا ؟!» .

لم يكن يتوقّع أن تصل ثورة محدّثه إلى أقصى مداها فراح يردّد بغضب عاصف :

« وما علاقة الرفيق المؤسس بتطور الحزب ؟ لقد أدّى دوره وانتهى وأصبح ما قاله شيئاً من متاع التخلّف ».

أخطأ عبد الرحمن خطيئته الثانية فقال :

« لقد كان بليخانوف والمنشفيك ماركسيين وثوريين ، لكنهم عندما انفصلوا عن الجماهير انتهى بهم الأمر إلى حمل السلاح ضدالثورة ».

كانت هذه الجمل بداية القطيعة بينه وبين الحزب و« سقط » كما سقط من قبله مئات المناضلين الذين رفضوا « استيعاب » الجديد .

في ذلك اليوم البعيد ، نهض عبد الرحمن من مقعده أمام السكرتير العام للحزب وخرج برفقة مسعود ليجد قرار فصله في مكتب السكرتارية المجاورة لمكتب الزعيم . وفي لحظة واحدة انتهى كل شيء ، ووجد نفسه من جديد أمام العالم وحيداً . وهكذا تقاذفته رياح المنفى والرحيل حتى وصل إلى باريس .

وها هو في باريس ، وحيداً كشجرة مقطوعة من الصخر . . . ها هو يعيش بعيداً عن كل شيء . . . عن الوطن البديل . . . عن الحزب الذي أصبح مِزقاً وهزائم .

ها هو يتنقل بين الفراغ والفراغ ، ولولا مجموعة أصدقائه في مقهى « كلوزري دوليلي » لانتهت أمور كثيرة .

لا شيء تغيّر . . . لا شيء قابل للتغيير .

هكذا يبدو مقهى « كلوزري دوليلي » على زاوية شارع مونبرناس . بينما يجري تعديل طفيف في أرض بعيدة عن هذا المكان . . . يجري اجتثاث شعب من تاريخه واقتلاع ذاكرة أمة . القتلة هم القتلة . منذ ربع قرن ونيّف . . . يجري اجتياح مدينة عربية طالما مدّت من جسدها جسراً ليعبر عليه أمثال نادية ، وفاضل ، وعبد الرحمن ، والأخضر .

لا شيء تغير . . . لا شيء قابل للتغيير . . .

هكذا تردّد السيدة مارلين وراء البار وهي تستقبل زبائن بداية ليلة جديدة وتقصّ على بعضهم شيئاً من تاريخها . . . تختلط كلمات زبائنها بضجّة الكؤوس . . . الظلام خفيف يتسرب إلى الزوايا ينذر بأن ليلاً جديداً قد أقبل . بعد ساعة على الأقل من هذه البداية الأولى للمساء الجديد ، سوف يأتون ليحتلّوا الركن ذاته من المقهى ، وليقولوا الكلمات ذاتها ، وليشربوا الكؤوس ذاتها . لكن شيئاً ما في هذا المساء ينذر بالعاصفة : أهي أصوات الإذاعات المجنونة التي خرقت جدران المنفى ، أم إنه المطر الصيفيّ المتقطّع الذي يغسل أشجار مدينة باريس ودروبها منذ أيام . . . أم عناوين الصحف الأولى التي تتحدّث عن مدينة محاصرة بالدبابات ، والمدافع ، والتهديدات والصمت الشامل لشعوب مقهورة خاضعة لرنين أحذية العسكر ؟ .

لا شيء تغيّر في باريس سوى رحيل غالبيّة سكانها إلى المصايف ، ووفود أفواج من السّواح الأميركان واليابانيين .

كانت نادية تقطع غرفة مكتبها جيئة وذهاباً وصداع حادّ يمزّق شرايين رأسها ، فمنذ أيام ، منذ حوصرت بيروت تشعر نادية بالحصار الشخصيّ ، وبالرغم من أن تاريخ الحرب اللبنانية مليء بالمذابح المعبّرة عن تمسّك العرب بغبائهم . . . واللعب بالجثث والرؤوس المقطوعة المعلّقة على الشجر ، بالرغم من أنه لا يمرّ يوم عليها في هذا المنفى دون أن تسمع بتطوير جديد لفنّ من فنون الموت التي ابتدعها شعبها ، بالرغم من أنها أدمنت اسم بيروت وهي تراه في عناوين الصحف الأولى ، وتسمعه في نشرات الأخبار كل ساعة ، فإن شيئاً آخر يحدث اليوم هناك. رواية جديدة تبدأ ، ولن تنتهي فصولها قبل سنين لا تعرف عددها .

كل شيء قد كسر ، وكل شيء قابل اليوم للكسر .

فالحلم العربي الذي نادت به ونادى به جيلها يتمدّد كجثّة من المحيط إلى الخليج ، بينما العيون مشدودة إلى مباريات كأس العالم في مدريد ،

كان الشعب اللبناني والفلسطيني يذبح من الوريد إلى الوريد في تلك الأيام ، ونادية تزرع مكتبها جيئة وذهاباً ، عندما دخلت سكرتيرة رئيس التحرير تطلب إليها الذهاب إلى مكتبه .

ـ آنسة نادية ، الاستاذ نادر يريد أن تلتحقي به في مكتبه .

ـ اجتماع تحرير .

ـ لا . . . إنه يريد رؤيتك بمفردك .

أغلقت حقيبة يدها واتجهت إلى مكتبه . ذلك المكتب البيضاوي الذي أسَّسه صاحب المجلة التي تعمل فيها معتمداً على ذوق مهندس ديكور ياباني . لقد ملأ أركانه بقطع أثاث إيطالية ، وعلق على جدرانه ثلاث صور (للاستاذ) مختلفة . في إحداها يبدو (الأستاذ) وهو يدخّن سيجاره الفاخر كما تعوّدت نادية على رؤيته ، وفي صورة ثانية يستقبل أو يُستقبل من رئيس عربيّ ذبح نصف شعبه لأنه يرى المستقبل بصورة مغايرة لما يراها الرئيس ، وفي الصورة الثالثة ، صورة (للأستاذ) بلباس البحر إلى جانب يخته الذي كثيراً ما رأت مشاهد له في الصفحات الأخيرة من مجلّتها ، في صور « أخبار المجتمع والناس ». وعلى الجدران الأخرى تناثرت أغلفة أعداد المجلّة التي تسمح لـ « نادية » أن تستمرّ في حياتها هنا . وكعادتها ، دقّت الباب دقات خفيفة ثم دلفت إلى داخل المكتب المكيّف ، الوثير ، المريح . ها هو كعادته وراء المكتب لا يختلف منظره العام عن إحدى صوره المعلّقة على الجدار . جثّة ضخمة ، سيجار فاخر . وعيون زائغة باعتبار أن صاحبها ليس صحفياً فحسب بل هو « فنان » كما يحلو لمن حوله من المتملّقين أن يردّدوا . . . وشعرت نادية بالدوار ، أحسّت إعياءً شديداً ، فبأيّ سلاح يقاتل هذا الرجل لكي يستمر في المكان والزمان نفسهما ؟.

سمعت صوته :

ـ تفضّلي يا آنسة نادية . . تفضّلي . . .

وتفضّلت الآنسة على مقعد مقابل لمكتبه شاردة الـذهن والعينين ، ومحاصَرة بجنون اليأس ، وجنون الغربة .

سمعت صوته :

ـ لقد فكرت جيداً قبل استـدعائـك إلى هنا ، تعـرفين أننا في زمن الحرب . . . تعرفين أننا نعيش حرباً . .

ودون أن يتم « نادر » جملته رنّ جرس الهاتف فتوقف عن الكلام :

أحسّت بالحنق والحقد ، ما علاقة هذه الجثة الضخمة والحـرب ، أين هو من الحرب ؟ وأين الحرب منه ؟ منـذ بدأت الحـرب الأهلية في لبنـان لم تمس شعـرةً من رأسـه ، صحيـح أنـه ينتمي إلى أحـد طـرفي العاصمة ، وصحيح أنه يدّعي بعض الوطنية ، لكن انتماءه لا يعني شيئاً أبعد من مجموعة مقالات باهتة غبيّة تكتب من باريس عن الحرب الأهلية وهي بشكل أو آخر ليست أكثر من ترجمة رديئة جداً لما يكتبه صحفيّون فـرنسيون ذهبـوا أو عادوا من هنـاك . أما « الـوطنيـة » التي يـدّعيهـا في اجتماعات التحرير فما هي إلا بعض أدوات « النصب الإعلامي » يقبض ثمنه فيما بعد ، أو يستخدمه ستاراً للحديث في وقت لاحق عن فضائـل وحسنات الشيوخ ، وبسبب هاتين الفضيلتين : « الانتماء إلى أحد طرفي بيروت » و« بعض الوطنية » أصبح نادر « واحداً من أثرياء المهاجرين في أوروبا ، أصبح بأسلوبَي الترهيب أو الترغيب يستطيع أن يبتزّ هذا النظام أو ذاك ، تلك الشخصيـة الثريـة أو هذه . ومن هـذا « الانتماء » و« ذاك الابتـزاز » يستطيـع أن يصدر مجلة « محتـرمة » في بـاريس تتحدّث عن مشاكل ومتاعب ، وقلق تلك الجثة ، أو التابوت الذي هو وطن نـادية ، فضيلة واحدة يتمتع بها « نادر » هي : أنه كريم اليد يصل كرمه إلى حدّ السفه أحياناً . وعلى سبيل المثال لا الحصر تـذكّرت نـادية في اللحـظة التي كانت تنتظر فيهـا أو يوقف النـظر والبحث ببعض أوراق أمامـه ، ما تنـاقله المحرّرون من أنبـاء فيما بينهم ، علنـاً أو همساً ، عن استئجـاره

طائرة خاصة تقلّه من جنيف إلى باريس حتى لا يتأخر عن عيد ميلاد ابنه ، ويومها كادت نادية لا تصدق ، واعتبرت الحكاية كلها مجرّد شائعة صغيرة مسلّية يحلو دائماً للعاملين في مؤسسة أن يتندّروا بها . لكن عدم تصديقها الشائعة تحوّل إلى يقين عندما دخل عليها بعد أيام « أسعد » أحد العاملين في قسم المحاسبة ، وفي يده صورة عن (الشيك) الذي سدّدت به أجرة الطائرة. كان المبلغ يكفي لكي تعيش نادية سنتين في باريس ، يومها اجتاحتها نوبة من تلك النوبات الوقائية التي تهاجمها من حين لآخر لتحميها من هذا الزمن ، وكادت تذهب إليه في مكتبه البيضاوي لتقول له رأيها به ، لكنها تراجعت في آخر لحظة ، خوفاً من أن تفقد عملها . . عبارة « تفقد عملها » هذه هي التي جعلتها تغضّ الطرف عن فضائح كثيرة تتعلّق بالمجلة ، وبنادر شخصياً ، كانت لا تعرف أين تذهب لو تركت باريس ، فبيروت قبل الحصار ولدت محاصرة في رحم الحرب الأهلية ، والجنوب أقفل من الإسرائيليين ، والبلاد العربية من حولها . . . كل البلاد العربية ترفض اللبنانيين ، بل تعتبرهم وباء يحمل في تلافيف دماغه ودم أصحابه عدوى قاتلة ، دون أن تعرف تلك الدول جميعها بلا استثناء أن جرثومة الداء تسبح في جسدها ودمها .

آه . . . لو كانت نادية في تلك اللحظة تستطيع تدخين سيجارة وهي تنتظر « نادر » أن ينهي النظر في أوراقه ، علّ الدخان يساعدها على نسيان الأشياء ، لكن ما أن حاولت مدّ يدها إلى حقيبتها حتى اصطدمت عيناها بلوحة فوق مكتبه «الرجاء عدم التدخين» وينفث هو دخان سيجاره الفاخر، بينما نادية تتمزّق انتظاراً، ماذا يريد هذا «النادر» منها ؟ . . . وتنتظر قليلاً . . . إنه يكمل حديثه الذي بدأه ، ثم قطعه رنين الهاتف . . . سمعت كمن يسمع أو يرى في حلم صوته يردّ على طالبه :

ـ تحت أمرك يا سموّ الأمير ، لقد شرفت ونوّرت باريس . تحت أمرك أنا والمجلة والعاملون بها . . . سوف أرسل لك أفضل المحرّرين

عندي لإجراء حوار وتحقيق عن خيرك وعطاياك ، وإحسانك للفقراء في باكستان ، وتبرعاتك للمجاهدين الأفغان .

وتتسمّر لحظة صمت ثم يجيب صوت « نادر » كأنه مطرقة تهوي على رأسها :

ـ أيوه . . . إذا كنت تفضّل نادية ، فنادية تحت أمرك ، سوف أطلب إليها حالاً التوجه إلى « بلازا أتيني » مع مصوّر جيّد . معك حق إن نادية من أفضل العاملين معي . .

تسمعه ينطق اسمها فتشعر بأن هذا الاسم الذي يردّده اسم غريب عنها ، لم تعرفه من قبل . . . لم تسمع به قط . . . لم تصادفه في عمرها الذي كان مزدحماً بالموت ، والمبادىء ، والشعارات التي علمها إيّاها خالد في بيروت . . تشعر بلسعة نار في وجهها وعقلها . . . هل حقاً ستكون بإشارة أو تكليف مهذّب من هذا الجالس أمامها تحت إمرة ذلك المتسكّع في عواصم البؤس لينثر فضلات ثروته على بعض الجائعين ، لا حبّاً بالخير بل لكي تنشر الصحف والمجلات التي يموّلها أمثاله لمثل هذه الأغراض صوره وهو بين الأطفال الجائعين في أفريقيا ، والمقعدين في الولايات المتحدة ، لا لأنه ليس في لبنان ، أو المخيمات الفلسطينية مقعدون .

وضع « نادر » سماعة الهاتف واتجه إليها بكليّته ، يعلو وجهه فرح طفولي غبيّ ، نفض سيجاره في منفضة مصنوعة من الذهب الخالص المطعم بالعاج ، وها هو صوته كرصاصات موجّهة إلى رأسها هذه المرة . . . رصاصات غير طائشة كما تعودّت عليها في بيروت بل إنها تعرف طريقها الحتمي . . . نظر إليها بعيني قاتل حقيقيّ يتربّص بفريسته وقال :

ـ لا بد وأنك سمعت المخابرة الهاتفية .

هزّت نادية رأسها بالإيجاب دون أن يتحرّك في وجهها ساكن . . .

تعابير جامدة . . . عينان سوداوان شبيهتان بعيني غزال مطعون في الظهر . . . أنف شامخ لكنه تعوّد رائحة الجثث وعفونة هذا الزمن الذي تعيشه . . . ردّد « نادر » :

ـ لا بدّ أنك سمعت ما قلته ، لقد استدعيتك يا نادية لسبب آخر :

سألت : وما هو ؟.

ـ كنت أريد أن أنبّهك إلى المقالات الأخيرة التي كتبتها عن الحكم الدكتاتوري في « تشيلي ».

سألت نادية :

ـ ما هي مآخذك على تلك المقالات التي اعتمدت فيها على عدد من المراجع والشهادات الحية ، وجمعت كل ما يمكنني أن أجمعه من حقائق هنا في باريس ، فاتّصلت بمنظمة العفو الدولية . . . كما اتصلت بـ . . . .

قبل أن تكمل الجملة قاطعها « نادر » بتأفّف من يرى أمامه حيواناً استوائياً غريباً . . . يرفض أن يروّض أو يسمع :

ـ اسمعي يا نادية ، تعرفين جيداً أنني أقدر جهودك في عملك ، وتعرفين جيّداً أنني من المعجبين بكتابتك ، فأنت لست صحافية وحسب ، أنت فنانة ، لا اعتراض لديّ على ما تكتبين من حيث الشكل أو المضمون ولكن . . . .

ـ ولكن ماذا ؟

مرّت لحظات صمت ثقيلة قبل أن يأتيها صوته من جديد :

ـ باختصار يا نادية ، وبصراحة أيضاً ، ثمة اعتراض وصل إلى المجلة . . . بل لنقل ضغوط لإيقاف سلسلة مقالاتك عن الأنظمة « الفاشية » في أميركا اللاتينية .

تحفّزت للإجابة ، تقلصت عضلات وجهها وضاقت العينان السوداوان الشبيهتان بعيني غزال شارد طعن في الظهر . . . وسألته :

ـ أستاذ « نادر » منذ متى وأنت تحسب حساب ضغوط أو اعتراضات نظام كنظام (بينوشيه)؟ ما هي مصالح المجلة في أميركا اللاتينية ؟ قل لي ما هي مصالح المجلة في تشيلي ، أو السلفادور ؟ إننا لا نستطيع الكتابة عن بلادنا ، فعلى الأقل دعنا نكتب للقارىء عما يحصل في هذا العالم .

كان يوجّه نظراته شبه التائهة إليها . . . صبر حتى أتمّت ما تريد قوله . ثم جاءها صوته من جديد :

ـ نادية . . أفهمك جيّداً ولكن الاعتراضات لم تأت من « بينوشيه » أو من « السلفادور » الاعتراضات يا نادية جاءتني من دول عربيّة صديقة ، إنهم باختصار يعتبرون ما تكتبينه عن السجون والخطف ، وحوادث الاختفاء ، والفساد تلميحاً وتعريضاً غير مباشر بهم . . .

كان جفاف في حلقها ودهشة لا حدود لها تجتاحها . . . إنها لا تستطيع أن تصدّق . . . لا تستطيع . . ماذا يقول ذلك الرجل ؟ أهو الحقيقة أم انها إحدى وسائله لإجبارها على تغيير الموضوع الذي تكتب فيه ؟ وأحسّت بالضيق والكراهية لكل ما حولها ، وقبل أن تقول شيئاً عاد صوته ولكن هذه المرة كصوت غراب في قرية منفيّة على حدود صحراء مجهولة .

ـ لذلك أريد ، أو بالأحرى كنت أريد قبل أن أتلقّى هذه المكالمة من الأمير أن تذهبي إلى إسبانيا لتغطية مباريات كأس العالم، أريد أو بالأحرى كنت أريد ذلك لأسباب كثيرة أولها : أنك تتقنين الإنكليزية والفرنسية ، والإسبانية . ثانيها : أنك بحاجة إلى السفر ، فقد مضى فترة طويلة طويلة لم تسافري فيها ، وبالتالي لم تستفيدي كما يفعل زملاؤك من بدلات السفر، وأنا أعرف أنفتك وكبريائك التي تمنعك من المطالبة بزيادة راتبك . . . لكن . . .

حاولت أن تقول شيئاً فقاطعها مرة أخرى :

ـ لا تتكلّمي ، أعرف ما ستقولين لي ، أعرف أنك ستجيبين بما تعودّت أن تردّديه باستمرار : آكل ثلاث مرات في اليوم واضطر أحياناً إلى اتباع نظام غذائي حتى لا يزداد وزني ، استطيع أن أنام في غرفة صغيرة شريطة أن تتسع لجسدي ، وإذا تعذّر ذلك فأرصفة باريس وحدائقها ، وممرات المترو فيها يمكن أن تعوضني عن تلك الغرفة .

حاولت أن تقول شيئاً فقاطعها مرة أخرى :

ـ كلّ هذا صحيح ، هذه المثل والمبادىء صحيحة يا نادية ، كنت مثلك في الماضي ولم أحصد لسنوات طويلة إلا الفقر والتشرد . إن المال كرامة يا نادية . . . المال يصون كرامتك ويغنيك عن مدّ يدك إلى الناس .

حاولت أن تتكلّم فقاطعها مرة أخرى :

ـ نادية ! اسمعيني جيداً ، إنني أعتبر نفسي أخاً كبيراً لك ، أخاً مسؤولاً إلى حدّ بعيد عن فتح طريق أمامك في هذه القرية ، ألست صديقة خالد زميلي وأخي ، ألست ابنة إحدى العائلات الوطنية التي قاومت طويلاً في الجنوب ، ألست في عمر ابنتي ؟ ألسنا أبناء وطن واحد هو مسرح للعبث الدموي . وطن يحاولون جميعاً تصفية أحقادهم فيه . . . إنك مني وأنا منك فاسمعيني جيداً . . . نحن لا مستقبل لنا سوى جيوبنا أو أرصدتنا في البنوك .

ظلّت صامتة هذه المرة ، لا تريد أن تصدّق ما يقوله ، ترفض أن تصدق ما تسمعه . . . إن ما تسمعه شيءٌ من الحقيقة لكن ليس الحقيقة كلها . . . ماذا يريد منها ؟ . . ماذا يريد منها ؟ حتى اليوم استطاعت رغم غربتها ، رغم مرارة الغربة والنفي وذكريات الحرب أن تحافظ على شيئين أساسيين في توازنها : جسدها وعقلها الذي يساعدها على فهم ما يحصل فوق أرضها ووضعه في إطاره الصحيح من مسيرة تاريخ تلك المنطقة من مناطق العالم . صحيح أن هذا العقل يخونها أحياناً ، وتحاول في لقاءاتها المسائية في «كلوزري دوليلي» التي تحولت إلى ملجأ لها ، أن تعيد له

عافيته عبر الحوار مع رفاقها الأربعة ، صحيح أن رفاقهـا الأربعة ينتمـون إلى جيل خائب عاش مرحلة الصعود ثم الهبوط إلى الهـاوية لكنهم رغم يأسهم وضياعهم ما زال ثمة حلم ينبض في أجسادهم ، حلم يتخذ شكل اليـأس أحيانـاً . . . وشكل الشتـائم . . . شكل التشـرّد والحقـد ، لكن الحلم موجود وإن كان ينبض تحت ركام الرماد .

أمـا جسدهـا ، فتلك قصة أخـرى ، لقد استـطاعت أن تحمي هذا الجسد من إمكانية السقوط تحت وطأة الحاجة المادية أو الروحية ، صلّبته حتى اضطرت إلى إعادة بناء خلاياه خلال السنوات الماضية خليّة خليّة ، لكي تتخلّص من الضعف البشري ، والإنساني ، نعم رفضت أن تنساق وراء صرخات الإعجاب بجمالها في حفلات الكوكتيلات الـرسمية التي تقيمهـا السفارات العـربية أو الجـاليـة اللبنـانية الهـاربة هي وأمـوالها ، وأرصدتها ، ووطنيـتها من بيروت ، وكم حام حول هذا الجسد النـابض في تلك اللحظة بالرفض ، أثرياء وأصحاب ألقاب ، وأصحاب سمـوّ ، لكنّ نادية استعـانت بكل مـا منحته إيـاها أرض الجنـوب من قدرة على المقاومة ، استعانت بوصايا أمها التي قضت تحت ركام بيتهم الواسع إثر غارة إسرائيلية وكانت كلما ضجّت في أوصالها الحاجة إلى مال أو رفاهية زائفة ، أو رغبة عابرة بدفء إنساني تفعل ما كان يفعله والدها عندما يرى الأرض في الربيع وقد تفجّرت بألوان الخضرة والحمرة والصفرة ، وحياة ما بعد المطر . . . كانت نادية تنظر إلى جسدها في المرآة ، يغطي نصفه ذلك الشعر الأسـود الليلي الذي ورثتـه عن جدتهـا لأمها وتقـول بصوت مرتفع تردده جدران الحجرة : «أيّتها الأرض اخجلي من نفسك» .

هل كانت نادية في مقاومتها منذورة لقضية أو لوطن لا حرب أهليـة فيه ؟ أو لحب لم يأت بعد ؟ هكذا كان يتساءل صديقها عمر وهكذا كان يقول لها الأخضر !

ماذا يريد منها «نادر» باسم الوطن الواحد ، والمستقبل وعدم الحاجة للغير ، ماذا يريد هذا الضحية منها ؟!

سمعت صوته يقول لها :

- كنت أريد إرسالك إلى إسبانيا ، لكن الأمر تغيّر الآن ، فقد سمعت دون شكّ ما قلته في الهاتف . . . أريد أن تذهبي إلى الأمير في فندق «بلازا أتيني» لإجراء حديث معه عن رحلاته في شرق آسيا ، ولا بأس إذا استطعت أن ترتّبي موعداً معه لنا نحن الثلاثة على العشاء ، فالمجلة كما تعرفين بحاجة للأموال المهدورة التي ينشرها على جمعيات وهمية في أفغانستان ، وباكستان وسيريلنكا ، والفلبين ، وعبيد افريقيا . . .

أسقط في يدها ، ها هي الصورة واضحة كل الوضوح ، «نادر» يريد أن يحوّلها إلى عاهرة محترمة ، وفي أفضل الأحوال إذا حسنت نواياه ، يريد أن يحولها إلى «سمسارة» . . . يريد أن يحولها إلى امرأة أخرى لا تنتمي إلى الجرح ، لا تنتمي إلى شيء مما تربّت عليه . . . ببساطة شجرة مقطوعة الجذور لا أحد يعرف كيف ومتى تهوي ، لكن الجميع يدركون أنها ستسقط مهما طال بها الوقوف . . . أحسّت أنه لم تتوحّد الوحوش على جسد كما توحّدت في تلك اللحظات على جسدها ، شعبها يذبح في لبنان وها هو نادر يريد ذبحها هنا . . . أهي رواية لم تكتمل فصولها بعد ؟ كيف استطاعت الحرب الأهليّة أن تطوّر أدوات القتل إلى هذه الدرجة ، بل كيف استطاع النفط والأموال المهدورة أن تتحول إلى سكين وبندقية ومدفعية ، وصواريخ وأسلحة الكترونية ، وإسعاعات نووية في حالة الخجل من رؤية الدم ؟ نادر كان مثلها من قبل لكنه قتل . . . قتلته الثروة والطموح المجنون ، وعبثاً يحاول أن يربّي أولاده على «حب الوطن» أو «الانتماء إلى الأمة» كما يردّد على مسامعها في مناسبات مختلفة . . . تنظر إلى وجهه الساكن . . . إنه وجه قاتل . . . يا إلهي ! تردّد نادية بصوت منخفض أشبه بالتمتمة : «يا إلهي» .

لماذا تقلّد الضحيّة قاتلها ، لماذا ؟ . . . إنه يمهّد الطريق

لدفنها اليوم من أجل بعث امرأة أخرى لا تنتمي لشيء اللهم إلا لـرصيد في بنك ، إن صح ذلك .

شعـرت حيالـه بكراهيـة بـالغـة لكنهـا ظلت عـاجـزة عن قـول أي شيء . . . كراهية كانت من القوة بحيث كادت تدفع بها في لحظات إلى قتله بضربة من تلك المنفضة الذهبية المطعّمة بالعاج .

من أين جاءتها هذه الكراهية ؟
من أين جاءتها قوة الوحش الغامضة ؟
كيف تحـوّلت خلال لحـظات من امرأة جميلة تحمـل كـل مبـادىء الأرض في رأسها إلى قاتلة ؟
«آه . . . نادية . . . » .
سمعت صوتاً في فضاء المكتب البيضاوي يناديها :

«نـاديـة . . . صبـراً يـا نـاديـة ! فنـادر مثلك ضحيّـة تلك الحـرب الملعـونة . عليـك أن تدركي أن آفتي المـال والحـرب قـد أطلقتـا كـل غرائزه ، وغرائز أمثاله ، محت حدود التمييز بين مـا هو إنسـانيّ وما هـو وحشيّ ، وعند ذلك يا نادية أصبح كل شيء جائزاً ، كل قيمة مستباحة . إن الـذين حافـظوا مثلك على ما هـو إنسانيّ في الحيـاة أصبحوا العـدوّ السهل للجميع ـ أصبحوا الضحية التي تتفق كلّ الأطراف على إبادتها بل ربما تسهّل إبادتها شروط الانتقال إلى مرحلة جديدة يكون فيها الخضوع تاماً كاملاً . ولكن أيّ خضوع ؟ أية مرحلة جديدة ؟

أصبح الصوت أكثر وضوحاً في المكتب البيضاوي ، علا على صوت نادر ، ودخان سيجاره وأسى نادية .

«ليس من الضروري أن يكون السؤال والجواب واضحين لسحق ما تبقّى مما هو إنسانيّ فينا ، فليس ثمة مرجع وطني أو قومي ، أو أخلاقي ، أو إنسـاني . . . ليس من رسـالـة . . . ليس من مشـروع تـاريخي . . . والفوضى تغرق كل شيء» .

أحسَّت نادية أنها محاصرة في هذا العالم . . . بل غـريبة . . . ولم تَعِ حدّة غربتها ومنفاها كما تعيه اليوم . . . وشعرت أن ظهرها يستند إلى جدار مقبرة «بيير لاشيز» الذي تراه كـل صباح وهي متجهـة إلى بيتها في الحي العشرين ، ظهرها يستند إلى حائط المقبرة وفوهات بنادق الجيش الملكي موجّهة إليها . . أحسَّت أنّه من العبث أن تطمئنّ في هذه الغربة إلى شيء ما دام الوطن محاصراً ومساحته تحولت إلى جنون والجنـون تحول إلى قتل .

أحسّت نادية عبر الحصار الذي يلفّ ذراعه على عنقها أنه لم تتوحّد وسائل قتـل ، وإرادات قتل على جسـد إنسان كمـا توحّـدت على جسد الإنسان العربيّ . وتذكّرت بألم ما يردّده الأخضر عندما يشتـدّ به السكـر «أيّها الأصدقاء ! لقد قالها الشاعر منذ زمن ، منذ الجاهلية : من لم يمت بالسيف مات بغيره» ، وإذا كانت المعادلة بهذا الشكل فلماذا هربت نادية من الرصاص الطائش في بيروت . . . لماذا هربت من الموت ؟

عندما لاحظ نادر صمتها الذي طال أكثر مما يجب قال لها :

ـ لا بأس أستطيع أن أعتمد عليك بالنسبة لهذا المساء .

هـزّت رأسها بـأسى وهي تسجّل على ورقـة بعض كلمات . . . لن تستطيع أن تجيبه بشيء لأنها أصبحت مزدحمة بـالمذابـح . . . مشغولـة بمنظر نهر الدم يجري من عـروقها ، وعـروق أمثالهـا ، ممن استطاعـوا الصمود في وجه العـاصفة ولـو لسنوات ، كـانتناديـة في تلك اللحظة تسجّل بعض العبارات العادية على الورقة وهي في حالة غياب عن دمها ، وبقايا جسدها ، وكامل حلمها ، كانت الكلمات على الورقة تقول :

«السيد رئيس تحرير مجلة العالم العربي

نظراً لعجزي عن تأدية عملي وفقـاً لما تـراه المجلة أرجو أن تقبـل استقالتي ، وشكراً» .

لم تكن قادرة على أن تفعل أكثر من هذا . . . لا . . . لم تكن قادرة

على الصراخ أكثر كان جسدها وعقلها يولولان كالنساء الثكالى ، لم تكن تستطيع أن تفعل غير شيء واحد هو : هو أن تحلم بمستقبل ربما لن تراه هي . . . أن تعيش هذا المستقبل رغم قساوة الحاضر . . . أن تعيشه حتى الموت لأن أمثالها لا يملكون خياراً آخر . . .

وتذكرت وجه عمر وهو يودّعها راحلاً إلى الصحراء الغربية فنهضت بصمت . . . تأملت المكتب البيضاوي حولها . . . تأمّلت « نادراً » ذا الكرش المنتفخ . نادر الذي يكاد ينفق ربع ثروته في المصحّات المختصة بإنقاص الوزن . . . تأملت رأسه الفارغ دون شك ، وخافت أن يستيقظ القاتل فيها مرة أخرى فألقت بالورقة على مكتبه ، ودون كلمة انسحبت . . . عبرت صالة التحرير بسرعة لفتت أنظار زملائها جميعاً . كاد أسعد الطيّب أن يستوقفها لكنها اتجهت إلى الباب ، هبطت درجات السلم ثلاثاً ثلاثاً من دون انتظار المصعد . ووجدت نفسها في الطريق تجري بجنون فتصطدم بالمارّة ، وأعمدة النور ، وبقايا أحلامها ، تصطدم بجثث أصدقائها جميعاً الذين قتلوا أو اغتيلوا في بيروت بفعل الرصاص أو الرصاص الطائش . أما هي «نادية محمد الإبراهيمي » المغتالة قبل لحظات بلغة شديدة الحماسة لأجل مستقبلها فإنها لم تمت بعد وإن كان الجرح بليغاً .

لا تدري كيف وصلت إلى مقهى «كلوزري دوليلي» ، كل شيء كان في مكانه ، مارلين خلف البار والزبائن ينتشرون في الزوايا . . . وقفص السمك الحيّ ذو الزهور الاصطناعية هناك فوق جدار حجري نصفيّ يفصل ما بين صالتي المقهى والمائدة التي اعتادت أن تلتقي ورفاقها حولها كل مساء . . . كان صوتاً أقوى منها يصرخ في فضاء المكان : «لم تتحوّلي إلى جثة يا نادية» . . . وكانت مشاعر متباينة تجتاحها . . . مشاعر فرح ، وحزن ، وألم وخيبة ، لكن ما أضعف هذه المشاعر أمام وحدة العالم عند العودة من الجحيم . . . أمام اليقين بأن العالم ـ أكثر من

البشر ـ لا يمكن أن يكون غيره . . يقين يفرضه عليها في تلك اللحظة إحساسها بأنها شجرة مقطوعة الجذور . . . لا . . . ليست كذلك .

فأوزريس لم تيأس بعد أن قطَّعوا جثة حبيبها وأودعوا قطعه في مركب . . . سوف تعود أوزريس . . . وبالحلم إياه في دورتها الأبدية . سوف تعود لتتنزّه على ظهر مركب قادم من «بيبلوس» بينما يضحك القمر من خلال السحاب فوق النيل ، كما كان يضحك عندما وقف رجل وحيد في ساحة من ساحات الإسكندرية ليعلن صموده دون أن يكون وراءه إلا شعب فقير .

اتّجهت إلى المائدة إيّاها بصمت شبيه بالإعصار . . . شعرها الأسود يتدلّى على ظهرها في ضفيرة بائسة ، وليس أمامها إلا الفائض من الأيام المستهلكة . صحيح أنها تآلفت مع باريس لكنّ هذه الإلفة جاءت متأخرة ، وبعد عذاب طويل . . . من وراء زجاج المقهى لمحت رصيف مونبرناس المغطّى بحبات المطر . كانت تبدو للمارّة وكأنها تنظر في البعيد . وفي الواقع كانت نادية في تلك اللحظة تنظر إلى الموت بسخرية وبسمة غامضة يتبدّى فيها سرّ الإنسان . لم تعد الحركة المسائية من حولها غير نبض مرتعش لكائنات على حافة الموت . . . أصبحت نادية تفكر بالموت . . . الموت الذي هربت منه في بيروت ، الموت الذي نسيته في باريس لكنه يبدو اليوم حاضراً كل الحضور في هذه المساحة من العالم . . . ما كشفه لها اليوم حديث نادر رهيب في قسوته . . . ما قاله بهدوء ودون انفعال كان ينفي كل شيء . . . كل ما اصطلحنا على تسميته بالقيم . . . كل ما نراه نظرياً القوانين الطبيعية لمسيرة إنسان عاقل . هل وصل التخريب إلى داخل كل فرد منا . بهذه الطريقة ، إذن ، ويطرح السؤال نفسه عليها : «لماذا هاجرت من بيروت يا نادية» ؟

مرّ بها نادل المقهى فأومأت بذراعها له كي تطلب شيئاً تشربه ، ولمحت ذراعها اليمنى في الهواء كأنها تلمحها للمرة الأولى . . . إنها

تملك ذراعاً . . . إنها تملك أشياء كثيرة تساعدها على العيش بعيداً عن نظريات «نادر» ، قالت للنادل الذي استجاب لإشارتها .

ـ كأس ويسكي يا برنار .

تأمّلها كأنه لا يسمع شيئاً مما تقول ، فهي المرة الأولى التي تطلب فيها لنفسها كأس ويسكي أو أي شيء من الكحول . لقد اعتادوا عليها تأتي وحيدة أو برفقة زملائها إلى هذا الركن من مقهى «كلوزري دوليلي» فتقضي معظم أمسياتها في النقاش والجدل بلغة غريبة . . . إنها تحتل المائدة نفسها التي احتلّها «بول إيلوار» من قبل . وبعد عدة زيارات للمقهى أصبح وجهها ووجوه أصدقائها مألوفة . ثم تحولت إلى زبون دائم تعرف كلّ العاملين كما يعرفونها ، تعرف أخبارهم عندما يكونون بعيدين عن المقهى ويعرفون أخبارها وأخبار أصدقائها ، المقهى تحوّل بالنسبة إليها ولأصدقائها الأربعة إلى وطن مؤقت يعودون إليه كل يوم . . .

حمل برنار كأس الويسكي ووضعها أمامها ثم انحنى قائلاً :

ـ لماذا هذا الحزن يا سيدة نادية ؟ هل فقدت عزيزاً ؟

رفعت إليه عينيها ، كان ما تحتاجه في تلك اللحظة صوتاً إنسانياً ما يأتيها من أيّ مكان ، ليسألها : أي سؤال . . . هزّت رأسها بالنفي فتماوج ليل شعرها الساحر يختلط ببداية الليل في المقهى ورفعت الكأس لتفرغها في فمها لكن قبل أن تقترب الكأس من شفتيها توقفت . . . جمدت يدها على الكأس وتنبهت أعصابها . . . أحسّت بالصحو المطلق . . . قالت لنفسها وهي تلمح شبح «الأخضر» يجتاز عتبة الباب : «هذه المرحلة يا نادية لا تقاوم بالسكر ، إنّك تحتاجين إلى قمّة صحوك كي تقاومي السقوط» . عندما كان الأخضر ينحني على رأسها ليقبّله كما تعوّد في كل مرة يلتقيها كانت نادية تحسّ أن أنوار المصابيح في الشارع تصبح أكثر ضياء ، وأن وجه الأخضر أكثر وضوحاً ، وأن عشباً بلون الحب ينبت على أرض المقهى وجدرانه .

ـ إنك هنا باكراً على غير عادتك !!

قال الأخضر وهو يجرّ كرسياً ويلقي بجسده الثقيل عليه بينما تصاعدت من بين شفتيه شتائم كثيرة بحقّ هذا العالم . . . وأولاد الـ . . . والأمة من محيطها إلى خليجها . بعد أن أفرغ ما في جعبته من الشتائم ونادية تتأمله ضاحكة قالت له بمنتهى البرود :

ـ استقلت من عملي في المجلّة .

صعق وعدل من جلسته ، قال مستفسراً ، متهكماً :

ـ استقلت يا مدام «داسو» [1] من عملك ؟ ألم تعودي بحاجة إلى العمل . . . ولماذا كانت الاستقالة ؟

قالت نادية دون أن يفارقها هدوؤها :

ـ كان يجب أن أستقيل ، لم أعد أستطيع العمل مع نادر .

قال الأخضر :

ـ ألا تعتقدين أنك تحمّلين الأمور أكثر مما تحتمل ؟ ألا تظنّين السوء بنادر ؟

روت نادية القصة وكانت تتوقّف بين جملة وجملة لتسحب نفساً من سيجارتها المعلّقة بين الشفتين . . . تروي قصة حوارها الأخير مع نادر دون ألم أو استغراب أو احتجاج . . . صوت نحاسي متناغم الوقع . . . وعينان سوداوان محمّلتان بما هو أفظع من قصة الصفقة والاستقالة . . . عينان محمّلتان ببيروت . . . عينان مترعتان بالتعب ، والهزائم ، والحروب . عينان مترعتان بمرض قاسٍ وقاتل : إنه الغربة .

الساعة تقترب من الثامنة والنصف ، ويدخل عبد الرحمن إلى المقهى متجهاً إلى الركن حيث نادية والأخضر . كان عبد الرحمن يبدو كعادته كأنه لم ينم طيلة الليلة الماضية بل لم ينم منذ سنوات ، ووضع

(١) داسو صاحب مصانع طائرات الميراج وأغنى أغنياء فرنسا .

مجموعة الصحف على المائدة وذهب باتجاه البار ليلقي التحية على مارلين التي تتربّع هناك ، تتأمّل شارع مونبرناس الذي بدأ يغرق في الليل، صبّت له سيدة البار كأس براندي فراح يحتسيه بهدوء ويتابع عنكبوتاً على الجدار يقطع المسافة ما بين زجاجات المشروب وسقف المقهى بتأنّ وهدوء . فكر في تلك اللحظة بحزبه الذي انتهى ممزّقاً إلى مزق وشيع وهزائم ، ولكن لماذا تذكر الحزب وهو يرى العنكبوت ؟ وألحّ عليه السؤال : ما هو مصير مجموعة «عابد» ؟ تذكّر أن آخر نشرة إخبارية لإذاعة (لندن) باللغة العربية قالت : «إن الأخبار في عابد لا تزال غامضة ، ولا أحد يدري شيئاً عن مصير مجموعة الشباب الذين قرّروا الموت» .

أخذ سيجارة وأشعلها ، نفث دخانها في فضاء المقهى .

«بماذا تحلمين يا سيدة مارلين ؟»

تنبّهت إلى سؤاله الذي أيقظها من سحر موسيقى موزارت التي تبثّها إحدى الإذاعات الخاصة .

ـ آه . . . ماذا قلت يا سيد عبد الرحمن ؟

ردّد :

ـ كنت أسألك بماذا تحلمين ؟

ضحكت ضحكة نحاسية يدركها كل زبائن مقهى «كلوزري دوليلي» :

ـ أحلم بعودة الديغولية .

انتقلت قهقهتها النحاسية إلى عبد الرحمن :

ـ وما شأنك بذلك ؟ البار سيظل باراً ، والمقهى مقهى والرصيف رصيفاً ؟

ـ لا ، كلامك ليس صحيحاً فالبار سيظل باراً، لكن الزبائن سيتغيّرون والمقهى سيظل مقهى ولكن رائحة القهوة ستختلف، والرصيف يظل رصيفاً لكن المارّة فوقه آخرون .

تأمل عبد الرحمن وجه مارلين الأبيض الممتلىء . . . وجه هاجمته السنون وتركت فيه آثارها لكن صاحبته كانت تتمتع دون شك بسحر فائق في يوم من الأيام . . . وظلّ عبد الرحمن يتأمّل وجهها بصمت :

ـ وأنت يا عبد الرحمن ، تبدو كأنك لم تنم منذ زمن بعيد ؟

ضحك عبد الرحمن مشيراً للنادل أن يملأ كأسه .

ـ منذ زمن بعيد يا سيدة مارلين . هل تعرفين سرّ ما حصل في عابد ؟

ـ لا . . . لا أعرف شيئاً . ما أعرفه أصبح ملكاً لكم جميعاً . . . تاريخ المقهى . . . وأسماء زبائنه . . . ساعة القدوم والانصراف . . . وبعض التفاصيل الأخرى .

ـ نحن شبيهان في ذلك على الأقل .

ونظر حوله إلى الزبائن القليلين الذين قدموا مع بداية ذلك المساء . . . شعراء هامشيون . . بعض الكتّاب المعروفين . . . مجموعة طالبات يبدو عليهن تعب يوم طويل .

ـ متى قرّرت التفرّغ للعمل في هذا المقهى ؟

ـ عبد الرحمن ، لا وقت لديّ لرواية قصّة حياتي . . . لقد سمعتها أكثر من مرة .

ـ ولكنني بحاجة لأن أسمع . فكل شيء يتغير ألا تلاحظين ذلك ؟

ـ هناك ثوابت يا عبد الرحمن . مثلاً . . . حرب التحرير . . . احتلال الألمان لباريس . . . عودة ديغول منتصراً .

ـ ومن هو آخر رجل أحببته ؟

ـ كان ذلك قبل ثلاثين سنة .

وفرقعت ضحكتها في المكان ثم التفتت صوب الجدار وأشارت إلى صورة «الجنرال» :

ـ إنه الجنرال .

عندما كانت مارلين تتحدّث عن ديغول ، كانت تدعوه بالجنرال ،

تماماً كما يفعل أخلص خلصائه من رجال السياسة . . . حديثها عنه يمتزج بذلك العشق الخفيّ لرجل لم تعرف رائحة جسده . . . رجل اعتبرت ما فعله مبرّراً لوجودها من جديد .

ـ ولماذا الجنرال يا سيدة مارلين ؟

ـ أوه لا . . . لا . . . ماذا دهاك يا عبد الرحمن ؟ لأن الجنرال هو من حرَّر باريس وحوّلني من «عاهرة» إلى «سيدة حانة» .

ـ هل أنت ضد العاهرات ؟

ـ بالتأكيد . . .

قالت الكلمة بشيء من التردّد متخلّية عن تحفظها ، ثم استمرت في الحديث كأنها تخاطب نفسها :

«كنت أعمل على أرصفة البيغال عندما جاءني جنرال ألماني يريد اصطحابي إلى أحد الفنادق الرخيصة الكثيرة في الحيّ . . . رفضت . . . لم ينفع رفضي . . . جرّني من يدي بقوة بينما تصاعدت من حولنا قهقهات الجنود الألمان . بعد دقائق وجدت نفسي وحيدة معه في حجرة تقع في الدور الرابع ، تطلّ من جهة على شارع سان دنيس ، ومن جهة أخرى على حيٍ مونمارتر . . . حاول اغتصابي ، لكنني استطعت في آخر لحظة أن أنقضّ عليه بلمبة كهربائية كانت إلى جانب السرير . . .» .

وصمتت ،

وانتظر عبد الرحمن أن تتمّ روايتها . كان قد سمعها للمرة الألف منذ تعوّد المجيء إلى المقهى ، في كل مرة ترويها مارلين بشكل مختلف ، وفي كل مرة يطرح هو عليها مئات الأسئلة التفصيلية . . . قال عبد الرحمن وهو يحتسي آخر قطرة براندي في كأسه الثانية :

ـ ولماذا قتلته يا سيدة مارلين ؟ ألم يكن مستعداً للدفع ؟

أشعلت السيدة سيجارتها ونفثت دخانها في الهواء . . . قالت كأنها تحدّث نفسها :

ـ رأيت من النافذة كنيسة القلب المقدس فوق قمة مونمارتر .

قال عبد الرحمن :

ـ لا أعتقد أنك لم تلحظي وجودها من قبل .

ـ الأمور مختلفة عندما يكون الزبائن فرنسيين .

ثم استدركت :

ـ أقصد عندما لا يكونون محتلِّين .

ـ ولكنكم قبلتم وجود الألمان دون أي مقاومة لإنقاذ باريس ؟

ـ أوه . . . لا . . . أوه . . . .

ـ هذه حقيقة يا مارلين تذكّري بيتان . . . وحكومة فيشي .

نفثت الهواء من فمها بطريقة تدلّ عن عدم الرضى :

ـ وما علاقتي ببيتان ، وفيشي . . . ما أعرفه أن هذه المدينة مدينتي ، ولكي تكون باريس على ما هي عليه اليوم مات الكثيرون . . . تحت كل حجر تسير عليه اليوم ترقد جمجمة . . . لكن الغرباء عن المدينة مثلك لا يعرفون . . .

سمع صوت الأخضر يناديه . . . كان قد غرق في حديث مارلين ويشعر برغبة لا تقاوم لسماع تلك المرأة . . . وأراد أن يتجاهل صوت الأخضر لولا أن الأخير جاء إليه بجانب البار وجذبه من يده . . . سمع قهقهتها النحاسية تودّع خطاه قائلة :

ـ للقصّة بقيّة يا عبد الرحمن سيرويها لك الأخضر .

قال الأخضر متهكّماً :

ـ سوف أروي لك قصة سجن مارلين وإطلاق سراحها من قبل الجنرال ديغول ، سوف أحكي لك قصة الصحافي الذي جعل هذا المقهى مشهوراً عندما كتب حكاية صاحبته . لكن تعال معي فهناك كوارث كثيرة تفتّق عنها عقل صديقتنا نادية . . . إنها ترغب بهجرنا يا عبد الرحمن . . . إنها ترغب بالرحيل عن باريس .

قال الأخضر ذلك كأنه يسير في جنازة . . . كأنه يودّع عزيزاً إلى مثواه الأخير . جلس عبد الرحمن إلى المائدة ، وكان فاضل قد وصل قبل دقائق فأخذ مكانه في الركن نفسه الذي تعوّد الجلوس إليه .

وبدا الأخضر منفعلاً يحاول بصعوبة السيطرة على كلماته .

ـ الآنسة نادية استقالت من عملها وترغب في هجر باريس .

ـ ماذا تقول ؟ !

انطلقت الكلمة في آن واحد من فم فاضل ، وعبد الرحمن ، وبدأت عاصفة الأسئلة تنصبّ على رأس نادية ، ولماذا ؟ وكيف ؟ وإلى أين بعد ؟ وتضاربت الأسئلة بأخبار متقطعة عن بيروت « وعابد » . . ونضبت الكلمات .

كانت نادية تحاول أن تشرح لأصدقائها معنى استقالتها ، وفي هذا الصدد قالت أشياء كثيرة . . . قالت : إنها تريد الابتعاد عن باريس لأن زيف بيروت انتقل إلى العاصمة الفرنسية مع انتقال المهاجرين من أبناء وطنها .

قالت نادية : «لقد نزفت الحرب في شوارع باريس أسوأ ما كان في لبنان» .

قالت : « سئمت العيش بين بشر يعيشون على هامش كل شيء » .

قالت : « يستحيل عليّ ماديّاً بعد اليوم أن أؤيّد سماع قصصكم وأنتم تعيدونها كل يوم للسبب نفسه الذي تخيفني المرايا . . . لا أستطيع أن أرى سواداً على بياض . . بعد ما حصل في لبنان ، لا أستطيع أن أرى سواداً على بياض » .

قالت : « لا أستطيع أبداً أن أسدل الستائر وأحلم كما أريد في هذه المدينة » . وظلت تقول أشياء وأشياء . كانت كل كلمة من كلماتها طعنات خناجر مسمومة أصابت أصدقاءها في موقع القلب . في تلك اللحظة أحسّ كل من فاضل وعبد الرحمن والأخضر بألم بالغ أصبحت

كلمات نادية قلقاً حقيقياً لهم . لقد راق لهم ، ولفترة طويلة أن يعيشوا في هذا البلد دون هويّة . . كان كلّ منهم ينظر إلى نفسه في مرآة عينيها . . . كان وجودها بينهم يبدّد شيئاً من الغربة .

ـ تقصدين أننا نسخ أنيقة من الجبناء القذرين ؟

ـ لنحذف كلمة أنيقة فلا مكان لها هنا ، لكنكم نسخ شائعة اليوم بما فيه الكفاية .

مرت لحظات ثقيلة ، وانبعث من ركن المقهى صوت البيانو العتيق . كان أحد عاشقي بيتهوفن يعزف في تلك اللحظة مقطوعة له . تنبّه الجميع على أمواج اللحن وحدّق فاضل في عيني نادية .

بعد أن أستردّ بعض هدوئه قال :

ـ صحيح لماذا لا ترحلين ؟ لو بقيت هنا شهوراً أخرى ستكونين مثلي .

وأومأ للنادل :

ـ أيها المواطن . . كأساً أخرى .

أحسّت نادية ألماً جسدياً بارحاً يجتاحها ، تذكرت الأجساد الممزقة في شوارع بيروت . . . تذكرت آخر منظر رأته على شاشة التلفزيون بالأمس لمدينتها . . . قالت بأسى متهكّم :

ـ « إن ألماً جسديّاً لفرد قطعته قنبلة طائشة لا يخضع لأيّ حساب عقلاني أيها الرفاق» .

وتناثرت كلماتها في جو المقهى ، وتنبهوا جميعاً لعبور محمد عتبة الباب في تلك اللحظة . . . نبت محمد فجأة دون أن يتوقّعه أحد منهم . . . نبت فجأة كنخلة سحرية ليضفي كعادته على لحظات يأسهم نوراً ضئيلاً من أمل لا أحد منهم يدري إذا كان سيتحقّق . . منذ هربه من السجن . . . منذ آخر ليلة رأوه فيها هناك في زاوية المقهى لم يعد إليهم ، وتناقلوا أنباءه السّرية في أمسياتهم كما تعودّوا على ذلك منذ

عرفوه . في كـل مرة ذكـر أسم محمد بينهم كـانت سحابـة من الصمت الرمادي تنشر أجنحتها عليهم ، وبعد لحظات الصمت تتدافع الأسئلة عن مصير النضال السّري ضد دكتاتور ظالم . محمد وحده . . . وحده هو من بين الجميع ظلّ يحلم بنهاية الدكتاتـور ، لكن السنوات تمضي وتـرحل طيور فضّية إلى الشمال كل سنة لتعود مع قدوم الربيع والدكتاتور هناك في قصره يدخن سيجاره الكوبي ويخطب باسم جده « رسول الله » بينما ينتقل محمد من مدينة إلى مدينة في أوروبا مطارداً بالشكوك والأسئلة ، ورجال الجمارك ، وحواجز الشرطة .

كانت نادية تعتقد حتى الأمس أن نضال محمد من أجـل العودة إلى الوطن قاتلاً أو قتيلاً هو نضال عادل . . . بالأمس عندما كـانت تغرق في مقعدها الجلديّ الوثير أمام نادر تستمـع إلى نصائحـه وطلباتـه قررت أن الـوسيلة الـوحيـدة لتغييـر هــذا العـالم . . . كـــل العـالم هي إشعــال الحـريق . . . إلقاء قنبلة نـووية مثـلاً على النقطة المـركزيـة من الأرض بحيث تطال كل المدن . . . حلمت بالدمار وكادت تسجل مســاء الأمس على مذكرتها وهي وحيدة في غرفتها « إن العالم أصبح يحتـاج إلى دمار حقيقي » ، لكنها كانت أجبن بكثير من أن ترى حقائق حروف الجملة على الورق الأبيض .

كانت نادية شاردة فيما وراء الزجاج وأمامها يمتدّ شارع مونبرناس ، يغصّ بالعابرين في تلك الساعة في بداية المساء . كانت ضائعة تائهة لا تدري ما يمكن أن يقال أو يفعل . . لم تدر وهي تجوب شـوارع بيروت تحت زخّ الرصاص أن هناك بقعة أرض في العـالم يمكن أن تشعر فيهـا بالغربة . قبل أن تترك بيروت لمصيرها . . قبل أن تقرّر الهرب من الموت كانت تظن أن الأوطان مجرّد أشجار وبحار ومدن يكفي أن نعتادهـا حتى تتحول إلى ملك لنا . ولكن ثلاث سنوات في شوارع باريس لم تستطـع أن تمتلك خلالها حتى أوراق الشجـر الصفراء التي يلفـظها الخـريف .

لا ، ولا موجة من أمواج الليل . . . لا ، ولا نسمة عابرة في سماء المدينة . . . لا ، ولا مقطوعة موسيقى تنبعث من راديو أو بار عتيق ، كل ما تملك هو مئات أشرطة تسجيل لألحان غربية . تعود إلى البيت فتمضي ساعات وساعات في الاستماع إليها وتشعر بالألم يعتصر قلبها لأن تلك الأغاني لا تقرّبها إلى الوطن بل تبعدها عنه .

وجاءت لحظة الفراق .

منذ التقت « نادر » بعد ظهر اليوم وهي تتساءل بألم : لمن أنتمي ؟ وما هي هويتي ؟ لم يحدث منذ ثلاث سنوات أن طرحت هذا السؤال . لم يحدث رغم إحساسها المطلق بالنفي وثقل الحرب التي دمّرت كل شيء هناك . كان لبنان الذي تريد أن يستقرّ في الصدر والرأس والحلم هو لبنان الآخر ، لبنان ـ الوطن يرتعش فتخبئه في قلبها خوفاً من صوت الرصاص ونيران القنابل ، وكانت رغم غربتها تمتلك الوطن .

نعم واليوم ؟ ليس ما قاله نادر هو الذي هزّ الانتماء . . . لا ، يبدو أن جلسة هذا الصباح في مكتبه هي النقطة التي جعلت الكأس يفيض . . . تراكم خيبات في اللاوعي . . . شدّها كلام نادر إلى الواقع ليجعلها حقيقة . وفكرت : خارج الوطن والأرض يمكن أن تكون أي شيء إلا أنت ، يمكن أن تتحول إلى تاجر ، وسمسار ، وحالم ، وكافر ، بكل شيء ، ولكنك لن تظلّ أنت . . . مسافات زمنية . . . سنين ضوئية منذ الصباح وحتى هذه الساعة . . . ها هي نادية قريبة من كل شيء وبعيدة عن كل شيء .

«رفاق المقهى؟

المخدّر الذي كان يشغلك عن الغربة فقد مفعوله اليوم . . . انتهى تأثيره وأصبحت بحاجة إلى جرعة أقوى منه لن تجديها في باريس . الأخضر ، فاضل ، عبد الرحمن ، محمد . . وحتى محمد لم يعد يقنعك بحججه ولا برؤيته للمستقبل . . . لا خيار لديك يا نادية . لا

خيار . . بل الخيـار صعب وأصعب منه هـذا الضياع القـاتل الـذي جاء وجاءت معه لحظة الفراق ».

منذ التقت « نادر » بعـد ظهر اليـوم . . . منذ سمعت نـظرياتـه عن الأوطان ، والثقافة ، والصحافة والنضال وهي تنظر قليلاً إلى الوراء . . . عاد بها الزمن إلى طفولتهـا في جنوب لبنـان . . . ثم في بيروت عنـدما وعت بين أسـوار الجامعـة الأميـركيـة أنهـا تنتمي إلى عـالم يعـز عليهـا كثيـراً . . . قرأت كـل شيء عن وطنهـا ، ولم يكن ذلـك الـوطن لبنـان فحسب بل كان الخارطة العـربية من أقصـاها إلى أقصـاها . . . حلمت نادية بأنها تنتمي إلى وطن ، ترفع رأسها عندما تذكر اسمه ، لكن الركض المضني باتجاه أواسط العمر ، والصراخ في أزقة الحرب الأهلية والهزائم التي تسمّى نصراً والمساحات الضائعة بين الكلمة والفعل ، كلّ ذلك هزّ الصورة . . . كل ذلك جعل الصورة ترتعش في الذاكرة والـوعي ، لكن ليس في القلب . وهكذا هاجرت من الخوف والموت لتبحث عن كل ما يشدّها إلى ما هاجرت لأجله .

« نـادر . . . نادر . . . نـادر أنت من أيقظ السؤال الـذي حـاولت أن أتجنّب الإجابة عليه منذ ابتلعتني هذه الغربة . . من أنا ؟ من أنا اليوم ؟ ولمن أنتمي اليوم ؟ هل أنتمى للنفط ؟ أم للقنابل المجـانية في شـوارع المدن العربية ؟ أم للحنين القاتل نحو الأندلس الغائبة الحاضرة ؟ أم لهذا الغرب الذي أحسّ ثقله على كتفي كـأنني أحمل العـالم كله ؟ . . . كم أنت سعيد يا نادر لأنك لا تطرح أسئلتي ! لقد صالحت الأشياء كلها ، لم تقـرأ الحلاج ، ولا هيغل ، لم تعرف الشـكّ والأسئلة ، والحرب مـادّة للصحـافة بـالنسبـة إليـك . وكـذلـك القنـابـل والصـواريـخ ، البنـادق الروسية . . . الفرنسية ـ التشيكية . . . وحتى الإسرائيلية يمكن أن تكون بضاعة تصدّر إلى هنا وهناك . آه . . . ».

خرجت الآه كأنها صرخة قاتلة ، وانتشرت في جوّ المقهى سحـابة

الحزن التي تمرّ اليوم في سماء حياة الرفـاق الذين اعتـادوا الجلوس في هذا الركن من « كلوزري دوليلي ».

كان رفاق المقهى يمثّلون بالنسبة لتلك الجنوبية المنكوبة بالوطن ، والهوية ، والأهل مخدراً يستطيع أن ينسيها غربتها . أما اليوم فقد استيقظ المـارد في أعماقهـا وأصبح عبثـاً أن تتناول مخـدّرها . . . فقـد المخدر مفعوله وانتهى تأثيره هذا المساء . . . أصبحت بحاجة إلى جرعة أقـوى من المخـدّر وهي واثقة أن هـذه الجرعـة لن تجدهـا في بـاريس أو بين أصدقائها .

فـاضل . . . الأخضـر . . . عبـد الـرحمن . . . محمـد . . . حتى محمد لم يعد يقنعها . . . فقدت كل الحبال التي يمكن أن تشـدّها إلى شيء . . . إلى صخرة . . . إلى شجرة . . . إلى فكرة . . ويظل السؤال يطاردها : ولكن ماذا بعد وإلى أين ؟.

كانت تنظر حولها بعينين زجاجيّتين . . . خيل إليها أن الأخضر تكلّم كثيراً . وخيّل إليها أن فاضل شرب كما لم يشرب أبـداً في حياتـه . . . وخيـل إليهـا أن محمـد احتـرق بصمت كشمعـة . . . وخيـل إليهـا أن عبد الرحمن غنّى بصوت حزين ذلك الحزن « الفارغ » المدفون في عمق صحراء جنوب الجزيرة .

نظرت إليهم جميعاً بصمت . . . تأمّلت وجوههم كأنها تراها للمـرة الأولى . وفجأة ، في زحام ذلـك الضياع القـاتل لمـع في ذاكرتها وجـه « عمر » وهو يلحّ عليها قبل أيام أن تلحق به . . . يـومها كـانت ما تـزال تعتقد أن باريس أقرب إلي بيروت وأنها تستطيع أن تحتمل ذلك الوجـود المرهق المتعب لامرأة جعلتها الحرب تفقد طمأنينتها وحتى أحلامها . لم تعد نادية في باريس تعرف الحلم .

أصبحت بدون أحلام . . . عنـدما اكتشفت ذلـك أحسّت بالصقيـع يـلاحقها . . . كـانت ترتعش من البـرد ليلاً ونهـاراً . . . شتـاء وخـريفـاً

وصيفاً ، وربيعاً . . . فقدت حسّ التمييز بين درجات الحرارة وأصبح الصقيع يقلق كل شيء . . . ورغم ذلك حاولت أن تقاوم هذه الحالة واعتبرتها حالة عابرة يمكن أن تمضي بينما ظلّت هي نادية تقاتل نفسها لتشعّ على أصدقائها أملاً .

بالأمس طعن نادر الأمل الأخير . . . ربما كان الأمل قتيلاً منذ زمن ، لكنها لم تدْرِ به . . . لم تدْرِ بموته إلى أن تعفّنت الجثة وانبعثت رائحتها .

. . . ويضيء وجه عمر في ذلك الليل الذي تعبره نادية تنظر إلى رفاقها . . . لا تسمع ما يقولون . . . ربما كانوا يناقشون معاً أمرها . . . ربما . . لا أحد يدري . . . ولا حتى هي لكنها اليوم . . . في هذه اللحظة . . حتى تلك الثانية أصبحت نادية تشكّ بالناس جميعاً . . . بكل إنسان عرفته . أصبحت تشكّ حتى بمحمد وفاضل وعبد الرحمن والأخضر . . . من يدري إذا كان كل واحد منهم لن يسقط غداً بطريقة ما ؟ .

نهضت من مقعدها واتجهت إلى باب المقهى . . . عبرت عتبته فوجدت نفسها أمام تمثال الجنرال « فوش ». . . وقفت تتأمله ، محاولة أن تتذكّر ما تعرفه عنه . . . ألم يكن أحد ضباط نابليون ؟ ألم يكن أحد صانعي فردان ؟ ألم يكن . . . ؟ ما أهمية ذلك يا نادية ؟ لم تعد تدري شيئاً عما حصل بعد ذلك ، لكنها وهي تطوي جواز سفرها اللبناني لتضعه في حقيبة يدها . . وهي تركض في ممر مطار أورلي لتلحق بطائرة تقلّها إلى عمر ، تذكّرت أنها لمحت في لحظة نصف اليقظة نصف الحلم دمعتين في عيني الأخضر عندما تركت المائدة التي يحتلّها الرفاق .

كان المطار المتواضع البائس يغرق في ضباب الصباح ، الفجر الصحراوي ينثر ضوءه على تلك البقعة من أفريقيا العربية ، الركاب قلائل

والطائرات أقل ، وتلك البلاد التي تعتبرها الجغرافيا آخر تخوم الأرض العربية تمتدّ في قلب الصحراء حتى النهاية . وهبطت نادية من الطائرة التي أقلّتها من باريس إلى هنا في طريقها إلى عواصم أفريقية أخرى . لم تكد تضع قدمها على الدرجات الأولى لسلم الطائرة حتى لفحتها نسمات الأرض العربية التي غابت عنها . . . في الماضي كانت تعتقد أن الأرض عديمة الرائحة والذاكرة لكنها منذ هاجرت إلى باريس وهي تلوب كالمجنونة بحثاً عن رائحة بيروت . وبعد الركض في شوارع باريس طيلة نهار كامل تعود في المساء إلى غرفتها خاوية الكفّين فترتدّ إلى الحلم والذاكرة علّها تستعيد ما تريد استعادته . تلفّتت حولها بخوف ممزوج بالاستغراب . كانت اللغة العربية تتقافز أمامها وفي سمعها كأنها سمفونية أتقن المؤلف مقاطع حروفها . . . وجوه سمراء ملوّحة بالشمس ، أجساد رجال منتصبة كالرماح المغروسة في الأرض ، نساء ملتفّات بالملايا المخطّطة ذات الألوان الزاهية ينتقلن بصمت بينما يتراكض الأطفال في بهو المطار المبنيّ على طراز الهندسة الإسلامية . . . تقدّمت نادية نحو موظف الحجز وهو في الوقت نفسه موظف الجمارك والشرطة ، والبنك ، ووزارة الداخلية ، والخارجية ، وربما مندوب بلاده غير المقيم في الأمم المتحدة . . تقدمت نحوه وسألته إذا كان هناك أحد ممثلي الجبهة في انتظارها ، أو إذا كان يعلم بوصولها . أمهلها الموظف دقائق حتى يتأكد من ذلك ورفع آلة هاتف سوداء من طراز تلك الآلات التي كانت تستخدم قبل أربعين سنة في باريس أو بيروت . . . أدار ذراعاً معدنيّة جانبية وحاول الاتصال بالعاصمة وبعد جهد وتعب استطاع أن يحصل على هاتف مكتب الجبهة حيث أجابه شخص على الطرف الآخر من الخط . فهمت نادية من مسار النقاش باللهجة المحلية أنه سيرسل من يصحبها إلى المكتب بانتظار طائرة المساء التي تقلّها إلى داخل المناطق التي يسيطر عليها المقاتلون . عندما استفسرت عن موعد وصول الطائرة ، معتقدة أن بإمكانها أن تقضي ساعات الانتظار في المطار ، أجابها الموظّف «قد تصل وقد لا تصل ، ثم ماذا ستفعلين خلال ست ساعات

في هذا المطار ؟ كما تلاحظين ليس هناك مقعد واحد تجلسين عليه ، حتى لو رغبت بفنجان قهوة فلن يكون بإمكانك الحصول عليه . كل مسافري الترانزيت يذهبون إلى المدينة للانتظار لأن المطار لا يبعد أكثر من عشر دقائق عن المدينة» . وتذكّرت نادية أنها لاحظت أثناء هبوط الطائرة كأن الطائرة تهبط على سطح أحد البيوت ، وذهلت لرؤية أغرب مطار في العالم لدرجة أنها أغلقت عينيها قبل أن تصل إلى الأرض .

وصل مندوب الجبهة إلى المطار لاصطحابها ، قدم نفسه إليها : «أنا علي مندوب الإعلام ، يمكن أن نذهب إلى مكتبنا وهناك سنحاول الاتصال بـ «عمر» في الداخل». لم تكن نادية قد حددت بمن تريد الاتصال، وكان كل ما فعلته أن ذكرت اسمها لموظّف المطار وطلبت إليه الاتصال بمكتب الجبهة . فكيف خمّن هذا الشاب أنها تريد الاتصال بعمر ؟ لكن دهشتها لم تستمر طويلاً ، فسرعان ما تذكّرت أن علاقتها بعمر كانت سبباً رئيسياً في إبعاده عن بعض المواقع الحسّاسة في قيادة الجبهة ، وأن اسمها لم يعد خافياً على أيّ من رفاقه بعد أن لحق بها إلى باريس وكاد أن يترك كل شيء ليعيش إلى جوارها .

ابتسمت وهي تصعد إلى سيارة «بيجو» قديمة بينما مرافقها يعتذر بحياء : «لم نكن نعلم بوصولك ، لو أبرقت إلينا لكنا في انتظارك . . . لكن سوف نحاول إعلام سي عمر حالاً» . هزّت نادية رأسها بالإيجاب بينما كانت مشغولة عن كلمات مرافقها بمرأى الرمال الصفراء الممتدّة حولها إلى ما لانهاية تقطع صفرتها الحادة واحات خضراء من أشجار «الروزبيس» ذات الزهور الحمراء ، والخضرة الدائمة رغم جفاف الصحراء وندرة المياه ، والثورات المتتالية لرياح الخماسين .

وكما يفعل أيّ دليل سياحيّ ماهر راح مرافقها يشرح لها : «ذلك المبنى المحاط بحديقة هو مقرّ الرئاسة ، وقد شيّد قبل خمسة أعوام ، وأمامه فندق المحيط الذي كان أول مبنى في المدينة من الحجر» . وحول قصر الرئاسة ثمة قطيع من الجمال يسرح بطمأنينة بينما أقام الرعاة على

بعد مئة متر خياماً لهم. وعندما لاحظ المرافق بعض الدهشة في عينيها ضحك قائلاً : «سيدتي إن نصف بيوت المدينة عبارة عن خيام . . . نحن هنا في آخر بقعة من الأرض العربية ولم يسقط علينا وحي النفط بعد» .

كان صوته محمّلاً بأسى وخيبة دفعتا نادية إلى الاعتذار ، لكنه ردّد مرة أخرى : «ولماذا تعتذرين ؟ لست أنت من قسّم الأرزاق على هذه الأرض» . ضحكا معاً ضحكة سفحتها رياح محملة بالأتربة والغبار عندما توقّفت السيارة أمام مبنى متواضع مؤلف من دورين مكتوب على بابه بشكل بدائي أنه «مكتب الجبهة» . استقبلها مدير المكتب بترحاب بالغ . . . شاب طويل القامة كثّ الشاربين يتكلم العربية باللهجة الحسانية . وقدّم نفسه إليها قائلاً : «أنا سالم ، ألا تذكرينني ؟» نظرت إليه محاولة أن تذكر أين وكيف التقت به ، ثم تذكّرت فجأة أنه كان من مرافقي عمر في ذلك الفندق الذي يقع على شاطىء المتوسط في إحدى العواصم العربية . إنه هو دون شك الرجل الذي كان يلازمه كظلّه . إنه هو دون سواه الذي حاول إقناع عمر كما عرفت بعدم اللحاق بها إلى باريس . ووضعت نادية حقيبة يدها على المكتب الخشبيّ المغطّى بالغبار والأوراق ، وقصاصات صحف قديمة ، ونشرات وكالات أنباء . ثم ألقت بنفسها على الكرسي المجاور للمكتب وتنفّست الصعداء . بعث وصولها في المبنى حركة نشطة . . . سمعت صوت الهاتف يرنّ في الغرفة الثانية . . . وجهاز التلكس يدق برتابة وبطء . . . وبواب المكتب ينصرف لتحضير الشاي الأخضر . . . ونسمات النهار الحارّة المحمّلة بالرمال تجتاح جسدها . أحسّت بدفء لم تحسّ به لسنوات في أوروبا . . . دفء غريب يهاجمها خارج الطبيعة والمكان والزمان . . كادت تصرخ بفرح كأنها وجدت ما تبحث عنه منذ سنين . . . كادت تغنّي . . . كادت تبكي . كادت تحتضن ذلك الغريب الذي أمامها ، لكنها استطاعت ضبط أعصابها وكبح جماح الفرح والحزن والسعادة منتظرة أن يصدر عن مضيفيها ما يشرح لها كيف وأين ستلتقي عمر .

قال سالم بعد دقائق صمت :

ـ أعتقد أنك ستلحقين بطائرة الهيليوكبتر التي تنقل الأغذية إلى الداخل هذا المساء . استفسرت : «تنقل الأغذية إلى الداخل ؟» .

أجاب سالم : «نعم فنحن نزوّدهم في الداخل بكل ما يحتاجون إليه» . فكرت أن تسأله أين يقع هذا الداخل ؟ لكنها أحجمت عن ذلك متذكرة توصيات عمر لها من قبل : «لا تسألي البدوي إذا لم يخبرك ، فإن السؤال يقود إلى المآزق» .

الداخل . . الخارج . . الصحراء . . باريس البعيدة . . رفاق المقهى . . بيروت المشتعلة . . الجنوب المحتل . . المقاومة الرهينة . .

كل هذا يعيش في ذاكرة امرأة ابتعدت قبل سنوات عن الثلاثين .

تمرّ الساعات وهجير الشمس خارج نوافذ ذلك المكتب فتغيّر الألوان والأسماء . تمر الساعات وتحترق نادية انتظاراً لكنها تعرف الآن وقبل أن تبدأ الرحلة إليه أن النهاية قد تكون هناك .

أقلعت طائرة (فوكنر) من المطار ذي الطراز الإسلامي فخلفت وراءها بحاراً من الرمال الصفراء اللامعة ، ومئات الخيام المنصوبة قريباً من المحيط . . . كان المحيط الأزرق يبدو كبساط تتماوج ألوانه تحت عينيها فتشعل خيالها : «وماذا وراء المحيط ؟» . منظر المياه الصامتة الشديدة الزرقة أيقظ في رأس نادية فكرة الرحيل إلى ما وراء المحيط للبحث عن شيء . . . أيّ شيء ؟ تتساءل وتعرف الإجابات المسبقة . إنها جميعها تضجّ بالسلبية والنفي ، قبل أن تترك بيروت كانت تظنّ وهي تقف على صخرة الروشة أن وراء مياه ذلك الأزرق المجنون عالماً آخر أكثر إنسانية وأقلّ عنفاً ، عالم رسمته لها الكتب الواردة من باريس ، أو مجلات الموضة الفرنسية . اللغة التي أتقنتها منذ صغرها وأنشدت فيها مع عدد من تلاميذ المدرسة ذوي الوجوه السمراء والملوّحة بالشمس «أجدادنا

الغاليّون» تلك اللغة هي السكّين التي ذبحتها في باريس . . لا . . لماذا هذا الظلم ؟ . . لماذا هذه الرؤيا الغبيّة للأشياء . . . لم يذبحها إلاّ عنف وطنها وجنونه وتآمر العالم أجمع عليه !

لقد خلقت اللغة لنادية مركباً قطعت به البحر إلى الطرف الآخر . ولو لم تكن وهي صغيرة أنشدت «أجدادنا الغاليّون» لما فكرت بالرحيل عن بيروت ولكانت اليوم هناك في الشياح ، وساقية الجنزير ، وبرج (أبو حيدر) ، والفاكهاني تقاتل . ولكن لماذا القتال ؟ سؤال هربت منه ولم تجب عليه . . . تستمر الطائرة في اختراقها للسماء الصافية وتستمرّ نادية في رحلتها نحو المجهول .

مضت الطائرة يشقّ هديرها السماء الصحراوية . كانت نادية الراكب الوحيد على متنها وحولها تتناثر زجاجات المياه المعدنية وأكوام الخضار ، وعلب المحفوظات . . .

سرحت بعيداً في ذكرياتها ، حاولت أن تعود إلى الماضي القريب ، إلى ذلك اليوم الذي التقت فيه مع عمر . يوم التقته كان عمر كما هو اليوم مثلها دون وطن ، لكنه يحاول أن يخلق لنفسه وهم الحرب العادلة لاستعادة أرضه . بينما تحاول هي أن تهرب من جحيم حرب لم تستطع أن تحدّد كيف ستنتهي .

كان اللقاء الأول بينهما في الجزائر . . . ولهذا اللقاء ذكرياته الحارّة التي قاومت بها صقيع باريس لشهور فيما بعد . . . اللقاء الأول . . . اليوم الأول . . .

لن تنسى نادية اليوم الأول ، بأحلام مراهقة مشت إلى أول موعد مع رجل تتذكّره وتستعيده الآن . كان الفندق فرنسيّ الهندسة ، يطلّ على الميناء المتّصل بالبحر الأزرق الزاخر بالمأساة .

كانت قد جاءت إلى المدينة لتغطية مؤتمر من المؤتمرات الكثيرة . وكانت مدينة الجزائر تدخل بداية الشتاء ، وكانت غرفتها في فندق «أليتي»

تطل على البحر الذي يهاجمها كل صباح برائحته الملحية فيختلط سحره برائحة تبغها المعتق . . .

ذات صباح كانت في صالة الفندق تحضر نفسها للذهاب إلى قاعة المؤتمر عندما اقترب منها رجل في الثلاثين من عمره تقريباً ذو عينين نفاذتين وسألها بتهذيب بالغ : إذا كانت فرنسية ؟ رفعت رأسها نفياً دون أن تنبس بحرف واحد ، لكن عينيها ظلتا معلقتين في وجهه تتأمل ذلك الشعاع السحري الذي يتسرّب من عينيه ليغطّي على كل وجود حولها . . . واعتذر بهدوء ثم ردّد : «كنت أنتظر صحافية فرنسية . آسف لإزعاجك يا سيدتي» .

لم تعلق بشيء ، فقد وصل الزميل الذي يفترض أن يصحبها إلى قاعة المؤتمر ، ووصلت صحافية فرنسية مثقلة بآلات التصوير . . . نظر إليها . . . نظرت إليه . . . خيبة مشتركة بدت على وجهيهما وهما يمضيان كل في اتجاه يختلف عن اتجاه الآخر .

كانت الشمس الشتائية تتسلّل إلى صالة الفندق عبر النوافذ الملوّنة فتلقيَ على وجهها فرحاً لا يشرح حزن أعماقها . . . تخرج مع زميلها الصحافي إلى شوارع الجزائر لتصطدم بزحمة حياتها اليومية . . . كان قد مضى على وجودها في أوروبا ثلاث سنوات ولا تزال المدن العربية تشدّها كأن مغنطيساً يجذبها ويحول بينها وبين أن تعيش مشدودة إلى باريس . . . يلحقان بأول سيارة أجرة تقلّهما إلى قاعة المؤتمر ، أثناء الطريق ما بين فندق «اليتي» وقصر المؤتمرات كانت نادية لا تزال تفكر بتلك العينين النفاذتين اللتين بقيتا خلفها في صالة الفندق . . . إحساس غريب بالدفء لفّها وهي ترتعش . . . إحساس بدفء إنسانيّ غريب لم تشعر به منذ زمن . وفي زحمة عملها داخل قاعة المؤتمر ، في زحمة اللقاءات التي أجرتها مع عدد من المسؤولين العرب نسيت نادية لقاء الصباح ، ونسيت العينين النفّاذتين ، وهاجمها برد الجزائر الصاخب من جديد .

في المساء عادت إلى الفندق مبكرة ، وأوت إلى غرفتها . جمعت أوراقها وكتبت الرسالة التي يفترض أن تمليها على مجلّتها في باريس . . . وما هي إلاّ لحظات حتّى رنّ الهاتف في غرفتها . وكان «نادر» على الطرف الآخر يسألها عن أجواء المؤتمر والشخصيات التي تحضره ، وشرحت نادية كعادتها لنادر خلفيات الاجتماعات واللقاءات السّرّيّة والتصريحات الخاصّة . ثم طلبت عاملة الاختزال فأملت رسالتها ثم وضعت سماعة الهاتف وتنفست الصعداء، فركت كفّيها علّها تبعث الدفء في ذلك الجسد الذي لم يعد قادراً على الحب . . . كانت تشعر بالعجز في جسدها ، وكثيراً ما داهمها الإحساس : «إن علاقتها بخالد سوف تكون آخر حبّ عاشته وتعيشه» .

كانت نادية مستسلمة لرائحة البحر الملحية عندما رنّ الهاتف من جديد في صمت الغرفة والوحدة القاتلة . وقبل أن ترفع سماعة الهاتف تساءلت في سرّها «ترى من يتذكّرني في الجزائر ؟» . . كادت أن لا تجيب . . . حاولت أن تتجاهل الرنين . لكن الآلة السوداء ظلت ترسل بصوتها ، وكأن من على الطرف الآخر قرّر أن يجدها هذا المساء أينما كانت . . . ظنت أنه ربما يكون أحد أصدقائها من اللاجئين السياسيين الذين تعجّ بهم الجزائر ، ونهضت إلى الهاتف .

ـ أنا الذي كان ينتظر صحافية فرنسية .

ضحكت .

ـ وهل وجدتها ؟

قال :

ـ هذه المرة أبحث عن صحافية عربية ، فما رأيك أن نشرب القهوة معاً ؟

تردّدت قليلاً لكنه استمر في الحديث عندما لاحظ تردّدها :

ـ لقد أخبرني مسؤول الفندق أنك تمثّلين إحدى المجلات العربية الصادرة في باريس . ويهمني أن أعطيك بعض نشراتنا . . . ها . . .

نسيت أن أقول لك إنني عضو اللجنة المركزية لجبهة تحرير الصحراء .

وتذكرت نادية أنها قرأت كثيراً عن حرب الصحراء في الصحافة الفرنسية لكنها لم تفهم ، ولم يكن هدفها أن تفهم . فمنذ انفجرت هذه الحرب وهي ترفضها وتعتبرها حريقاً جديداً يزيد في التمزّق العربيّ . كادت أن ترفض دعوته لها . . . كادت أن تقول : لا . لكن تصميمه على الطرف الآخر دفعها إلى القول :

ـ سوف أكون بعد ربع ساعة في صالة الفندق .

ووجدته في انتظارها . . . فأسرع يصافحها . . . كان صوته مرحاً . . . صوت رجل يعيش حماسته . . . قالت لنفسها . . المفاجأة ليست جديدة . إنني خبيرة بهذا الصنف من الرجال . . رجال يملأون الدنيا ضجيجاً ويعتقدون باستمرار أنهم يملكون الحق . كان يبدو واثقاً من نفسه كل الثقة . . . طبيعياً لدرجة أشعرتها بالإحراج . وروى عمر لنادية تاريخ حرب الصحراء ، وهما يطلّان من وراء زجاج شرفة الكافيتريا على البحر كان يتحدث باللغة الفرنسية ويحاول إيجاد بعض الكلمات العربية لشرح معنى يستعصي عليه ، فتخونه معرفته باللغة مما يدفعه إلى الحديث باللهجة الحسانية . كان يحاول أن يعتذر منها بين الفينة والأخرى لأنه لا يعرف العربية الفصحى ، معتقداً أن كل عرب المشرق يتكلمونها فيما بينهم .

وتوقّف عن الشرح . . . انتهى من رواية تاريخ قضيته . . . ولخص موقف التنظيم الذي ينتمي إليه . . . باختصار قال كل ما عنده لنادية ، وهي لا تزال صامتة تتأمل البحر المتوسط الذي يمتدّ حتى مدينتها المشتعلة وحدود وطنها على الطرف الآخر .

كانت تعتبر أنها أدّت واجبها المهنيّ فاستمعت له . . . لكنها لم تجد الحماس لكي تطرح عليه سؤالاً واحداً . وعندما مدّ يده إليها بمجموعة كتب ونشرات التفتت إليه برأسها فتلاقت العيون في عتمة المكان . . . ابتعد قليلاً إلى الوراء ، وظلّ ينظر إليها . . .

وتكلمت نادية في ذلك المساء فقالت أشياء كثيرة لم تعد تذكر منها اليوم شيئاً . . . ربما حدثته عن الحروب الكثيرة والغبيّة التي تنتشر على طول الخارطة العربيـة وعرضهـا واعتبرت حـربه واحـدة منها . . . ربمـا حدثته عن الهزائم ، وبيروت وحبها الأول ، وتجارة السلاح . . . تذكـر اليوم أنها تكلمت كثيراً وكان عمر يستمع إليها بصمت . . . يطرح أسئلة بين الحين والحين . . . يهزّ رأسه إيجاباً . . . يهزّ رأسه نفياً . . . وفجأة أدركت أنها تحدّثت دون أن تطرح عليه سؤالاً واحداً .

قال لها :

ـ ألا يدفعك فضولك لطرح أسئلة ؟

وضحكا معاً ، أحسّت أنها ذهبت بعيداً في حديثها دون أن تحـاول التعـرّف إليه ، أو الاهتمـام بما يحمله إليهـا . فحاولت أن تعتـذر لكنـه قاطعها مازحاً «لا ضرورة للاعتذار ، فعرب المشـرق لا يفهمون قضيتنـا بسهولة» . ثم جذبها من يدها كأنه يعرفها منذ ألف عام «تعالي إلى الصالة حيث الجو أكثر دفئاً» . ودخلا الصالة معاً . اختارا ركناً هادئـاً يطلّ على البحر وعادا من جـديد إلى الحـديث . . . تلك الليلة تحدّثـا كثيراً . . . روى أشياء كثيرة . . . وروت أشياء كثيرة . . . واكتشفت نادية في عمـر ذلـك المغربيّ الـذي يفصله عن المشرق تـاريخ ، ومسـافات ، ورمـال وأحلام . . . اكتشفت فيه رجلاً عنيداً بإيمانه يعيش تحت وطأة اكتشـاف هويته . . . تحت سياط الاغتصاب اليومي لثقافة غريبة .

ومضى الليـل . . . ومضى الحـوار بين امـرأة من المشـرق عـاشت كابوس الحرب الأهلية ، وعرفت قبل هذه الحرب هزيمتين ، وبين رجل يزهو بحلم لم ينكسر بعد .

وظلّ البحر خلف الشـرفة رمـادياً يغلّفـه الموت بينمـا غرقت مـدينة الجزائر في النوم .

في اليوم التالي . . . أصبحا عاشقين .

تـذكرت نـادية وهي تقـطع الصحـراء في طـائـرة « فـوكنـر » مليئـة بالزجـاجات والعلب ، اليـوم التالي . سـارا معاً بجـانب البحر ، كـانت الريح الشتائية تلسع وجهيهما . . تحمل في طيّاتها رائحة أسمـاك بعيدة في الأعماق . . . انتحيا ركناً هادئاً وتحدّثا كثيراً . . . وفجأة مدّ يده يداعب حبات النمش على أنفها فضحكا معاً . وهربا إلى مطعم صغير .

بعد ذلك كانا يحرصان في الفندق وأمام الصحافيين والزبائن والخدم والغرباء على إخفاء سعادتهما . . . يهربان بحبّهما بعيـداً عن الجميع . واكتشفت نادية في عمر عاشقاً مجنونـاً . واكتشف في جسدهـا بحراً من الحب .

قال لها يوم التقاها في باريس بعد شهر من اللقاء الأول «كان جسدك صحراء تتّسع لشمس لا تغيب . . . أرض لم تستسلم للريح الباردة » .

وخلال أيام في الجزائر ، أعادا اكتشاف العـالم معاً . . . كـان يردّد على مسامعها عندما تغرق في الحديث عن بيـروت « أيها الشـرق الآتي إلينا بانكساراته وهـزائمه ، سـوف تعيدين اكتشـاف هويتـك الحقيقية » . ويردّد أحياناً وهو يضحك مازحاً « أنت طفلة مفرطـة الوعي بـذاتها . . . مفرطة البحث عن ذاتها » .

ورحلت نادية عن الجزائر إلى تونس ، ثم إلى باريس . . . عـادت إلى رفاق المقهى امرأة أخرى تشعّ عشقاً . . . ولاحظ الجميع أنها تغيّرت لكنها لم تحدّثهم عن السرّ الذي ظلّت تحمله في أعماقها وتنتظر . . . ما بين بيتها في حي (منيل مونتان) ومجلّتهـا المهاجـرة ، ومقهى «كلوزري دوليلي» عاشت نادية شهراً ، تنتظر أن يلحق عمر بها . . . كانت تعود إلى البيت في آخر الليل لتنتظر هاتفه . . . تمضي الدقـائق وهي تحدّثـه عن صقيع باريس ، ورفاق المقهى ، والحرب الأهليـة في بيروت . لم تكن تدعوه إلى المجيء فهي تعـرف جيّداً أنهـا لا تملك لأجله شيئاً . . . لا تملك إلّا حباً تعرف منذ البداية أنه سيموت .

وأصبح الحبّ أكبر منها ، أصبح أكبر من البحر والمسـافة ، لكنهـا

ظلّت تعيش حياتها في باريس كأيّ مهاجرة تحلم بالعودة إلى وطنها . . .

جاء عمر . . .

لحق بها إلى باريس تاركاً وراءه حرب الصحراء ورفاقاً ينتظرون عودته . قال لها عندما وجدته ينتظرها أمام باب بيتها ذات مساء «لم أكن أملك عدم المجيء . . . كان عليّ أن ألحق بك» . . . وظلّت تتأمله بدهشة وفرح ، وظلّ يردّد «لا أدري إلى ماذا سننتهي ، لكنني أعرف جيداً اليوم أن قدري هو أنت» .

في الليلة الأولى ، دفنت نادية وجهها في صدره وبكت . . . لم تكن تعرف إذا كانت تبكي فرحاً به أم خوفاً من أن تفقده .

وعندما أمعن الليل في ظلمته وأقفر شارع (منيل مونتان) من البشر ، قالت نادية لعمر بصوت منخفض «هل يمكن أن تتحوّل إلى بيروت ، ودمشق ، هل يمكن أن تكون بديلاً عن الوطن ؟» .

أجابها وهو يحاول أن يشعل عود ثقاب ليضيء جسدها العاري :

ـ تطلبين المستحيل ، لن أكون لك بديلاً عن الوطن . . . لن أكون إلّا رجلاً . دعيني أحبّك رجلاً .

واندفعت إلى صدره . . . ومرّت بيروت فوق رأسها سحابة . . . غمرها بذراعيه ، وتأمّلها . . . كان جسدها يرتعش تحت كفّيه . . . وصوته يهمس . . .

ـ لم يمضِ على لقائنا سوى شهر واحد ، ورغم ذلك فأنا أحبك .

يومها فتحت عينيها بصعوبة وتمطّت في لذّة نصف اليقظة . . نصف النوم . . . كان الليل في الغرفة من حولها بحراً لا أعماق له . . . يخترق ظلمته شعاع عينين سوداوين قادمتين من الصحراء . . . يردّد بصوت هامس :

ـ لن أمتلكك . . . لو فعلت لكان حبّي سجناً لك ، وأنت مستعصية على القيود .

ويردّد في لحظات أخرى :

ـ سأرحل عنك لأعود إليك . . .

ويردّد في لحظات أخرى :

ـ سأناديك في عرض الصحراء وأنا راحل إلى الجبهة . . سأناديك وأنا عائد منها . . . سأزرعك في الرمل نخلة . . . سأسمّيك النخلة .

تحوّل الليل إلى غابة عشق . . . إلى جزيرة ملأى بطيور ملوّنة . . . إلى رجل وامرأة . تحوّل الليل بين نادية وعمر إلى مدن مسحورة لا أثر للحروب فيها ، مدن منذورة للحبّ والحنين . ولم تشعر يوماً نادية بالاندهاش أمام الحياة كما شعرت وهي تكتشف عمر . لكن اندهاشها كان يمتزج بالخوف من أن تفقده . . . فقد كانت تعي وعياً غامضاً أنه سيكون آخر رجل تستطيع أن تحبّه . قبله . . . بعد خالد . . . بعد أن اكتشفت تجارة السلاح والحرب الأهلية ، أشارت على نفسها بالهجرة إلى باريس ، وبعدها بالانتحار . وكان هذا الشعور وليد جراح بليغة ، كما هو وليد خلل في استيعاب ما يجري حولها ، لكنها قاومت وها هي أمام عمر مرة أخرى .

ذات مساء

كانا قد تحدّثا للمرة الأولى عن الرحيل نحو الصحراء في ذلك المطعم الصيني الذي يقع في زاوية «الحيّ اللاتيني» . . . لأول مرة حدّثها عمر عن الارتباط الأبدي بها ، ـ كما كان يسميه ـ .

قال لها : ألا تؤمنين بأنك ستكونين لي ؟

وأضاف :

ـ الموت وحده سيحول بيننا . ألا تؤمنين بقدرنا المشترك ؟

قالت :

ـ إنني أبحث عن أرض أركن اليها . . . أريد العودة إلى بيروت .

قال :

ـ سوف تعودين ، وفي انتظار عودتك ، لن أكون لك بديلاً عن الوطن . سأكون رجلك فأحبّيني رجلاً .

عندما انتصف الليل ، وسمعا معاً جرس الكنيسة المجاورة شعرت نادية بالنعاس فأغمضت عينيها وهمست بصوتها ذي البحّة المتميزة :

ـ إنني تعبة وأرغب بالنوم .

قال لها عمر :

ـ أحبِّيني ، ابذلي جهداً . . . تعالي معي إلى الصحراء . . . تعالي معي إلى الصحراء . . . لا تبقي وحيدة في باريس .

وقالت له :

ـ صف لي الصحراء يا عمر .

أطفأ سيجارته وأشعل الضوء ـ استلقى على خاصرته اليمنى مقابلاً لها ، مدّ يده ومسح شعرها . . . ثم عنقها وهي مستسلمة له كطفلة .

انساب صوته في سكون غرفتها الباريسية : «الصحراء تشبهك . . . الصحراء تشبه كل النساء الآسرات . . . لا مدن في الصحراء . . . لا جدران في الصحراء . . . لا حواجز في الصحراء . . . لا حدود . . . عندما يأتي الليل على الصحراء تذرف الرمال دموعها ويسكن البدو خيامهم وتفتح الزوجات صدورهنّ للحبّ فتتحوّل هزائم الرجال إلى نصر ، ويمضي اليأس بعيداً . . . عندما تعود الشمس في الصباح ، تضحك الرمال وتتعدد الألوان والرؤى . وهكذا يكتسح الصحراء مد الشمس وجذرها . . . وهكذا يستيقظ فيها شعب يملك ذاكرته» .

قالت له : وهل تشبه الصحراء بيروت ؟

تمنّت أن يقول لها : نعم إنها تشبه مدينتك . . . لأنها تؤمن بأن المدن التي لا تشبه بيروت هي مدن عقيمة . وحتى الصحراء إذا لم تشبه بيروت فهي أرض عقيمة .

قال لها :

ـ أدرك أنك تتمنّين أن تشبه الصحراء بيروت ، لكن الصحراء لا تشبه إلاّ نفسها . . . نفث دخان سيجارته واستمرّ في الحديث .

ـ إنّها بين المدن التي بناها الفرنسيون ومن قبلهم الإغريق والرومان

والعـرب . . . تحفظ في ذاكرتهـا ذكرى الملوك والثـوار . . . كـل ملوك شمال أفريقيا جاءوا من الصحراء . . .

قالت :

ـ هل تعتقد أن عرب المشرق خرجوا من صحـرائكم واتجهوا نحـو الشام ؟

قال : لا أحد يذكر ذلك .

وأضاف : حاول الإسبان الانتقام للتاريخ من رجالنا فبنوا مدناً على مقربة من الشاطىء . . . على مقربـة من البحر ، ولم ينسـوا أن يرفعـوا مآذن ، ويجبرونا على الرحيل إليها . . .

قالت : وهل قبل شيوخكم بهجر الصحراء ؟

قال : أما شبابنا فقد تكلموا لغتهم وتزوجوا الأندلسيات من نسائهم .

قالت وهي تغالب النوم : إن صحراءك لا تشبه بيروت ، فلم تحدّثني عن الحرب أو الموت أو الثورة أو الجنون .

قال : إذا كان الأمر كذلك فكل الأرض العربية هي بيروت .

قالت : ماذا تعني ؟

قال : في الصحراء نطلق رصاصاً ، ونقتل رجالاً ويطلقون رصاصـاً ويقتلون رجالاً .

قالت : لماذا لا تقبلون الصلح وتختصرون الموت ؟

قال : وحتى لو قبلنا فسيظلّ الموت يلاحقنا . . . المسألـة أكبر من ذلك .

قالت بأسى : قل لي متى تنتهي حرب داحس والغبراء ؟!

قال : حتى تنتهي داحس والغبراء في كل مكان من الأرض العربية .

كان الحوار بينهما كثيراً ما ينتهي على هذا النحـو ، وبعدهـا تضمّ ناديـة رأسها إلى صدره وتغفو . كانت تغفو قبله وينتشر حولها سحرها الطاغي . قبل ساعات من تلك الليلة . . . وقبل أن يأويا إلى فراشهما كانت واضحة وحاسمة وهي تجلس أمامه في ذلك المطعم الصيني حين قالت له :

ـ اسمع يا عمر ! لن أستبدل باريس بأرض عربية تعيش هي الأخرى حرباً أهلية . . . لن آتي معك إلى الصحراء .

حاول أن يشرح لها الفرق بين الحربين فأصمت أذنيها وظلّت تردّد «كل الحروب الأهلية تتشابه مهما اختلفت الأسباب» . . . وكان عمر قد أدرك أن المرأة التي هجر رفاقه لأجلها لغزٌ لم يستطع بعد فك أسراره . . . إنها تحمل دماً يقودها إلى الكارثة . . دماً متمرّداً يجعلها تختنق في غربتها .

إنه منذ شهرين يخوض معارك إقناعها بالرحيل معه . لكن معاركه خاسرة حتى اليوم . . فأيّة امرأة تلك؟ . .لكنه لم ييأس . كان يعاود الكرة من جديد وهو يسير إلى جانبها في شوارع الحي اللاتيني . . . وهو يذهب للقائها بعد الخروج من عملها . وهو يجالسها وجهاً لوجه في مقهى «البرج الفضّي» . صباحاً . . . وهو يودّعها أمام «كلوزري دوليلي» . لتلتحق برفاقها مساء . . . وهو يضمها إليه ويقبّلها في سريرها ليلاً . . . وهو يثور في وجهها ويهدّدها برحيله . . . وهو يندفع واقياً نفسه من سحرها الطاغي . . . لكن ما أن يلمح وجه امرأة في الشارع حتى يرتدّ إليها . . .

ويبدأ من جديد . . . يبدأ دون يأس .

لم تخدعه نادية . كانت واضحة كالشمس يوم قالت له : «عد إلى الصحراء . . . يجب ألاّ تتحول إلى مهزوم ومشرد مثلنا» قالت هذه الكلمات وهي شبه يائسة . . . تسند رأسها على كتفه في المقهى . وتنظر إلى الشارع الغريب .

عندما انطلقا معاً في أحياء باريس العتيقة وعبر أزقّة حي «الماريه» يبحثان عن مطعم متواضع ، كان قد يئس تماماً من إقناعها ، فاستسلم للواقع وسار إلى جانبها صامتاً لكنها بعد خطوات قليلة في شارع «لاروزييه» تعبت فافترشت الرصيف تستريح كأعتق متشرّدة في التاريخ . . . كان الليل بطيئاً من حولهما والمارّة قلّة . . . نظر إليها في

ضوء مصباح الشارع فأحس بريقاً ينطلق من عينيها فيطعنه في القلب . . . رفض يأسه . وجلس إلى جانبها يعيد الكرة مرة أخرى . . .

وأدرك وهو يحدّثها ويلحّ عليها أنها لن تكون له . لكنه أحس أن اللغة أعجز من أن تحمل لتلك المتشرّدة المطعونة بخنجر الحرب الأهلية رغبته بالموت إلى جانبها . وفجأة قرّر أن يرحل . . . لم يقل لها إنه قرّر الرحيل . تأمّلها إلى جانبه في السرير وقد استسلمت للنوم . لم يجرؤ على ملامسة جسدها العاري . . . كان يشعر أن هناك صحراء شاسعة بين جسده وجسدها . . . يكفي أنه إلى جانبها . هذا الشعور بالرضى والقناعة لم يسكنه أبداً من قبل . يكفي أنه سيستيقظ غداً ويسمع بحّة صوتها ، ويلمح بريق عينين جارحتين يفيض بالأسئلة . . . يكفي ، ولكن إلى متى ؟

في صباح اليوم التالي ، فتح عينيه فرآها تدور في الغرفة كمن أضاع شيئاً . . . كانت تعدّ له حقائبه ، وتتمتم بأغنية فرنسية تعود إلى الثلاثينات . . . نهض من السرير وهو يرتعش ألماً . . . تقدم نحوها فأمسك بذراعيها وقرّبها منه . لكنه شعر رفضاً قاتلاً . كاد أن يصرخ بكل تمزّقه : «لا أريد أن أدعك هنا . . . تعالي معي» .

وقبل أن يلفظ كلمة لاحظ أنها تبتسم تلك الابتسامة الغامضة . . . ثم تنصرف لصنع قهوة الصباح . ولحق بها ، ووقف إلى جانبها في المطبخ . . ظل يتكلم :

ـ أفهم أن الحرب الأهلية في وطنك تلاحقك . . أفهم أنك غير قادرة على الخروج منها أفهم ، ولكن . . .

وأدارت وجهها إليه متسائلة :

ـ ولكن ماذا ؟ هل نهرب إلى حرب أخرى ؟

قال :

ـ نحاول أن نخلق شيئاً . . إننا عاشقان، ومن الحبّ نستطيع أن نخلق نقيضاً للحرب .

قالت :

ـ أشعر أنه بعد بيروت لم يعد لي إلا الماضي .

قال :

ـ وماذا عن وجودك في هـذه المدينـة ؟ هل ستمضين بقيـة حياتـك تكتبين مقالات في هذه المجلة المهاجرة ؟ . . وتـذهبين في المساء إلى مقهى «كلوزري دوليلي» لمقابلة أصدقاء لم يعد لهم من عمل إلا اجترار الماضي ؟

قالت :

ـ دعك من أصدقائي . . . اجترار الماضي خير من حرب خاطئة .

وشعر أنها تريد أن توجّه إليه طعنة تشلّه عن الاستمرار في محاولـة إقناعها . فغيّر مجرى الحديث . . . وفي نهاية الصباح قال لها :

ـ قرّرت أن أؤجل سفري علّك تأتين . .

وقفت أمامه مستندة إلى الجدار الحجري البارد وتطلّعت عبر النافذة إلى شـارع «منيـل مـونتـان» في الصبـاح . . لمحت بدايـات النهـار، ولاحـظت المساحـات المضاءة بـالفجـر . . كـان الشـارع يمتلىء بـالنسـاء الخلاسيات ، والأطفال الملوّنين يحملون سلال الخبز الصباحي . بدا له مشهد وجهها الجانبي كمشهد تمثال «الحرية» لبارتولدي . وعندما لاحظ العنق الطويل ، وحبات النمش البنيّة على الأنـف تساءل في داخله «ترى ما هو أصلها ؟ . . . هذه المرأة لن يكون لها أصل واحد . . . إنها مزيج من حضارات وجروح» .

وتـذكّر إجابتها على سؤال له في هذا المعنى . . . قالت له :

ـ ولدت لآباء كثيرين ، ورغم ذلك فأمي قدّيسة لأنها اختارت الموت في اليوم الأول من الحرب الأهلية .

وعادت نحوه . . . جلسا حول طاولة خشبية صغيرة يحتسيان القهوة صامتين .

قال عمر :

ـ حدّثيني عن بيروت . . . لماذا هجرت بيروت ؟

ـ لم أهجرها . . . ابتعدت عنها لأعود إليها . لقد خفت أن أتآلف مع الموت فيصبح البكاء ترفاً، والنوم انتصاراً على الجسد .

سألها :

ـ أتخافين الموت ؟

أجابته ببساطة :

ـ نعم أخاف الموت .

سألها :

ـ وهل هدّدك الموت في بيروت ؟

قالت :

ـ مرات ومرات . . . لكنه خانني ليدعني أمارس فضيحة الحياة . . . ألا تظنّ أن حياتنا مجرّد فضيحة ؟!

سألها عمر :

ـ وماذا عن أصدقائك ؟

لم تكن تتوقع سؤاله . . . فكرت بأصدقائها قليلاً . . . أغلبهم قتل أو شُوّه . . أما خالد الذي تحوّل إلى تاجر حرب فلا ضرورة للحديث عنه . . . إن ذكراه توجعها أكثر من موت الآخرين . يوم سلّم أحد معارضي نظام دولة النفط التي يعمل لصالحها في بيروت ليعدم في اليوم التالي وسط الصحراء . . . يوم علمت بذلك ذهبت إليه كالمجنونة تصرخ ،وكانت علاقتهما قد انتهت . . . سألته بألم وفجيعة «كيف فعل ما فعله ؟» . فأجابها «إن لم يقتل برصاص نظامه فسيقتل برصاصة طائشة في بيروت» يومها لم تعد تميّز بين وجه خالد والجدار الرمادي الذي كان يتكىء إليه . وصرخت في وجهه «أنت خائن وجبان !» ضحك منها خالد . . . ولاحقتها ضحكاته .

ضحكاته الخائنة ، وهي تجري في شوارع المدينة بينما يخترق صمت الليل أزيز الرصاص ينطلق من خطوط التماسّ ، وبرج البراجنة ،

وشاتيلا ، وانتهى خالد من حياتها، لكنها لم تدرك أن نهاية خالد كانت نهاية وضعها في بيروت . وبعدها عبثاً حاولت أن تعطي معنى للمعركة التي تخوضها ، لكن لم تنجح في ذلك .

سألها عندما لاحظ صمتها :

ـ تذكّري الأسباب التي دفعتك للهرب من وطنك . ألم يكن العجز عن الخيار هو ما دفعك إلى الرحيل ؟

(آه لو يدري هذا الفارس تفاصيل ما يحدث في بيروت إذن لما حدّثني عن العجز ؟ لقد عجزت . . . فقدت بوصلتي . . . لم أجد لي موقعاً بينهم . . . كان خياري الأول أن أكون بينهم ولكن الثورة خانتني . . . أم أن الخيانة تفاصيل ؟) .

قال لها :

ـ امرأة مثلك قادرة على الخيار بين فلسطين وآبار النفط .

قالت :

ـ تحولت فلسطين هي الأخرى إلى بئر نفط .

قال :

ـ ولكن الخيار صعب .

قالت :

ـ خفت أن أغرق في البئر، وفي لحظات الغرق تصبح الرؤيا معدومة.

قال :

ـ مَنْ مع مَنْ ؟ ومَنْ ضدّ مَنْ ؟

قالت :

ـ هناك شعب يمارس انتحاراً جماعياً ـ بحجج مختلفة .

قال لها راجياً :

ـ صفي لي بيروت يا نادية . . أنا لم أرها من قبل .

قالت :

ـ بيروت لا توصف . بيروت يجب أن تعاش .

قالت :

ـ قرأت أنها كانت محطة ترانزيت . . . وملجأ يائسين . . . مبغى . . . ومقبرة سياسية . . . ثم وكراً للجواسيس .

قالت :

ـ لم تكن كما تصفها ، إن الغربة عنها جعلتني أعيها . . . وأستعيد وجهها الذي كان .

واستمرّت في حديثها عن بيروت . . . سمعت صوتها كأنه صوت إنسانة أخرى تتكلم عن مدينة لم ترها إلا في الحلم .

«كانت بيروت باحة السجن الذي يمتدّ من موريتانيا حتى الخليج . مدينة على كتف البحر تمتدّ حتى نهاية العالم ويلتقي في دروبها ومقاهيها بؤس العرب جميعاً . . . كنت أرشّحها أبداً أرضاً للثورة . . . بيروت كانت تصلح لكل شيء : مدينة عشق . . . مدينة بيانات سياسية . . . مدينة تظاهرات لأجل فيتنام ، والتشيلي ، وفلسطين . . . وأيضاً وكر جواسيس . . وسوق رقيق» .

قال لها :

ـ وماذا بقي منها ؟

قالت :

ـ كلّ شيء إلا العشق ، لقد عوقبت بما فيه الكفاية لأنها قبلت أن تستضيف بنادقهم دون إذن رسميّ .

قال :

ـ لنعد إليك . لا بد وأنك كنت عاشقة هناك ؟

قالت : أين هو الجسد المنيع الذي يستعصي على العشق ؟

قال : وهل انتهى ؟

قالت : كل قصة لاثنين تنتهي بشكل سيّء . فلا بدّ من النهايات يا عمر .

وصمتت لحظات لتضيف :

ـ عليك أن ترحل يا عمر حتى لا نعيش نهاية حبنا . . . عليك أن ترحل قبل أن تدركنا النهايات .

وتذكرت : بعد أن صرخت في وجه خالد أنه خائن وجبان سارت في طرق بيروت تحت الرصاص ، تسمع موسيقى جنائزية ترافق كسوف القمر ، بينما حان على مقربة منهما ، عند شاطىء «العجمي» أطفال كانوا يلهون ببقايا الرصاصات الفارغة . . . وكان قد مضى على بداية الحرب سنوات .

سألها عمر :

ـ وهل انتهى كل شيء ؟

قالت :

ـ مأساتنا كعرب أن لا شيء ينتهي . . . تموت الأشياء لكننا نحافظ عليها في داخلنا جثثاً متعفّنة . . . نحن نعيش وفي داخلنا بقايا ونفايات مئات السنين . . . إن ذاكرتنا لا تستطيع أن تفرز الأشياء . . . أو لنقل انتهت الذاكرة .

قال : الشعراء مثلك يغمسون ريشهم المتعبة في محابر الألم ولا يترددون في كتابة أسماء عشّاقهم ، لكنهم ينسون الأسماء القديمة .

ـ وقالت :

ـ لكنهم يبكون أيضاً بلغة متميّزة بعد أن تبحر المراكب وتتّسع الزرقة .

وسألها :

ـ نادية ، وغيابك ألا يهمّ أحداً في بيروت ؟

رجته أن يغيّر الحديث وردّدت : «لم أزل صغيرة على الذكريات ، فعندما أتعرف إلى وجهي في المرآة سأبحث عن قاتلي . . . يومها لن أكون امرأة حاولت النسيان» .

لم يتركها تسترسل في كلماتها فقاطعها :

ـ تتكلمين ألغازاً وأنا بدويّ لا يفهم .

ضحكت فكشفت ضحكتها عن صف من الأسنان البيضاء اللامعة مثل حمامة اغتسلت لتوّها في النهر .

قالت : هي المسافات يا عمر بين «الداخلة» و«بيروت» .

وتساءل عمر فيما بعد إذا كانت جملتها الأخيرة تحية وداع له . . . خاف وشعر بمعنى الرفض . . . أقسم في داخله ألّا يدعها وحيدة في هذا العالم . . . تخيّلها أمامه ملتفّة بالملحفة الصحراوية وحولها قبيلة أطفال بلون النجوم . . . تذكّر يوم عانقها للمرة الأولى في الجزائر فسألها :

ـ نادية ، ألن يكون لنا طفل يحمل وجهه حبات نمش بنّية ؟

وضعت يدها على بطنها وضحكت شبه معتذرة :

ـ من يدري . . . عندما ينتهي زمن الحرب . . عندما تتوقّف داحس والغبراء . . . عندما نسير في بيروت دون رصاص . . .

وحاول أن يقاطعها ، لكنها استمرّت في حديثها ويدها على بطنها :

ـ وعندما يتطهّر خالد من آثار خيانته !

قال لها :

ـ لا يستطيع خائن أن يتطهَّر من آثار خيانته .

أدرك عمر أنه لا يمكن أن يكون مع تلك المرأة اثنان . . . إنها كاملة تتّسع للأرض والشجر والبحر ، فكيف يحيط رجل واحد بكل هذا الكون ؟

نهضت عن مقعدها ، ونظرت إلى النافذة وبفرح طفلة التفتت نحوه :

ـ نهار مشمس في باريس . الشمس بضاعة نادرة .

أدرك أن سفره عن باريس أصبح ضرورة ، فرجل مثله لو بقي سيكون سجناً لامرأة مثلها . . . راحت تدور في الغرفة وتخلع ثيابها قطعة قطعة . ثم ترمي بها في الزوايا الأربع من المكان .

ارتدت ثياب الخروج واتجهت إلى الحمّام لتغسل وجهها بينما ظل

هو مسمّراً في مقعده غير قادر على تجميع نفسه . . . الشيء الوحيد الذي كان يدركه في تلك اللحظة هو أن موعد طائـرته بعـد ساعـات . . . وأن سفره أصبح ضرورة . . . بالأمس هتف إلى رفاقه في الجـزائر ليخبـرهم بعودته ففرحوا بالنبـأ . . . سألـه سالم إذا كـانت ستعود معـه ؟ فضحك بسخرية . . . أولئـك الرفـاق لم يعرفـوا جدران المـدن . . . ولم يعشق واحد منهم امرأة دمّرتها الحرب الأهلية . . . عندما ردّد سـالم سؤاله في الهاتف مرة أخرى ظلّ عمر صامتاً ففهم رفيقه أنه عائد إليهم وحيداً .

قبل خروجها من البيت وكان لا يزال مسمّراً في مكانه قالت له :

ـ سأصحبك إلى المطار مساء بعد خروجي من المجلّة .

ظلّ صامتاً . . . بينما كانت تغلق الباب خلفها وتقفز درجات السلم بخفّة كأنها تبدأ الحياة من جديـد . . . وفكّر عمـر آنذاك أن صـديقته لا تعرف هزيمة ، فمن يدري إذا كـانت قد قـالت ما قـالته لـه الآن لآلاف العشاق . . . وسارع يهرب من هذه الأفكـار فجمع أشيـاءه المتناثـرة في حقيبة ، ثم أغلقها وانطلق إلى باريس .

وبعد ذلك كان رحيله .

خرجت من مبنى المجلة في الساعة الثالثة بعد ظهر الخميس لتهرع إليه في مقهى «جورج سانك» رآها من مكانـه في المقهى تقطع الشـارع جرياً نحوه . . . وعندما وصلت إليه لفّت ذراعيها حول عنقه ودفنت رأسها في صدره . . . كانت في تلك اللحـظة تقاوم شـوقاً إليـه يجعلها تحـرق عنـادها وحنينهـا إلى بيروت . . . وبـدت لهما بـاريس قارّة غـربـة . . . تساءلت ناديـة في سرّهـا «إذا لم تكن بيروت ممكنـة ، فلماذا لا تكـون الصحراء ؟» .

وقف يستقبلها . . عانقها بفرح . . . بحزن . . . بجنون . . .

قال لها :

ـ طلبت فنجاني قهوة حتى لا أنتظرك وحيداً .

ضحكت ولمح الخط الفاصل بين المرأة والطفلة التائهة . . . احتسيا

قهوتهما الأخيرة وانطلقا إلى الشارع يصطدمان بالمارّة ، والراكضين إلى بيوتهم . . . كانت تبدو باريس في عينيها مدينة تجري باتجاه لا شيء . صعدا سيارتها واتجها نحو ساحة الكونكورد . . . أشارت له بيدها إلى تمثال «ماريانا» وهي تحمل في يدها سيفاً ممشوقاً وسمعها تقول كأنها تحدث نفسها «هل تصدق أن في هذه الساحة أُعدم لويس السادس عشر ثم زوجته وبعد ذلك وعلى المقصلة نفسها أُعدم روبسبيير، ودانتون ، وفوكيه ، وهبير ، ومدام رولان من قادة الثورة» .

قال لها عمر :

ـ تفاصيل الثورات قذرة .

كانت السيارة تنعطف بهما في شارع «السان جيرمان» ولاحظ اضطرابها الذي تحاول أن تخفيه بجهد بالغ .

في المطار انتظر أمام حاجز البوليس دقائق قبل أن يعبر إلى صالة الترانزيت . . . نظر إليها ، لاحظ ارتباكها . . . حاولت أن تضحك وهي تتأمل إحدى واجهات المخازن الزجاجية القريبة من الحاجز . . . نظر حيث تنظر فلاحظ دباً من الفرو الأبيض على شكل لعبة أطفال. . عاد إليها.

ـ هل ترغبين أن أشتريه لك ؟

هزّت رأسها بالإيجاب . واتجها إلى مخزن المشتريات . . . قالت له وهي تضم الدبّ إلى صدرها .

ـ إنه أوّل لعبة أعرفها في حياتي . فعندما كنت صغيرة لم أكن أملك وقتاً للعب .

وضحكا معاً ، ثم خرجا بسرعة من مخزن الألعاب ليلحق بطائرته المتّجهة إلى الجزائر . . . كانت تضم الدب إلى صدرها بفرح وكأنها امتلكت كنوز العالم . . . من خلف حاجز البوليس سمعته يقول لها «إذا أتيت إلى الصحراء سأشتري لك دبباً كثيرة . . . سأحكي لك حكاية ألف ورقة وورقة ، سأصحبك إلى النخلة . . . لا تتردّدي» .

لوّحت له بيدها اليمنى بينما كانت تحتضن الـدبّ بيدهـا اليسرى . وبعد ثوانٍ كانت تتركه وتمضي دون أن تنظر وراءها . . . وغاب عمر في زحمة المسافرين .

. . . .

تتأمّل المدينة التي وصلتها بعد رحلة الطائرة . . . خلف المدينة تمتدّ الصحراء باتّساعها اللامحدود . . . تمتدّ الصحراء برمالها الصفراء وتلتمع تحت ضوء النهار . . . الصحراء شاسعة وها هي تقطعها بعـد أن ودعت المدينة في سيارة «لاندروفر» أرسلت خصّيصاً كي تصحبها إلى مخيمات اللاجئين من أبناء الصحراء . . . يهبّ الغبار عليها من كل جانب فتحكم شدّ قطعة القماش البرتقالية التي قدّمتها لها «فـاطمة» الفتـاة الصحراويـة التي أُرسلت لمرافقتها . . . عندما لاحظت فاطمـة ضيق ضيفتها بـالغبار والعاصفة الرملية قالت لها بصوت جافّ :

ـ هنا في الصحراء ، عليك أن تتخلّي عن كثير من عاداتك .

بعد عدّة كيلومترات من الإبحار في قلب الرمال التفتت فـاطمة إلى الخلف فلمحت المدينة تغيب وسط هضـاب رملية . . . وكـانت السيارة «اللاندروفر» تخترق الصحراء ومضيفتها ملتفّة بالعباءة الصحراوية تسألها من حين لآخر :

ـ إيّاك لا بأس . . . إيّاك الخير . . . إيّاك الصحة» .

كانت نـاديـة تردّد خلف كل عبارة «الحمـد لله إنني بخير» والسيـدة تعيد ترحيبها ثم تغرق في صمت عميق حتى تظنّ نادية أنها فقدت القدرة على الكلام . . . كانت عن يمينهـا بحار من الـرمال . . . وعن يسـارها بحار من الرمال . . . ظنت أنها لن تجد في هذا الفضاء الواسـع أيّ أثر لبشر عاشوا هنا ، أو مرّوا من هنا . وكادت تسأل المرأة الصحراوية «إذا كانت تقودها إلى حتفها» .

عندما لاح لها من بعيد آثار بناء كان يبدو وكأنه المكان المقصود قالت فاطمة لنادية :

ـ إنهم ينتظروننا ، سوف تتناولين طعام الغداء معنا في الاستراحة ثم نكمل طريقنا إلى الداخل .

وفهمت أنها لم تصل بعد إلى المكان الذي سوف تجد فيه «عمر» ، فعبارة «نكمل طريقنا إلى الداخل» أفهمتها أنها لا تزال على حدود الصحراء . . . ، هزّت رأسها بصمت وترجّلت من السيارة باتجاه المبنى المتواضع . . . دار صغيرة مبنيّة من الطين ، باحة ترابية تحيط بها عدة غرف ذات أبواب خشبية مطلية باللون الأزرق ، تقدّمت فاطمة ففتحت الباب وأشارت لها بالدخول . . . لاحظت نادية أن الغرفة مفروشة بعدة حشيات على الأرض وبساط ملوّن يجلس عليه رجلان ملثّمان . لم يكن سهلاً أن تتعرّف إلى ملامحهما . . . سمعت «فاطمة» تقدّمها للرجلين :

ـ السيدة الصحافية نادية .

قالت نادية لنفسها : لا بد وأن «عمر» قدّمني إليهم بصفتي صحافية زائرة ، أو أن السيدة التي ترافقني شديدة السّرية .

عندما همّت أن تسأل «فاطمة» بعض التفاصيل تذكّرت وصيّة عمر لها عندما كانا في باريس : «لا تسألي البدوي . . . لا تطلبي إليه شيئاً » . حافظت على الوصية ، وجلست على الحشية المقابلة للرجلين الملثّمين صامتة بانتظار طعام الغداء ، تزاحمت الأسئلة والأسئلة المضادّة في رأسها ، وفكرت للحظات أن مجيئها إلى هذه الصحراء الشاسعة عبث لا معنى له ، وأن مكانها الحقيقي هو بيروت ، وأن رحيلها الدائم منذ تركت تلك المدينة التي عبر منها الصليبيون قبل قرون إلى البحر لم يزدها إلا ألماً ، وبؤساً ، عندما وصلت بأفكارها إلى هذه النقطة كادت أن تترك رفيقتها وتعود هاربة إلى باريس ، ثم إلى بيروت المشتعلة .

ونظرت نادية حولها فلم تَرَ إلا الرمال الصفراء اللامعة تحت ضوء الشمس وهي تمتدّ إلى ما لانهاية . . . «ما لي أنا وهذه البلاد ؟ الأرض مختلفة والبشر أيضاً ، وكل شيء يمتدّ نحو عالم أجهل نهايته» . عادت بذكرياتها إلى شوارع وقرى لبنان العاشق القاتل والقتيل . . . عادت إلى

أسماء محت الأيام حروفها من الذاكرة أو كادت . أسماء لم يبق منها سوى صورة لبشر يقتل بعضهم بعضاً . . . صورة لبشر يموتون مجاناً كي لا يبكوا حقيقة واقعهم . . . والصحراء هذه المرة كبديل عن المستحيل . . . وتتذكر جيداً الأيام الأولى لرحيل عمر عن باريس . شعرت بخيبة وفراغ لا حدود لهما . ولم يستطع مقهى «كلوزري دوليلي» أن يبدّد هذه الخيبة ولا أن يملأ الرفاق ذلك الفراغ . كان غيابه قد ألغى الكون بأكمله إلا تلك البقعة من الأرض التي سمّاها من كانت تظنه حبيباً «بأميرة المدن» . وكانت تجد في صحبة رفاق المقهى بعض السلوى ، لكن منذ زمن لم يعد بإمكانها تحديده لم تعد تتحمل إعادة القصص عن الماضي ، أو نوادر الأخضر عن عنصرية الفرنسيين . . . لا ولا شتائم الفجر . . . ولا حتى حكايا عبد الرحمن عن بعض الذين هجروا مصر ليناضلوا في الخارج فتحوّلوا إلى تجار قضيّة . . . لا . . . لم تعد تتحمل حتى مشروع محمد المستقبلي بإسقاط الدكتاتور . . .

بيروت تلاحقها كيفما اتجهت ، فمن أين نبع ذلك العشق القاتل ؟

بيروت . . . أخبار بيروت تطغى عليها ، اللحظات في المجلة التي تعمل فيها تطغى على ضحكات الأخضر الهازئة . . . تطغى على أخبار الإعلانات في الإذاعات . أخبار . . . أخبار كثيرة ولبنانيون تائهون في شوارع باريس . . . يوم اقترب من مائدتهم في المقهى عجوز لبناني وقال لهم : «أنا من صيدا وأرجو أن تمنحوني شيئاً من النقود يساعدني على إعالة أطفالي» . هاجمتها نوبة حادّة من البكاء لأنها كانت عاجزة عن فعل أيّ شيء لأجله ، ولأجل آلاف مثله . . . آه . . . منذ غابت بيروت عن عينيها أصبح سهلاً أن تكون أي امرأة أخرى غير نادية . . . امرأة أخرى تتّجه إلى أيّ مكان آخر . . . تأتي من أيّ زمن أو مكان آخر . . . منذ غابت بيروت أصبحت مفردات الحياة اليومية التي كانت تمنحها كما تمنح أيّ إنسان هويته بعيدة ، كل الثوابت بعيدة ، فضلاً عن أن ضباب باريس الشتائي ومطرها كانا قادرين على محو كل شيء . منذ غادرت بيروت أصبح عقلها وحده هو الرباط بين هوّيتها وجسدها ، لكن إلى متى يمكن

للعقل أن يقاوم تفاصيل الواقع ، إلى متى يمكن للعقل وحده مع انعدام أيّ صلة محسوسة بالوطن أن يظلّ هو الرباط ؟

تزاحمت الأسئلة في رأسها ذات مساء ، وهي تقطع الطريق بين مقهى «كلوزري دوليلي» وبيتها في الحي العشرين . . . حاولت أن تخلق تفاصيل واقع عربي يشدّها إلى هويّتها ، فسكنت الحي الجزائري ، وصادقت عمال «بيل فيل» وذهبت إلى مسجد باريس كلّ جمعة لتشرب الشاي بالنعنع ، لكن هذه التفاصيل لم تكن مُجدية لأنها كانت تعي أنها لا تنتمي إليها حقاً . . .

«آه بيروت يا من سُمّيت بأميرة المدن . . . لا مكالمات هاتفية لأن الكابل البحري نسفته قنبلة طائشة . . . لا مواعيد في «الهورس شو» أو «الأنكل سام» . . . لا ارتباطات بمواعيد اجتماعات مع لجان المقاومة» . . . بعيدةً عن العالم الذي يبرر وجودها . وهكذا قررت أن تهرب من باريس فاتجهت باحثة عن بديل لبيروت في هذه الصحراء الشاسعة . . . أتراها كانت تحلم ببناء بيروت أخرى ؟

سمعت الرجل الملثّم يسألها : «إذا كانت قد قضت رحلة مريحة» ؟ هزّت نادية رأسها بصمت دون أن ترفع عينيها إليه . . . في تلك اللحظة كانت كل أحلامها تتجمّع أمام عينيها في ذلك الفضاء . . . تتجمّع كحزمة ضوء صباحيّ شديد القسوة . . . لتمضي في دروب هذا المنفى الجديد . سرحت بنظرها عبر باب الغرفة المفتوح نحو الصحراء الشاسعة الممتدّة ، وأحسّت للحظات بأن الصحراء ضيّقة كالقبر ، خيّل إليها أنها ستطبق عليها بعد لحظات لتخنقها . . . خافت أن ينبض جسدها برغبة الفناء في هذه الأرض . . . خيّل إليها أن مضيفتها تسألها عن أحوالها وصحّتها وأخبار بلادها . . . خيّل إليها أنها لا تملك ما تقوله لمضيفتها . . . خيّل إليها أنها تكلمت . . . ربما كان صوتها هو الذي ردّد «إنني يائسة وبحاجة للبكاء» . . . خيّل إليها أنها ردّدت : «سوف يُذبحون جميعاً في بيروت لا لسبب إلا لأنهم رفعوا بنادقهم دون إذن» . خُيّل إليها أن أحد الرجلين الملثّمين أمسك بذراعيها وضغط عليهما كما يضغط صيّاد

على جناح طائر مجروح لم يعد بمقدرته التحليق بعيداً . تحسّست نادية جيوبها كي تتأكد أنها لم تفقد جواز سفرها اللبناني وبطاقة هويتها .

عندما انتصفت الظهيرة ، وبدأت شمس آب تترك الشرق باتجاه الغرب ، حيث تعوّد العرب منذ الفراعنة، أن يدفنوا موتاهم في البر الغربيّ ، تربّعت فاطمة والرجال حشية قطنية حول صينية نحاسية مليئة بالرزّ ولحم الغنم . . . ظلّت متردّدة أن تشمّر عن ساعديها مثلهم وتتناول طعامها . . . كان عمر يقول لها ضاحكاً وهو يراها في مطاعم باريس تعالج قطعة دجاج بالشوكة والسّكّين «إذا أتيت الصحراء فافعلي ما نفعل ، إذا أتيت الصحراء فلتأكلي بيديك ، أما إذا عطشت فانتظري كالجمال مغيب الشمس» .

انتهت من تناول طعامها ، وهي تحاول بجهد أن تقاوم الإحساس بالغربة . تأملت جدران الغرفة من حولها . كان على الجدار المقابل لها حجاب من الجلد معلّق إلى خشب النافذة . وخرجت عن تحفظها ونسيت وصايا عمر لتسأل مضيفيها عن معنى وجود ذلك «الحجاب» ، لم يجبها أحد على سؤالها ، بل لمحت ابتسامة ساذجة على وجه فاطمة .

في تلك اللحظة شعرت نادية بانقباض ، وتذكّرت المقبرة في الطرف الغربيّ من بيروت ، كادت تصرخ بالوجوه التي حولها، لكن ما أن لمحت مضيفتها تنهض حتى تمالكت نفسها ونهضت . . . لا شيء ينتهي بالرحيل ، بل الآن تبدأ الأشياء كلها . . . كانت سيارة اللاندروفر تشقّ بهم الصحراء الرملية باتجاه الأرض المحرّرة كما قالت لها فاطمة أو «ماميا» كما يحلو للرجلين الملثّمين أن يناديانها .

داخل سيارة «اللاندروفر» جلست نادية إلى جانب السائق الملثّم ، وفي المقعد الخلفي كانت مرافقتها في مواجهة الرجلين الملثّمين اللذين شاركاها الغداء . . . تأمّلت مرة أخرى تلك الصحراء الشاسعة ورأت تفاصيل الحرب الأهلية في بيروت تضمحلّ في الرمل وتغوص في قاع ذاكرة الزمن الذليل فتضيع الأسماء ، والأحقاد ، والحبّ . . . تمرّ

اللحظات بطيئة ، وتحسّ نادية وهي تبحر في الرمال بغياب المدن والوجوه . يكبر عمر . . . يكبر فيحتلّ فضاء الصحراء الواسعة . . . يكبر فيصبح الرجل الوحيد ، والهدف الأخير ، والمنقذ . تتساءل في سرها : «هل يمكن لإنسان واحد في هذه الحياة أن يكون بديلاً عن العالم كله ؟» .

وتستمرّ سيارة «اللاندروفر» في تمزيق صمت الرمال باتجاه لا تستطيع نادية أن تحدّده . . . تذكرت كبرياء بيروت رحفيف موج البحر عندما هبت عاصفة رملية فحجبت الرؤيا عن عينيها . . . ، أخذت منديلاً ومسحت الغبار عن وجهها ، بينما كانت المرأة الصحراوية تتأمّلها بفضول . منذ زمن بعيد . . . تعوّد هؤلاء البدو الرّحل التعايش مع الصحراء والرمال والفراغ . تنفّست نادية حبات الرمل وشعرت أنها في هذه الأرض أقرب إلى نفسها منها في باريس . ومن بعيد لاحت أضواء خفيفة تنبىء عن حياة ما في هذا الفراغ الشاسع ، وخيّل إليها أن المرأة الصحراوية تتكلم لتقول : «ها قد وصلنا» . وتتساءل نادية في سرّها : «وصلنا إلى أين ؟» .

عندما توقّفت سيارة «اللاندروفر» أمام مبنى متواضع تنفّست نادية الصعداء . . . ها قد وصلت إلى الرجل الذي خيّل إليها أنه الخلاص . كان يقف في الصمت ملثّماً كأبناء قومه . . . صعب عليها أن تتعرف إلى ملامحه في الظلام ، لكن فاطمة قالت لها وهي تترجّل من السيّارة «ها هو سي عمر في انتظارك» .

للحظات عبرت رأسها صورته وهو في باريس . . . صورته وهو يرجوها أن ترافقه إلى الصحراء . . . صورته في فندق «اليتي» وهو يحاول إقناعها بعدم الرحيل إلى تونس . سمعت صوته يفجّر في أعماقها كلّ حنان الأرض ، كل الحب والشوق واللهفة التي فارقتها منذ فارقت بيروت . . . سمعت صوته يهتف باسمها ، وفتح ذراعيه على مداهما ثم اقترب منها . في عتمة الليل الصحراوي المليء بالسحر والغموض ضمّها إلى صدره ، وبدت الأشياء من حولها شفّافة وصافية . . . رأت وجه عمر

يضيء على العالم كله . . . حاولت أن تتنفّس ضوء الصحراء عندما سمعته يقول لها : وأخيراً أتيت إلى الصحراء أيتها المجنونة !

قالت : لم أجد بديلاً .

قال : سأصحبك ونذهب معاً للبحث عن النجوم .

اختنقت بالدمع والحزن ، والحسرة ، والفرح ، عندما أدركت أن عمر لم يتغيّر . هذا المجنون البدائيّ الرائع الذي يتّسع صدره للعالم بأسره ، هذا الرجل الذي لم تكسره الحرب الأهلية بعد .

قالت له : قطعت مسافات طويلة في الصحراء ولم أسمع صوت طائر ، هل طردتم الطيور من بلادكم ؟

نظر إليها بعتب قبل أن يجيبها : «هل أنت على استعداد لمواجهة نفسك بصدق ؟»

قالت : هربت إليك من عالم لم أستطع أن أغيّر فيه شيئاً .

قال : نسيت أن تحملي معك الدبّ الذي اشتريته لك في المطار .

ضحكت بينما يده تمسح شعرها الليليّ بحنان . سألها : «أما زلت تحبينني كما في باريس ؟»

قالت : للصحراء حبّها الآخر . . . سأحبّك هنا دون حدود أو مسافات أو أبراج كنائس ، أو مآذن مساجد . . . سأضمّ صوتك إلى صدري وأهتف به» .

قال لها : دعينا من الشعر يا نادية ، أنسيت أنني تعلمت في مدارس المستعمرين وكانت لغتي محرّمة عليّ ؟

قالت له : ألم تنته قبائلكم إلى الثورة ضد المستعمرين ؟

قال لها : لقد ثرنا بلغتهم وقاتلنا بحنيننا .

كانت مرافقتها قد اختفت من باحة الرمل الممتدّة أمام المبنى . . . غابت في الظلام ، فظلّت إلى جانبه وحيدة وسط ذلك الليل الآسر ، تحت أضواء النجوم التائهة .

ناداها بصوت راعش : نادية اقتربي مني .

نظرت إلى وجهه بعد أن كشف اللثام فلمحت في ضوء القمر الصحراوي عينيه الرائعتين . . . لمحت تلك المسافات المضيئة التي تصل بها حتى بيروت . وقبل أن تقترب منه مرّ في ذاكرتها بشكل عابر وجه خالد الذي تحوّل إلى تاجر سلاح . . . سمعت صوته يلاحقها كالسوط ورأت نفسها وحيدة في شوارع بيروت في بداية الحرب ، تركض نحو صدر خالد لتحتمي من مدينة على حافة الجنون . . . كان خالد آنذاك فقيراً ، ونقياً ، وصديقاً ومحباً . وكان يحلم ببيروت أخرى ، وأمة أخرى ، ومستقبل لشعب شديد الانتماء إلى تاريخه . . .

تطاردها الذكريات وعمر إلى جانبها . . . تطاردها الذكريات بلا رحمة . . . تطاردها بيروت ، وخالد ، والحرب . وكل ما مضى . . . وكل ما كان . . .

ها هي هناك ، في شارع الحمراء ، إلى جانبه وهما يتركان مبنى المجلة التي يعملان بها ليواجها معاً أزيز الرصاص يخترق خطوط التماس . . . يتشرّدان تحت ظلال الخوف في الشوارع المقفرة . . . تسمعه يردّد على مسامعها أحلامه . . . يردّد قائلاً : كم أشعر بالغربة في بيروت . . . كم أشعر بالنفي في وطني . . . تسمع نفسها وهي تجيبه : يجب أن نقاتل حتى يصبح الوطن وطننا . ولم تكن تدري أنها تقاتل لتدمّر الوطن نفسه . . . كان خالد بالنسبة إليها يمثل رائحة الأرض التي تُعشق ، والثورة التي تنتظر ، والمستقبل الذي يلوح في الظلام نجوماً . . . تتنقل وإياه من شارع إلى شارع لتوزع النشرات والمؤونة على المقاتلين ، تردّد وإياه الشعارات والأناشيد الثورية . . . تعود معه في الفجر إلى مبنى المجلة لتراه وراء مكتبه يكتب كلمات تتحول في اليوم التالي إلى أحلام يرددها شعبها بأسره . . . خالد وحده الذي استمرّ في حياتها صرخة شوق وهي تعيش وقع الحرب الأهلية التي ظنّت أنها ستحرّر وطنها من التبعية والاستسلام للسقوط . . . خالد الذي قال لها

وهما يقطعان كورنيش المزرعة باتجاه البحر : «سوف ننجب أطفالاً بعدد النجوم ليقاتلوا بعدنا من أجل قضيتنا» .

لكن خالد تغيّر فيما بعد . . . تغيّر مثل كثيرين من أبناء شعبها . . . فعندما اشتدّت الحرب الأهلية ، واختفت الحدود بين الأشياء . . . عندما سقط تل الزعتر وتعفّنت الجثث . . . وهاجرت النساء إلى الجنوب ، أصبح خالد يتحدّث عن الثورة ، والأمان ، والمستقبل الآخر في مكان ما . . . خارج لبنان . . . أصبح صوت خالد شبيهاً بأصوات القتلة . . . أصبح يردّد على مسامعها لغة غريبة «لا يمكن أن نقاوم التيّار» و«لا وطن لنا إلا جيوبنا وتلك الخربشات على الخرائط» و«لنهرب إلى أرض أخرى لنبني مستقبل أطفالنا في مكان آخر» . عبر هذه اللغة أدركت نادية أن خالد أصبح ثرياً وتحوّل إلى تاجر سلاح بعد أن ربط مصيره بنظام دكتاتوري لا يتورّع عن ذبح أبنائه . . . هكذا انتهى خالد في أعماقها ، لكنها لم تستطع بعده أن تتحمل العيش تحت سماء بيروت المشتعلة . . . لم تستطع بعده أن تواجه الشوارع ، والطرقات ، ووجوه الرفاق من المقاتلين . لكن ما هو أخطر من كل ذلك : انها لم تعد بعده قادرة على الحب أو الحرب .

يناديها عمر : «نادية . . . هل قرّرت أن تعيشي إلى جانبي هنا ؟» تظل صامتة ، فيقترب منها ويشدّها إليه . . . يقبّلها في عينيها ثم ينقل شفتيه إلى عنقها . . . صدرها . . . وتغيب المسافات بينهما . . . تجد نفسها إلى جانبه فوق الرمال الباردة وهو يهمس بفرحٍ «لم أكن أتوقّع مجيئك» تضحك بمرارة وهي تجيبه : «لم أجد بديلاً لبيروت فأتيت إليك» .

في تلك اللحظة من الزمن الصحراوي . . . في تلك اللحظة التي غاب فيها خالد ليشرق عمر . . . في ذلك المكان البعيد البعيد ، أحسّت نادية أنها موزّعة على أشلاء الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه . . . جسداً ممزقاً وذاكرة مجنونة . . . صحراء شاسعة وصدر رجل . . . صدر رجل يتسع لحزنها الفارع كشجر الحور . . . أسئلة تائهة . . . أسئلة

مجنونة «هل يمكن أن يتحوّل عمر في يوم ما إلى خالد آخر ؟» . تطرد السؤال من رأسها وتبتعد عنه مسافة تسمح لها أن تتأمّله . . . مساحة تسمح لها أن ترصد تلك الرغبة المجنونة في عينيه . . . يتفصّد جسدها عرقاً عندما تسمع صوت انفجار يأتيها من بعيد . . . تقترب منه مرة أخرى : «إنني خائفة» ويضمها إليه بحنان : «لا شيء ، رفاقنا يتدرّبون على الرمي . . . اقتربي مني» . وتقترب منه أكثر فأكثر . . . يمتلكها تحت وهج الليل وأزيز الرصاص . . . وعندما تهدأ اللحظات ويستريح الجسد تسمع صوته يسألها :

ـ هل تجيدين الرمي وإطلاق الرصاص ؟

تجيبه دون وعي :

ـ نعم .

يسألها مرة أخرى :

ـ هل سبق وأصبت هدفك ؟

تقول : في بداية الحرب الأهلية أصبت أهدافاً كثيرة ، وعندها اختلطت الأمور وضاعت الرؤيا لم أعد قادرة على إصابة الهدف .

قال لها : لنحاول أن ننسى الحرب ، والرصاص ، لنحاول أن نذهب للبحث عن النجوم .

قالت : ألن يلاقينا مسلّحون غرباء في طريقنا إلى السماء ؟

قال : إن حواجز العدوّ على الطرف الآخر من الصحراء .

قالت : سأنهض بعد قليل لارتدي معطفي اتقاء لبرد الصحراء .

قال : ستتعودين ليلنا بعد قليل .

وقفزت من مكانها . . . نظرت إليه ممدداً فوق الرمال الباردة يتأمل السماء . . حاولت أن تقول له شيئاً فلم تجد الكلمات . . مؤامرة صمت مشتركة تعصف بهما وهما يتجهان إلى سيارة «اللاندروفر» . يأخذ عمر شالاً ويلف به رأسها . «حتى لا يؤذيك رملنا» ، يقول لها ذلك ، ثم تنطلق السيارة بهما في عرض الصحراء .

يردّد عمر على مسامعها «أية نجمة تريدين ؟» يفاجئها سؤاله . . . تشعر بغصّة حقيقية . . . تشعر برغبة جامحة في البكاء : «لا أريد نجوماً يا عمر . . . جئت أبحث عنك ، وها أنت تبحث عن النجوم» . يتوقف فجأة ثم ينحني عليها محاولاً النظر إلى السماء من نافذة السيارة . تسمع صوته يردّد على مسامعها :

ـ لقد قاتلت بانتظارك ، لكني كنت أخاف الموت وأنت بعيدة . . .

قالت : ما أشبه هذه السماء بسماء بيروت !

يبتعد عنها وينظر إلى وجهها الغارق في الذكريات : «أما زلت تعتقدين أن حربنا شبيهة بحرب بيروت»؟!

تهز رأسها بصمت ، تخرج من حقيبة يدها علبة سجائر فتشعل واحدة . . . تنفث دخانها ببطء وتردّد : «كل الحروب العربية شبيهة بحرب بيروت» .

قال لها : أما قضيتنا فهي تستحق أن نقاتل لأجلها .

ضحكت بسخرية : أنتم تقاتلون بينما يجري دم شعب واحد نحو البحر . . . الأرض واحدة . . .

يقول بغضب : لا يمكن أن نعشق ونحن على طرفي نقيض . . . سوف يشتعل حبنا كراهية .

ظلّت صامتة . . . ظلّ صامتاً . . . هبّت ريح باردة فبعثرت الرمال والذكريات . . .

في تلك الساعة من ليل الصحراء ، قرر عمر أن يروي لنادية قصة حياته ، ودون أن يسألها إذا كانت على استعداد لسماع كلماته بدأ يتكلم كأنه يحدث نفسه :

«كنت طالباً في كلية الحقوق بجامعة الرباط عندما انفجرت حركة المقاومة ضد الإسبان في الصحراء . . . تركت الجامعة واتجهت إلى «الداخلة» لألتحق بالمقاتلين . . . أصبحت مقاتلاً . . . كنت أعرف ملامح العدو بوضوح فلم أخطىء هدفي . . في بداية ثورتنا كان كل شيء

واضحاً . حاول الجيران مساعدتنا بينما كانت الشرطة تلاحقنا في شوارع الرباط ، والدار البيضاء ، وفاس كمجرمين . . . لكن ذلك لم يمنعنا من الاستمرار في المقاومة من أجل تحرير أرضنا . . . كان سلاحنا في البداية بعض ما تبقى من آثار الحرب العالمية الثانية ، ثم نجح رفاق في أوروبا أن يوفروا لنا ما يساعدنا على الاستمرار في المقاومة حتى كان النصر وانسحاب الإسبان . . . يومها تذكّروا أن الصحراء جزء من الأرض التي ورثوا حكمها عن أجدادهم فحركوا جيوشهم ضدنا ، ومنذ سنوات ، ها نحن نقاتل لتحرير شعبنا .

قالت نادية : ولكنكم تقتلون أبناء شعبكم في حرب خاسرة .
قال : إننا نطمح إلى دولة نملك فيها أنفسنا وقرارنا .
قالت : دولة جديدة في وطن عربيّ تمزّقه الحدود والدول .
قال : نقول إننا نرفض أن نخضع لسلطته .
قالت : الوطن أكبر من السلطة ، والأرض أكثر خلوداً من الملوك .

صمت . . . وصمتت ، بينما راحت عيناها تتأملان السماء الخالية من النجوم . . . لمح وجهها يضيء في عتمة الليل فيمعن في تعذيبه . أحسّ قدرتها الهائلة على إيقاع الجرح والطعن . . . كاد أن يصرخ بها «إن المسافات بعيدة شاسعة بيننا» أخذ يقود السيارة وضغط على كابحها ، فعلا هديرها في صمت الليل . . . مضى يشقّ الطريق نحو المعسكر حيث رفاقه . . . سألته ببرود قاتل : «إذا كان يعرف جيداً خطّ سيره في هذه الصحراء ؟» فأجابها بهزة من رأسه . . . ظلّا صامتين . . . وأحسّت نادية صمته اعترافاً بالعجز عن أن ينقل إليها قضيته . . . كانت تحسّ قضيته كأحد تفاصيل الضياع في عالم عربي ممزّق ، ولا تدري كيف تذكّرت في تلك الساعة سقوط غرناطة . خيل إليها أنها تلمح عن بعد خيال «أبي عبد الله الصغير» آخر حكام الممالك العربية في الأندلس يختبىء خلف أشجار الحور البرية وهو ينشج باكياً ملكاً أضاعه . أدركت بمرارة بأن ما يجري في بيروت ينشر عدواه على كل الخارطة العربية ، تذكّرت جملة قالها لها خالد قبل أن يتحول إلى تاجر سلاح : «إن لبنان

هو ميزان حرارة الوطن العربي ، إذا كان ذلك الوطن يتمتّع بصحة جيدة فلبنان ينعم بالاستقرار ، والعكس صحيح» .

صامتان والسيارة تقطع بهما المسافات الرملية . . . كانا يسيران على غير هدى ودون هدف محدّد . . . تذكرت نادية باريس ومقهى «كلوزري دوليلي» . . . حاولت أن تطرد الذكريات من رأسها وخافت أن تشعر فقدان الأخضر ، ومحمد ، وعبد الرحمن ، وفاضل . أحسّت أن حنينها إليهم يمتزج بحنينها إلى ماضٍ أكثر نقاوة ، وأوضح حلماً من هذا الواقع . . . هذا الواقع الذي خلفته الهزيمة أمام العدوّ الحقيقي ، أمام الخطر الشبيه بسرطان يجتاح الجسد بسرعة مذهلة .

أية قضية هذه ؟ كيف يمكن لهذا الوطن الواسع الشاسع الذي تنتمي إليه أن يخرج من المأزق الذي يعيشه ؟ ثم كيف يمكن أن تحدث المصادفة التي ساقتها إلى حبّ رجل هو الآخر يخوض حرباً أهلية تؤدّي إلى الموت والإمعان في تمزيق الحلم الذي تربّت عليه ؟ لماذا هي هنا ؟ ترى أليس من الأفضل أن تعترف بمسؤوليتها وعجزها عن مواجهة الحقائق ؟ أم من الأفضل أن تغادر هذه الصحراء إلى بيروت دون أن يشعر بها أحد ؟ لكن ماذا لو ضبطت متلبّسة بالهرب ؟ . . . ربما كان من الأفضل لها أن تعترف لعمر بأن قضيتيهما خاسرتان ؟ ولكن كيف ستعترف ؟ وكيف سيعترف هو ؟

كانت تتصبّب عرقاً رغم برود الطقس الصحراوي في الليل ، وظلّت مستغرقة في الصمت محاولة البحث عن مخرج من هذا المأزق . . . أخذت تردّد لنفسها همساً : «هناك حقيقة واحدة ينبغي أن أتمسّك بها مهما كانت الظروف : «إن مستقبل الأمة التي أنتمي إليها بريء من هذه الحروب الفظيعة التي يشغلوننا بها» .

أحسّت فجأة بغربة قاتلة . . . غربة تضرب جذورها في أعماق الروح . . .

كم تكثّف هذه الصحراء إحساس المرء بالغربة !

ومضت سيارة «اللاندروفر» تشقّ المسافات التي لا حـدود لها . . . وغرقت نادية في تأملاتها عما سمعته وقرأته عن حرب الصحراء «قريباً من مدينة تندوف آلاف اللاجئين القادمين من مدينتي «العيـون» و«الداخلة»، آلاف من الأطفال والنساء والشيـوخ لا يدركـون شيئاً عن مستقبلهم . . . آلاف تحمل لهم الطائرات غذاءهم وماءهم ، وثيـابهم ، ثم يستيقـظون كـل صباح ليـودعوا من بلغ من الأطفـال سنّ الرشـد باتجـاه المـوت» . وتساءلت . . . ترى لماذا الموت هنا ؟ ترى لمـاذا الموت في بيـروت ؟ ترى لماذا الصمت في القدس ؟

فجأة توقّفت سيارة «اللاندروفر» ، وكان إحساسها بالخيبة قد وصـل إلى الذروة .

فجأة جذبها عمر إليه ، لم تشعر برغبة في المقاومة . . . وعلى مدى الصحراء أحسّت بنبض جسدها حاراً ورطباً كحقيقة وحيدة في هذا العالم التائه . . جذبها من يدها وهبط من السيارة ليفترشا الرمال الباردة . حاول أن يمتلكها وحاولت أن تمنحه نفسها، لكنهما شعرا بعجز قاتل ، وأدركا أن البديل عن الحبّ الضائع هو الرغبة بالموت . . .

قال لها وهو يحاول أن يقاوم عجزه «لو بقيت هنا لقدتك إلى مـدينة العيون ، وعرّفتك على البيت الذي ولـدت فيه ، لحـدثتك عن المحيط وأشجار الـروزبيس . . . لو بقيت هنا . . . » .

قبـل أن يتم عبارتـه سمعهـا تـردّد «لـو بقيت هنـا ستحـرقني رمـال الغربة . . . وشظايا حرب لا أؤمن بها» .

قال لها كأنه لا يفهم ما تعنيه : «حاولي أن تكوني امرأة وانسيْ نيران حرب بيروت» .

قالت : «كل حروب الخارطة العربية هي حرب بيروت» .

قال لها : «أحـاول أن أفهمك . . . هـذا الإحساس بـالانتماء لكـل مآسي الوطن يجعـل منك مئـات النساء ، والأوطـان ، والقضايـا» لكنك لست امرأة عاشقة .

قالت : ما يزيد في حزني ، هو اكتشافي لهذه الحقيقة .

قال : لكن حربنا تحمل بعداً آخر . . . نحن هنا عشنا تحت ظل حكم فرانكو سنوات طويلة كانوا يسوقون نساءنا كالقطيع ليغتصبوهنّ أمام عيوننا ، لكننا استطعنا أن نستمدّ من رمال الصحراء القدرة على الرفض ، وبداية الخلاص .

قالت : متى هجرت الصحراء ؟

قال : عندما كنت طفلاً لم أكن أصدق أن خلف الرمال يعيش عالم رجال ونساء وأشجار . . . عندما رحلت إلى الرباط وصادفت أول جدار ركضت عائداً إلى صدر أبي وبكيت .

قالت : لم تستطع أن تقبل ذلك أو تفهمه .

قال : ما بين الرباط ، ومدريد ، وباريس ، ولندن عشت كابوس الغربة والوحدة ، لكن هذا الكابوس لم ينجح في محو ملامح الهويّة القديمة .

قالت : تقصد ملامح القبيلة وتقاليدها .

قال : إنها الحقيقة الوحيدة في هذه الأرض التي نسمّيها الوطن .

ضحكت بمرارة وحزن وهي تتذكّر نقاشها مع رفاق المقهى في باريس . . . كانت تحدّثهم عن وطن عربي ، وكانوا يحدّثونها عن دول وحكومات . . . كانت تحدّثهم عن حرب لا جدوى منها في لبنان ، وكانوا يفسّرون الحرب بصراع الإيديولوجيات . . . والطوائف والأديان . . . كانت رافضة للحرب هاربة منها ، وكانوا يسمّونها متخاذلة . . . ورغم ذلك ؟ . . .

كل شيء من حولها يؤكّد رؤياهم ويكذّب إيمانها ، ورغم ذلك ظلت وحيدة تردّد ما تعلمته وهي صبية يافعة في «المنظمة الثورية» التي انتمت إليها . . . كانت كل ليلة في المقهى تؤكد لها خيبة رفاقها . . . محمد هارب من عشرة أحكام بالإعدام لأنه قرر أو آمن بأن الاستقلال السياسي وحده لا يكفي .

فاضل أحس أن الثورة لم تستوعبه ، بل نفته ليعيش وحيداً ودون عمل في باريس . . .

الأخضر هاجر من موريتانيا يبحث عن الوطن ـ الأمة ، وعاد بعد سنين وخيبات ليجد مأوى في باريس لم يجده في أي مكان آخر على سطح الأرض العربية . . . وها هو عمر يعتقد صادقاً أن حدود وطنه هي حدود الرمال التي تفصله عن جدران مدن المغرب .

أية أمة تلك التي تحلمين بها يا نادية ؟ ألم يخطىء رفاقك في المنظمة الثورية عندما علّموك أنك تنتمين إلى أمة تمتدّ من الأطلس حتى جبال طوروس ؟ قولي ألم يخطئوا ؟!

تزاحمت الأسئلة والذكريات في رأسها ، وعمر إلى جانبها على الرمال الليلية الباردة ، ينظر إلى السماء لأنه يعتقد وحيداً بوجود نجوم لم تستطع أن تراها .

التفت إليها قائلاً : «أنت امرأة تبحث عن المستحيل ، وربما في هذه الصحراء إجابات كثيرة على أسئلتك ، ففيها بدأ أجدادي مغامرة وجود لا تزال مستمرة حتى اليوم ، وفيها وجدوا الإجابات النهائية على أسئلتهم» .

قالت بخيبة من أعيته الأسئلة من دون إجابات «كل الأرض العربية صحراء واسعة . ورغم ذلك لم أجد الإجابة على سؤال واحد هو : «من أنا ؟ وإلى من أنتمي ؟» .

قال : «لكن الصحراء أنت ، وأنا ، ولامتطاء أمواجها لا بد من خيول أصيلة تعرف الطريق إلى ما تخفيه الرمال من كنوز ، وطعام للبطون الجائعة ، وإجابات عن أسئلة ظلت بلا إجابات» .

قالت : «لا بد وأن الحياة كانت قاسية في زمن الاحتلال» .

قال : «مع الاحتلال أو من دونه علينا أن نعيش الصراع الأزلي مع الطبيعة حيث تأخذ الأمراض ، والرحيل والعطش حصّتها ويربح الباقون حياتهم منها» .

قالت : «إنه قانون الحياة الأزلي : البقاء للأقوى» .

قالت نادية ذلك وتذكّرت ذلك الثعلب العجوز «الأخضر» المتشرّد على أرصفة باريس . وسألت : «من علمكم أن تبحثوا عن الدولة وسط هذه الرمال » .

تردّد عمر قليلاً قبل أن يجيب «الملك» .

وعندما لاحظ نظرة استغراب في عينيها قال :

ـ «إن الملك اضطهد آباءنا حتى فرّ منهم من فر إلى عمق الصحراء . واجهوا المدافع الثقيلة للإسبان ، ومئات الجنود ، وموسيقى عسكرية ورايات ملوّنة : كان عليهم أن ينسوا ماضيهم ويبدأوا في تنظيم المجتمع الجديد وفق القواعد القديمة» .

قالت له : «تقصد أن الإسبان ساعدوكم على تجاوز وحدة الانتماء ؟»

ضحك عمر بشيء من السخرية وردّد :

ـ من المستحيل أن يفهمنا عرب المشرق .

وأخذ عمر يروي شيئاً من تاريخ لا تعرفه نادية .

«في الصحراء حدثت أولى معارك الاستقلال للبلاد بأسرها ، عليك أن تتذكّري كيف كانت هذه الصحراء مأوى لجيش التحرير . . . عليك أن تتذكّري كيف أعلنّا من هنا العصيان ضد الفرنسيين ، عليك أن تتذكّري أن آباءنا استشهدوا من أجل الوطن ، عليك أن تتذكري هذا لكي تفهمي موقفنا الآن» .

كانت نادية تفكر في تلك اللحظة بأسماء قرأت عنها في كتب التاريخ الحديث : علال الفاسي ، عبد الكريم الخطابي ، محمد الخامس ، عبد القادر الجزائري ، العربي بن مهيدي ، . . . وآخرين ، وآخرين من قادة الانتفاضات ضد المستعمرين الذين سمّاهم الفرنسيون بالمجرمين . . . نظرت حولها في مدى تلك الصحراء الواسعة . . . كم من أصوات البنادق ردّدت هذه البقاع ؟ ولكن إلامَ انتهى كل ذلك ؟ نعم

قالت : «إنه قانون الحياة الأزلي : البقاء للأقوى» .

قالت نادية ذلك وتذكّرت ذلك الثعلب العجوز «الأخضر» المتشرّد على أرصفة باريس . وسألت : «من علمكم أن تبحثوا عن الدولة وسط هذه الرمال » .

تردّد عمر قليلاً قبل أن يجيب «الملك» .

وعندما لاحظ نظرة استغراب في عينيها قال :

ـ «إن الملك اضطهد آباءنا حتى فرّ منهم من فر إلى عمق الصحراء . واجهوا المدافع الثقيلة للإسبان ، ومئات الجنود ، وموسيقى عسكرية ورايات ملوّنة : كان عليهم أن ينسوا ماضيهم ويبدأوا في تنظيم المجتمع الجديد وفق القواعد القديمة» .

قالت له : «تقصد أن الإسبان ساعدوكم على تجاوز وحدة الانتماء ؟»

ضحك عمر بشيء من السخرية وردّد :

ـ من المستحيل أن يفهمنا عرب المشرق .

وأخذ عمر يروي شيئاً من تاريخ لا تعرفه نادية .

«في الصحراء حدثت أولى معارك الاستقلال للبلاد بأسرها ، عليك أن تتذكّري كيف كانت هذه الصحراء مأوى لجيش التحرير . . . عليك أن تتذكّري كيف أعلنّا من هنا العصيان ضد الفرنسيين ، عليك أن تتذكّري أن آباءنا استشهدوا من أجل الوطن ، عليك أن تتذكري هذا لكي تفهمي موقفنا الآن» .

كانت نادية تفكر في تلك اللحظة بأسماء قرأت عنها في كتب التاريخ الحديث : علال الفاسي ، عبد الكريم الخطابي ، محمد الخامس ، عبد القادر الجزائري ، العربي بن مهيدي ، . . . وآخرين ، وآخرين من قادة الانتفاضات ضد المستعمرين الذين سمّاهم الفرنسيون بالمجرمين . . . نظرت حولها في مدى تلك الصحراء الواسعة . . . كم من أصوات البنادق ردّدت هذه البقاع ؟ ولكن إلامَ انتهى كل ذلك ؟ نعم

انتهى إلى الانتصار الأخير في تاريخ العرب . . . الأخير والوحيد منذ الأندلس وحتى اليوم : إنه الثورة الجزائرية» .

ولكن الثورة أصبحت دولة ودخلت في دوّامة الدويلات .

قال لها وقد لاحظ صمتها البالغ : لقد تحدثنا عن كل شيء إلا عنك وعني . قولي «لماذا أتيت إليَّ ، وهل تنوين البقاء ؟ اسأليني : ماذا سأفعل وكيف سنعيش ؟» .

تربعت جالسة وحاولت أن تردّ بيدها شلال شعرها الأسود الليلي إلى الوراء .

ـ حسناً لنتحدث عنك أولاً ، ماذا ستفعل ؟ أو بالأحرى ماذا تفعل ؟

ضحك عمر قائلاً :

ـ لا شيء . . . أقاتل من أجل دويلة أحلم باستقلالها .

قالت نادية :

ـ ها قد عدنا من جديد للموضوع إياه ، ألا يكفينا أعلاماً وأناشيد في هذا الوطن ؟

قال محاولاً تغيير مسار الحديث :

ـ أيتها المرأة انتظرتك أن تأتي امرأة ، فجئت قارّة أسئلة لا أملك الإجابات عليها !

كان الليل هادئاً من حولهما لا يخرق صمته إلا صوت حفيف الريح الشرقية وهي تصطدم بالكثبان الرملية المتناثرة هنا وهناك . . . ونهضا معاً متجهين إلى سيارة اللاندروفر علهما يلحقان بأحد المعسكرات قبل الفجر . . .

شعرت نادية بغربة حقيقية عما حولها وكادت أن تقول للرجل الذي تخيّلت أنها تحب «إنني أشعر بالغربة» قبل أن تنطق بحرف مما يندفع في أعماقها ، سمعت عمر يقول كلمات خيّل إليها أنها فهمت بعضها . . . كما خيل إليها أنها أجابت على بعضها الآخر . . . خيل إليها أنه قال :

«إن هذه الصحراء ليست كالصحراء المشرقية ، ففي رمالها اختزنت تاريخ الرومان واليونان وملوك أوروبا ، وحضارة الحروب . . . كما اختزنت حضارة الصبر والتكيف مع العطش والقوانين المحفورة في الذاكرة . . . كذلك اختزنت آخر أناشيد المعتمد بن عباد وتاريخ الممالك المتهاوية» .

خيل إليها أنها أجابت بشيء شبيه بـ « أن كل شبر من الأرض في الشرق قد اختزن سر الآلهة وأساطير المطر ، وغزوات هولاكو ، وسقوط بغداد واقتلاع الفلسطينيين من جذورهم » .

استمر الليل الصحراوي الأفريقي يدفع بهما نحو المجهول . . . تحمل الريح إليهما أصوات حفيف الرمل . . أصوات تاريخ مضنٍ وما تزال ذاكرة كل منهما تمعن في احتضانه . . أحست نادية بوحشة وشوق للبحر الأزرق الذي يحتضن بيروت ومن فيها . . . أحست بحنين جارف إلى كل شارع في بيروت . . إلى كل حاجز إلى كل رجل . . . إلى كل امرأة . . . أحست بالرغبة القاتلة في الرحيل فسألت عمر :

ـ وإذا رحلت إلى بيروت هل تأتي معي ؟ .

أجابها :

ـ لا أستطيع أن أترك رفاقي وقضيّتي .

كانت جملته الأخيرة على بساطتها كافية كي تحدّد لنادية موقعها على خارطة حياة هذا الرجل الذي يقودها نحو المجهول، تأتي أو لا تأتي، ترحل أو لا ترحل، فهو هنا لأنه يؤمن بقضيّته ورفاقه . . أما هي فقد هجرت الرفاق واكتشفت زيف القضية فإلى أين تمضي ؟ كادت تصرخ بحرقة الأرض كلها « خالد لماذا سقطت وتحولت إلى تاجر سلاح ؟ . . . لماذا انتهيت ؟» .

لكن صرختها اختنقت في حنجرتها وهي تتذكر واقع اليوم ومكان وجودها على الخارطة . . . أغمضت عينيها نصف اليقظتين . . نصف النائمتين ورحلت بعيداً .

« ها أنت تسيرين تحت وابل الرصاص في بيروت باتجاه

الفاكهاني . . ها أنت تركضين من شارع إلى شارع للبحث عن جثة عاصم صديقك ورفيقك بعد أن أخبرك خالد أن ثلاث رصاصات من مسدس مجهول اخترقت صدغه فأردته قتيلاً . . . كان عاصم أعزّ الأصدقاء وأكثرهم نبلاً . . . قاوم مثلك السقوط طويلاً . ورفض كل المغريات ليظل وحيداً وشريفاً . . . ، وفقيراً . . . كان عاصم شاهد حبّك الأول مع خالد . . ثم شاهد سقوط خالد بكل التفاصيل والأدلة . . وبقدر ما طعنك ذلك السقوط في القلب بقدر ما رفع عاصم إلى التمسك بكل المبادىء التي تربيتم معاً داخل المنظمة عليها . . . كنت تضيقين ببيروت ورصاصها فتذهبين إليه ليعلّمك الصبر والحلم . ألم يعلمك عاصم معنى الحلم بالمرايا ، ومتاهاتها ، وانعكاساتها ؟ ألم يقل لك : لتظلّي رائعة وسترين العالم رائعاً من حولك . لكن أحلام عاصم على روعتها كانت أكثر خيالية من أن تحتمل . . . كان عاصم يعيش زمن الحرب في بيروت دون قيود ، لأن الزمن لديه عبارة عن ذاكرة وخيال وإبداع . . . رفض أن يترك بيروت ويسافر ، وكان يطلب من أصدقائه بعد كل سفرة خارج لبنان أن يصفوا له الأماكن والموانىء وواجهات المخازن والمتاحف في المدن التي زاروها ثم يتخيّلها فيما بعد . كان يقول لك وأنت تعانين لكي تبرأي من حب خالد : سوف تبرئين من هذا الداء وتعودين كما كنت . . سوف تكونين عنقاء بيروت ، ويصبح خالد مجرد ذكرى لا تتوقفين عندها طويلاً . . . كان عاصم بالأحرى هو عنقاء بيروت ، وليس أنت التي رحلت وتركتها تحت الشظايا ، ولعلّك تتذكّرين اليوم بجدّ كيف رفض عرض خالد أن يعمل معه كرئيس تحرير للمجلة التي أسسها بأموال دولة عربية حصل عليها مقابل تسليمه قائمة بأسماء معارضين للنظام في تلك الدولة . . . تفصيل آخر من تفاصيل علاقتك بخالد يوجدك كثيراً في هذه الغربة . . لقد قُتل كلّ من سلّم أسماءهم في حوادث غامضة لا يستطيع أحد أن يحدّد هوية فاعليها .

نعم سقط خالد وهذا ما تعنيه الآن جيداً . بينما ظل عاصم صديقكما هناك تحت الرصاص فارعاً كنخلة . تحوّل خالد إلى ثري جديد من أثرياء

الحرب وغاب ذلك الوجه الذي أحببت. كانت مجلته تصر على إبداع النظريات الثورية المتلاحقة بينما يطوف هو عواصم أوروبا بحثاً عن صفقة سلاح جديدة لا يهم من يكون البائع فيها أو المشترى. . . مرة يرسل بها إلى المتقاتلين في لبنان ومرات ومرات ومرات إلى حكام مجهولين يحكمون بالحذاء العسكري في أفريقيا وأميركا اللاتينية . إنك الوحيدة التي تعرف حقيقة عمل خالد ، فقد نجح في خداع كل من عرفه إلا أنت . . . لم يخدعك لأنك أصررت بصمت على معرفة الحقائق والإدانة الصامتة .

تذكرين يوم التقيتما صدفة في مقهى « لوفوكيت »؟ وهرع إليك بلهفةٍ وحدك من يفهم أسبابها وبواعثها . . هل كان يريد أن يشتري باللهفة صمتك لأنك الوحيدة الوحيدة التي تعرف أسراره ؟ . . لماذا ذلك الحماس والشبق لمتابعة أسراره ؟. منذ فارقته وحتى اليوم وأنت تجمعين كل صغيرة وكبيرة عن أخبار أعماله حتى تحوّل أحد أركان غرفتك في « منيل مونتان » إلى أرشيف قد يدفع هو نصف عمره للحصول عليه . . . أقبل عليك بلهفة كاذبة في المقهى وأخذ يثرثر بحبه لك بينما كنت تنظرين إلى شارع الشانزليزيه بصمت وتحتسين قهوتك . وفي لحظة ما أخذ يحدثك عن بيروت والصمود وخيانة من رحل عنها وعندما وصل بكلامه إلى هذا الحد انفجرت صارخة في وجهه وقلت له جملتك التي بدأ بها افتتاحية من افتتاحيات مجلته الثورية مديناً بها من اختار الرحيل عن بيروت . . . جملتك كانت « بيروت التي أعرفها لم تعد موجودة ». . لكنه نسي أن يسجل أيضاً « لم تعد بيروت موجودة لأن أمثالك يعيشون تحت سمائها ، ويتاجرون بدم أبنائها ».

نادية . . . هل كنت صادقة حقاً فيما قلته ؟ كانت بيروت جرحك الذي لا يندمل .

. . وما قلته عنها ليس إلا رموزاً سحرية تحتاج إلى كثير من الجهد لفهمها .

فبيروت رغم الدمار الإنساني والفيزيائي ظلت هناك قلعة مضيئة في أحضان البحر . . . تذكري بيروت تحت وابل الرصاص . . . حاولي أن تتذكري بيروت التي أحببت . . . تذكري الآن جثة عاصم ممزقة في أحد الشوارع الجانبية من حي الفاكهاني ، وزوجته تلطم وجهها بينما خيوط الفجر الأولى تهاجم المدينة بتأن وهدوء كأن شيئاً لم يكن . . . وتظل جثة عاصم تحت الشمس ثلاثة أيام دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منها ، حتى توقف أزيز الرصاص . . .

وبعد ذلك الهجرة والرحيل . . . وباريس المتعبة . . والمجلة المنفية المهاجرة مثلك . . والجري وراء لقمة العيش . . . ثم رفاق المقهى .

بعد خالد حاولت الحبّ بصدق في باريس لكن كل قصة حب كانت تنتهي مع خيوط الفجر الأولى بعد ليلة يقترب فيها جسدك من جسد الغريب . .

ومحمد . . . وفاضل . . . . والأخضر . . . وعبد الرحمن ؟ كنت بحاجة إلى أخوة ورفاق ولم يكن بمقدرتك عبور عتبة تلك العاطفة الأساسية للاستمرار في الغربة . . حتى كان عمر نقيض خالد أو بدايته . . أما زلت تعشقين البدايات ؟ من قال لك إنّ عمر لن يكون « خالد » في يوم من الأيام ؟ . . هذا هو السؤال الذي يعذبك وتلك هي المعضلة » .

* * *

ثمانية أيام تمضي على وصول نادية إلى الصحراء . . . ثمانية أيام بتفاصيلها تتابع خلالها أخبار المعارك و تحصي عدد الجرحى والأسرى الذين يتكلمون لغتها ويغنّون موسيقاها . ثمانية أيام كان حدّها الأقصى وهي تلتقي المسؤولين وتناقش معهم . . . تلتقي اللاجئين الذين هجروا وهربوا من مدن الصحراء ليلتحقوا بقبائلهم وأبنائهم . وفي نهاية كل نهار تعود إلى عمر متعبة وخائبة .

ذات يوم ، وكان ذلك قبل رحيلها عنهم ، ذهبت بصحبته لزيارة أحد المخيمات الكثيرة التي تنتشر على حدود البلد المجاور .

مهاجرون مرة أخرى ، مشرّدون مرة أخرى ، لكن « العدو » هذه المرة هم أبناء الدم والرحم . ما أن لمحت الخيام والأطفال الحفاة يتقافزون تحت شمس الظهيرة حتى تذكّرت تل الزعتر، ومخيم البقعة ، وبرج البراجنة . . كادت تتركه وتصرخ عائدة من حيث أتت « يكفي لقد تحول الوطن كل الوطن إلى مشرّدين وخيام » وكأنه فهم ما يجول في خاطرها فأمسك بكتفها وهزّها بقوة « نعم إنهم مشردون مثل الفلسطينيين » وبدلاً من أن تهربي لاجتناب رؤيتهم عليك مواجهة الحقائق . . . عليك أن تسأليهم لماذا هم مشرّدون ومن شرّدهم ؟ » .

دخلا معاً إحدى الخيام المنتشرة فوق رمال الظهيرة ، فأسرعت سيّدة الخيمة للترحيب بهما ، ثم بدأت إعداد الشاي الأخضر . . . قال عمر لنادية : « إن عائشة سيدة الخيمة ، هي المسؤولة عن تنظيم المخيم بعد رحيل الرجال إلى الجبهة . فهي التي توزّع المؤونة وهي التي تحلّ المشاكل الصغيرة وهي التي تعقد الندوات المسائية لإعلان آخر الأخبار » . . . نظرت نادية إلى تلك السيدة الصحراوية الملتفّة بعباءة شفافة ولاحظت أنها ما تزال في بداية شبابها . . . وبعد أن انتهت السيدة من إعداد الشاي وقدمته للضيفين تربعت أمامها على حشية قطنية مغطاة بقماش ملون لا شكّ بأن هيئة غوث اللاجئين في الأمم المتحدة قد أرسلته معونة . . فكرت نادية قليلاً وقالت لنفسها : « بعد سنوات ربما تصبح هيئة غوث اللاجئين في نيويورك هي الحكومة العربية الوحيدة الفعالة » . . . كادت تضحك من تصوّراتها عندما سمعت صوت السيدة الصحراوية تسألها باللهجة الحسانية : « إذا كانت قد قضت أياماً سعيدة في الصحراء ؟ » هزت نادية رأسها وسألتها بدورها : « إذا كانت هي سعيدة بحياتها في هذا المخيّم ؟ » قبل أن تجيب بشيء نظرت نحو عمر . كانت عائشة في الثالثة والعشرين من عمرها وقد روت لنادية على مسمع عمر كيف أمضت سنواتها الأولى في المدرسة الابتدائية بفاس وعندما

انتقلت إلى المرحلة الإعدادية كان عليها أن تترك الدراسة وترحل إلى مدينة العيون لأن حرب الصحراء قد انفجرت بين المغرب والجبهة . وفي مدينة العيون تزوجت عائشة من ابن عم لها درس الحقوق في مدريد وبعد أن أنهى دراسته أصبح أحد القياديين في الجبهة. وككلٍ زوج في مثل هذا المجتمع أنجبت عائشة ثلاثة أطفال . . . كان يأتيها ليلاً من وقت إلى آخر ليضاجعها ويمضي ، فتحمل بطفل جديد يترك أمرها وأمره للقبيلة ومن بقي من الشيوخ . . . وذات ليلة لم يأت رجلها كعادته بل جاء من يقول لها إن شظية مزّقته فضاعت آثاره وسط أمواج الليل . . . وبكت عائشة في تلك الليلة حتى الصباح . . . ثم تمالكت نفسها ومضت إلى شيخ القبيلة لتطلب إليه أن يعلن نبأ موت زوجها . . كان هذا يعني في أعرافهم أنها أصبحت على استعداد للزواج مرة أخرى . . .

ـ ولماذا الزواج مرة أخرى يا عائشة ؟ .

سألتها نادية .

ـ كي ننجب أطفالاً قادرين على الحرب . . إن عددنا أقلّ من عددهم .

هكذا أجابت عائشة واستمرت في رواية قصتها :

الزواج الثاني تم بعد أربعة أشهر قمرية بالتمام والكمال وهي الأيام التي تحتاجها المرأة المسلمة لكي تقضي ما يسمونه « العدة » أي الأشهر التي تحدّد إذا كانت حاملاً من زوجها السابق أم لا . . كان الزواج الثاني من قائد آخر من قادة الجبهة رشحه لها شيخ القبيلة . . . وكما تعودت زيارات زوجها الأول السريّة خوفاً من أعين السلطة تعودّت زيارات زوجها الثاني التي تبدأ دائماً في منتصف الليل وتنتهي مع خيوط الفجر الأولى . بعد سنتين من الزواج أنجبت عائشة طفلتان لمحتهما نادية أمام باب الخيمة تلعبان مع عدد من أطفال آخرين لآباء آخرين كانوا يزورون زوجاتهن في منتصف الليل ويرحلون مع خيوط الفجر الأولى . .

استشهد الزوج الثاني كما قالت عائشة دون ألم . وكان عليها بعد أيام من استشهاده أن تجمع أطفالها الخمسة وترحل في الليل مع رجل من

مدينة العيون للالتحاق بمعسكرات اللاجئين على الحدود مع البلد المجاور وتحت سلطة الجبهة .

ـ ولكن لماذا الرحيل عن العيون يا عائشة ؟ :

ـ خفت كما خاف غيري من النساء أن نؤخذ رهائن وأسرى لإجبار رجال الجبهة على عدم شنّ الغارات الليلية على المدن الواقعة تحت سلطة الملك .

وهكذا كسب الوطن العربي مهاجرين آخرين . . . ومشردين آخرين . . . يتامى من نوع جديد . . . خياماً مفتوحة للريح والموت .

في تلك اللحظة دخل إلى الخيمة طفلان ، قدمتهما عائشة سيدة الخيمة لنادية وهي تبتسم بسعادة : « هذان الطفلان من أبنائي سيكبران غداً ، وسيرحلان إلى الجبهة للقتال » .

قالت ذلك بسعادة كأنها تتحدّث عن عودة حبيبها .

ابتسمت نادية وظلّت تتأمل الطفلين يتقافزان من حولها يقترب أحدهما منها ويسألها : « ومن أي بلاد أتيت ؟» قالت نادية بحزن : « من بلاد لم تعد موجودة ولا يمكن أن تراها » . . . اختفى الطفل لحظة ثم عاد إليها يحمل ورقة وقلماً . . . جلس قبالتها « ارسمي لي مكان بلادك الراحلة وسأقول لك متى تعود » .

انفجرت ضاحكة ثم راحت ترسم على الورق خارطة لبنان . كتبت على البحر الأبيض : هذا هو البحر الأبيض . . كتبت مكان موقع بيروت اسم المدينة التي تمارس كل يوم انتحاراً جماعياً دون أن تموت . . لم تحدّد نادية موقع الحواجز ، كما لم تسجل أسماء القتلى لأنها لا تعرف تلك الأسماء فهي كثيرة . . . الاسم الوحيد الذي تعرفه هو اسمها ، لأنها قتلت منذ زمن بعد أن رأت نفسها ترسم حول خارطة لبنان خارطة كل الدويلات العربية ثم بخط عريض واضح لا تخطئه العين كتبت على الخارطة كلها «الوطن العربي » .

تأملت عيني الطفل تنتقلان من رسم دولة إلى رسم دولة أخرى

وسألها ببراءة « وإذا كانت الخارطة كلها تمثل الوطن العربي فلماذا نضع حدوداً كما فعلت ؟». لم تكن قادرة على الإجابة . وأضاف متسائلا « وماذا تقصدين بالوطن ؟».

أي سؤال هذا ؟ لم يخطر لها هذا السؤال من قبل ! .

صحيح ما هو الوطن ؟ هل هو الحروب الأهلية والمذابح والشرطة والسجون والعروش ؟ أم أنه ذلك الحنين القاتل الذي تعيشه لرؤية أحجار بيروت ؟ . . أم الموت في بيروت ؟ . . والحرب على الحدود الشرقية والخيام في موريتانيا ؟ .

كان عمر إلى جانبها يبدو حيادياً أمام أسئلة الطفل . وأحسّت عوامل الخيبة في الدم الذي يجري في عروقها . قالت : « أشعر بالتعب وعليّ أن أمضي » .

نهضا معاً . . حاول عمر مساعدتها على النهوض بعد أن بدت متعبة كأنها قطعت كل الصحراء عدواً . . ودّعت المرأة الصحراوية وسارت إلى جانب عمر صامتة كأنها تسير في جنازة الوطن . وبعد لحظات سمعت عمر يقول لها قبل أن يغادرا حدود المخيم : « ستظلّين معنا سوف نحاول إيجاد سكن لنا في نواكشوط ، ومع الأيام ستفهمين قضيّتنا » .

كانت سيارة (اللاند روفر) قد بدأت انطلاقتها نحو مقر القيادة تحت شمس الظهيرة اللافحة . . كان عمر يقول أشياء لا تفهمها نادية أو لا تصل إلى مسامعها . . وخيّل إليها أنه تحدّث عن الحبّ وقضية الصحراء وحرب لبنان ، خيل إليها أنه اقترب منها قليلاً وقبّلها . . . خيّل إليها أنهما قطعا مسافات شاسعة من الرمال . . خيل إليها أنها تنتقل بين المدن العربية . . . بين هذه المأساة أو تلك . . وفجأة استيقظت من أحلامها لتسأل عمر : « وهل أستطيع اللقاء بمسؤول عسكري ؟» فأجابها بوضوح : « سيكون ذلك » كانت نادية تريد أن تفهم ماذا تعني حرب كهذه من الناحية العسكرية ، و هل يقاتل من يقاتل أملاً في النصر . أم أن الحرب مجرد فرس سباق لصراع لا يعرف أبعاده .

في المساء بدت الصحراء من حولهما كزنجيّة عاريـة استحمّت في نهر من الأسئلة . . كانت تتنفس الذكريات البعيدة . . . وتعقد مقارنة في خيالها بين ما قرأتـه أو سمعته عن الصحـراء وبين حقيقة الـرمال البـاردة الصـامتـة التي تحيط بهـا . . . ظـلام عن يمينهـا . . . ووراءهـا . . . وأمامها . . . عن اليسـار أضواء خـافتة تنبىء بـوجود حيـاة ما . . . قـال عمر : « هذا مبنى القيادة العسكرية »، وترجلا أمامـه . المبنى متواضـع يتـألف من ثلاث حجـرات تتوزع حـول باحـة طينية . . في إحـدى هذه الحجـرات كان المسؤول العسكـري للجبهـة يجلس وراء مكتب مـرتّب نظيف . . في الثلاثين من عمره . . نحيل ذو ملامح بدويّة له عينا رجـل لم يعرف النوم منذ أيام . . استقبلها بترحـاب وبساطـة . ثم دعاهـا إلى الجلوس أمامه : سمعت صوته يقول لها :

ـ لقـد حدثنـا عمر عنـك كثيرا . إنـك تعتبرين معـركتنا خـاسـرة أو بالأحرى لا مبرر لها .

فـاجأهـا المسـؤول بكلمـاته ، وعلمت أن عمـر قـد أعـدَّهم لكـل شيء .

قالت نادية :

ـ خاسرة من حيث المبرّر لا من حيث التقنية ومسيرة الحرب .

راح الرجل يشرح : « لقد انتقلنـا من حرب العصـابات إلى حـرب المواقع . قرّرنا تغيير استراتيجيتنا العسكرية من الدفاع إلى الهجوم . . . سوف نهاجم المدن حتى نزرع الرعب فتضطر السلطة إلى الرضوخ ».

هكذا بدأ المسؤول العسكري شرحه .

وأشار إلى خارطة على الجدار ثم بدأ يوضح مواقـع الأهداف كـأنه قائد حربي في جبهة « خط ماجينو ». . كأن العدو الذي يتحدث عنـه لا ينتمي إليـه . . . وكـأن المــدن ، والأهـداف لم تكن مــدن أجـداده أو آبائه . . . أو مدنه .

قالت نادية لنفسها « لا فائدة . . . السـرطان يسـري في كل أجـزاء الجسد وخلاياه » سألت :

ـ ولو طال زمن الحرب هل يمكنكم الصمود أكثر ؟ .

قال المسؤول العسكري « بالتأكيد » . . تذكرت زجاجات الماء والمعلبات التي حملتها الطائرة .

قالت : لمذا لا تفاوضون ؟ ولتنته هذه الحرب .

قال : لم نرفض ذلك أبداً .

قالت : وماذا تريدون من الحرب ؟ .

قال : دولة .

قالت : ستكون أداة قمع كغيرها من الدول .

قال : ويمكن أن تكون واحة حرية .

قالت : أنتم حريق صغير الهدفُ من إشعاله إشغال المنطقة عن المعركة الحقيقية .

قال : لا معركة حقيقية إلا معركتنا الآن .

قالت : تخوضون حرب قبائل مبرّرها الوحيد أنها حرب قبائل .

ضحك بسخريّة واتكأ إلى الخلف ، بينما ظلّ عمر صامتاً لا يتدخّل في الحوار . سمعته يجيبها : « لكل حرب أسبابها ، ولنفترض أنها حرب قبائل كما تقولين فلهذه القبائل أسباب تدفع بها إلى رفع السلاح» .

واستمر النقاش بينهما . رجل يؤمن بكل ما يقوله ويدافع عن إيمانه ، وامرأة تملك عيني زرقاء اليمامة . وترى بشمول أوسع مستقبل تلك الحرائق الصغيرة في وطنها . ورغم ذلك أحست وهي تطوف معه في تاريخ قضية الصحراء أن خطأ ما قد ارتكب وإن هذا الخطأ هو ما دفع إلى هذه الحرب .

لماذا تجاهل الحكام هؤلاء البدو عندما اقتسموا أرضهم ؟ .

الجواب على سؤالها هذا تعرفه جيداً ، وهو الجواب نفسه الذي تردّ به على الكثير من أسئلتها « لأن الآخر لا وجود له في رأس الحاكم العربي . . . فهو السيد . . . المطلق . . . الذي لا يخطىء . . . هو مكان الآخر . . . ولديه الحق في تقرير ما يريد » .

دخل عمر إلى الغرفة التي غادرها قبل ساعة ونشر حوله كالعادة ضجيجه . . . أحست صوت الحياة من حولها . . . كان يضحك عندما اقترب منها قائلاً : « لا بد وأنك ألقيت عليه بأسئلة كثيرة » .

ضحك رفيقه قائلاً :

ـ لكنها تعرف الإجابات مسبقاً .

ودَعا الرفيق العسكري وتركا الغرفة . . . كان عمر يعتقد بأن بقاء نادية لأيام بينهم سوف يسهل عليها قرارها بالبقاء النهائي . وردّد بينه وبين نفسه « لو كسبناها إلى صفوفنا ستكون مناضلة رائعة » ونسي أن يقول : « بل امرأة رائعة » .

كانت تتأمل الصحراء من حولها كأنها تراها للمرة الأولى . . ماذا جرى لها ؟ منذ وصلت إلى هنا وهي مفتونة بالرمال . . مشغولة بالصحراء عن عمر ومعركته وقضيّته . أهو الانتماء للأرض ذاك الذي يشدّها أم أنه الحنين إلى الجذور ؟ .

وتعصف الحيرة بنادية . . . تجد كلمة الحرب سياجاً يحاصرها كيفما اتجهت ، تحاصرها الحرب ذات الأسباب المختلفة في كل مكان تتجه إليه على الخارطة العربية . حرب الأعداء العادلة والخاسرة . . . وحرب الأهل المستمرة ، فلماذا تكتم الرمال سرّها الفاضح . . إلى هذا الحد ؟ .

عندما انتقلا من غرفة المسؤول العسكري إلى الغرفة الأخرى التي يشغلها عمر في مبنى القيادة أسرعت نادية ترمي بجسدها المتعب من رحلة اليوم على الحشيّة تتقاذفها الأسئلة والتناقضات ومشاعر العبث والأمل . سمعت صوته يسألها « هل اتخذت قرارك بالبقاء معي في الصحراء ؟» وقبل أن تجيبه أضاف « سأضع النجوم بين يديك ، وسأهبك أطفالاً بعددها ، سأحبك كما لم يحبّك رجل من قبل » . قاطعته بحدّة لا تعرف مبررها « وسيذهب أطفالي للحرب ، وسيموتون من أجل لا شيء . . . لا بل من أجل دولة تصبح أداة قمع . . . هل تتخيل ذلك ؟» .

بدا عمر حزينا حتى الوجع وهو يتأملها ممدّدة على الحشيّة . كان يعرف إلى أي درجة لا يمكن أن يظل في نفسه أيّ وهم عن موقفها . . . نادية لن تتخذ قرارها بالبقاء إذا لم تشعر بعدالة الأسباب التي دفعته للوجود على هذه الأرض . خلع معطفه الكاكي وتمدّد إلى جانبها ، جذبها نحوه ونظر إلى عينيها على ضوء المصباح الغازي . . . كانت تنأى بعينيها بعيداً كأنها تبحث عن شطآن وبحار لا وجود لها . . . إنها تنأى أينما كانت . . . تعبر الحدود والجسور . . . تعبر البحار والجبال نحو مدينة واحدة هي بيروت. . . كان يدرك عمق ذلك الرباط الخفي الذي يشدّها إلى بيروت . . . لقد حدّثته في تونس وباريس طويلاً . . . وكانت تردّد أمامه : « في زمن الحروب الأهليّة تنعدم النجوم ، وتصبح السماء سديماً ، لكن بيروت تظلّ مضيئة هناك » .

كانت ترفع يدها مشيرة إلى « هناك » وكان عمر في باريس ينظر حيث تشير فلا يرى إلا السطوح القرميدية في باريس ، وظلال المساجد والمآذن في تونس .

. . . هل تحبّ عمر حقاً ؟. . . ولماذا يجب أن تحب في هذا الزمن ؟ لماذا الحب في هذا الزمن الصعب . . . لماذا الحب في زمن الهزائم ؟ وهل يمكن لإنسان تجري في دمائه خيبة قرون من الهزائم أن يعرف العشق ؟. . هل تحبّ عمر حقاً ؟.

* * *

في تلك الليلة الصحراوية المضيئة . . . في ذلك الليل الأفريقي المدهش كان « عمر محمد ساداتي » يقترب من الأربعين ، طويل القامة عريض المنكبين ، ذا وجه حنطي وعينين سوداوين لا تستقران في محجريهما . وقد مضى على تخرّجه من كلية الحقوق بجامعة مدريد عدة سنوات بينما يرجع تاريخ التحاقه بالجبهة إلى خمس بلياليها ونهاراتها . لقد التحق بالثورة قائداً . . هذا ما يقوله عنه أصدقاؤه عندما يكون غائباً عنهم ، فعمر أحد أبناء قبيلة « الرقيبات » وهي من أكبر القبائل الصحراوية التي تنتقل ما بين المغرب والجزائر وموريتانيا . وكما هي

الحال بالنسبة لأبيه الذي ولد في زمن آخر زعيماً وشيخ قبيلة ، كان الحال بالنسبة إليه لأن أبناء المشايخ يصبحون مشايخ ، وفي زمن آخر ، قادة وزعماء .

تنقّل عمر في مواقع العمل السياسي ، وطاف بلاداً بعيدة يتحدث فيها عن صحرائه . . . كان يتكلم الإسبانية بطلاقة مذهلة ، ويجيد الفرنسية والإنكليزية . . . سريع البديهة لمّاحاً ، يعيش الحياة احتفالاً جماعياً ، وبقدر ما كان عمر غربيّ الثقافة ، وصحراوي المزاج كان عربيّ الوعي والتطلّعات . . . ربما كان عشقه المجنون لنادية هو الحنين إلى الرباط الخفي الذي يسري في دمه حيال هذا الوطن الشاسع الذي اكتشفه في أوروبا .

في مدريد سمع وقرأ وتعرّف على وطن شاسع واسع أبعد من حدود الصحراء لذلك كان يعشق فيما بعد كلماتها وهي تتحدث عن بيروت ، ويغمرها بذراعيه كالغيمة عندما تتكلم عن دمشق وتصف شارع الجامعة وتكيّة السلطان سليم ، وسوق الحميدية ، أما إذا انتقلت للحديث عن القاهرة فقد كانت تجيد رسم تلك الصورة الرائعة لمدينة شاهدة على تاريخ شعبها . . . لقد تعلّم معها أشياء كثيرة . . . تعلّم الحلم الذي يعرف أنّ تحقيقه صعب لكن لا بد أن يحلمه . . . تعلم الحب الخاسر وأضاع الحسابات . . . تعلم الانتظار على قارعة الطرق وفي ردهات الفنادق . . ومحطات الترانزيت . . . لكن أهم ما تعلّمه من نادية تلك القدرة الهائلة على تجاوز الكارثة .

يتأمّل وجهها الرائع على ضوء المصباح الغازي . . . العينان السوداوان . . . الشعر الليلي . . . الجسد المتمرّد على الحياة وكأنه لم ينهزم في بيروت .

عندما تعرف إليها للمرة الأولى أحسّ جسدها يفرض شروط وجوده عليه ، وعندما تعمّقت علاقتهما نسي الجسد ليركض وراء جنون حلمها ، وعندما ركنت إليه بكت على صدره كطفلة ، ثم حكت له عن بيروت

وخالد والهزائم وقلقها في باريس . ثم طلبت إليه أن يكون بديلاً لكل هؤلاء لكن عمر رفض أن يكون إلا رجلاً يعشق امرأة ، رفض أن يكون بيروت ، أو بديلاً لخالد ، أو مسكناً للأرض رفض أن يكون بديلاً للوطن . . . قال لها بكل بساطة : لن أكون إلا عاشقاً . . .

يتأمّل وجهها ويتذكّر أنه حكى لها كل شيء من قبل ، لكن هناك أشياء أخرى سوف يقولها . . . معها يحسّ بحاجته إلى القول والفعل والحلم . مدّ يده ومسح على جبينها فانتفضت واستدارت بخوف ضاحكة « لقد أخفتني ».

وضحك ضحكته المعتادة .

رن جرس الهاتف في الغرفة فنهض عمر للإجابة عليه وسمعته يقول « سآتيك حالاً ». ثم أسرع يبحث عن مسدسه في درج المكتب وهو يردّد على مسامعها : « لقد قصفوا أحد المخيّمات ».

فجّرت جملة عمر « قصفوا أحد المخيمات » في رأس نادية غابة أسئلة ، فنهضت بسرعة ترتدي معطفها الليلي لترافقه إلى حيث يذهب ، لكنه نظر إليها باستغراب وقال كأنه يوجه الحديث لجندي من مقاتليه : « لن تأتي معي لأن القصف ما زال مستمراً ». غير أنّ نادية أصرّت على مرافقته ، وأحست لعباراته وقع الإهانة : « أوتظنني امرأة للمضاجعة ، وملجأ للهرب من اليأس ؟». . . اتجهت إلى الباب الخارجي دون أن تلتفت خلفها . . . إذا كان الموت يلاحقها حتى أقصى الأرض بهذا الجنون الفاضح فلماذا لا تذهب إليه ؟.

شعرت وهي تصعد إلى جانبه في سيارة « اللاندروفر » بألم بالغ يعتصر قلبها . . . أحسّت الصحراء تحكم القبض على عنقها لتخنقها . . . منذ وصلت هنا وهذا الشعور يلاحقها . . . وكان عمر يبرّره ضاحكاً « إنها الصحراء سوف تأنسين لها ». لكنها لم تأنس إليها حتى

الآن ، وها هي ستخوض فيها معركة تدرك سلفاً عدم جدواها ، لكنها ستخوضها ككثير من المعارك الغبية والخاسرة التي عرفتها في بيروت .

عندما اقتربا من المخيم كانت النيران تشتعل لتبدّد ظلمة الليل . . . صيحات النساء والأطفال تختلط مع أصوات انفجارات متفرقة بينما القذائف المضادة للطائرات تتناثر من حولهما . . . كان المنظر يعيد إلى ذاكرتها منظر بيروت يوم غادرتها . . . لقد رصدت هذا الحريق النموذجي في مدينتها مئات المرات . . . وفي كل مرة بعد أن ينتهي المشهد وتختفي أضواء اللهب ، كانت تبحث عن جثث أصدقائها بين الركام . . . فهل ستبحث في هذا المخيم الذي زارته بالأمس عن جثّة تلك المرأة الصحراوية التي قابلتها قبل أيام وحدّثتها عن زوجها القتيل وأطفالها الراحلين إلى القتل ؟. أم ستبحث بعد لحظات عن جثة عمر ؟. أم أن النيران ستأتي على كل شيء ولن تجد حتى جثثهم !؟.

قبل أن تستيقظ من التساؤلات ضاع عمر عن عينيها ولم تعد ترى من حولها إلا ألسنة اللهب، والنساء يتراكضن بينما السماء تمطر رعباً . . . الطائرات تحوم فوق رؤوسهم والليل يمعن في الاغتراب . . . سيارة الأسعاف التابعة للمخيم يمزّق عويلها السماء والأرض وقلب نادية . سمعت نفسها تصرخ . . . تولول . . . بينما تعلق طفل بطرف ثوبها يبكي ويردد على مسامعها : « أريد يماي » لم تكن تدرك بالتأكيد أن احتفال الموت الصحراوي الذي تشهده في تلك اللحظة سيكون النقطة الفاصلة بينها وبين الوطن ، لم تكن تدري وهي تساعد في نقل جثث الجرحى إلى المستوصف المتنقل أن الدماء التي صبغت يديها ستكون العلامة الفارقة بينها وبين الأمة والحضارة اللتين تنتمي إليهما. ستكون السيف الفاصل بين ما عاشت حتى هذا اليوم من عمرها ، وما ستعيشه غداً .

الليل في نهايته . . وأسرة المستوصف الحديدية قد استقبلت زوارها . . . وها هي تستند إلى جدار حجرة طينية تتأمل وحيدة شروق الشمس من وراء الأكمات الرملية . . . كانت نادية متعبة وبحاجة

للراحة . . . وممزقة وبحاجة لاسترداد ذاتها ، . . وحيدة أمام موت آخر كما لم تكن وحيدة في حياتها قط .

يقترب منها شاب ملثّم ويهمس « لقد بحثنا عنك طويلاً إن عمر بانتظارك » .

ونهضت واقفة ، وسارت بجانب الطبيب الشاب الملثّم صامتة نحو المستوصف . . . في غرفة صغيرة لا تتسع لسريرين رأته هناك . . . كان عمر ممدداً على سرير حديديّ يئنّ وجعاً بينما يحاول الطبيب الآخر انتزاع شظية من ساقه اليمنى . اقتربت منه قليلاً ، وعندما تلاقت عيونهما أدار عمر وجهه إلى الجدار علّه يتحاشى نظراتها العاتبة . كان يعرف أن نادية تعاقبه على الحرب كلها . . . إنها تريد في تلك اللحظة أن تقول أي شيء ، لكنها ظلت صامتة . . . كانت الكلمات تهرب من ذاكرتها كالفرح العابر . . . فقدت اللغة كما فقدت الطريق .

يستمر الطبيب في إجراء الجراحة دون مخدّر ، فالمستوصف غير مجهّز بما يساعد على إعطاء الجريح جرعة تهدّىء حدة شعوره بالألم . . تستمر نادية مسمرة في مكانها تملأ عينيها بفضاء غرفة محاصرة . . لم يكن الجريح مجرّد جريح عادي . . . إنه رجلها . صراخ مكتوم ينطلق من ناحية عمر والطبيب يستمر في محاولته . . . تقترب نادية من عمر وتمسك بكفه . . تمسح على رأسه . . . تنحني عليه لتقبّله . . يستسلم إليها. يبتسم الطبيب ساعدينا قليلاً علّه ينسى آلام العملية . . وتسمع صوت عمر يجيب الطبيب « إنها تزيد جسدي ألماً من نوع آخر » تبتسم قليلاً . . . تنظر إلى المستوصف والطبيب . . والشظية تكتم رغبة حادة بالصراخ . لحظات . . لم تعد تدري ماذا عليها أن تفعل ؟ ولم تعد تدري كم من الزمن مضى وهي إلى جانبه تحاول جاهدة أن تخفف من حدة آلامه .

فجأة سمعته يقول لها : « علي أن أتماسك قليلاً ، وأنهض كي أساعدهم على تلافي آثار الغارة » .

وظلت صامتة ، عندما فتح باب الغرفة ودخل منه رجلان ملثّمان أدركت نادية أن عالمها الصغير داخل هذه الغرفة على صلة بدنيا كاملة خارج الجدران الطينية . . . ولم تفهم ما قال الرجلان باللهجة الحسانية ولكنها رأت عمر يغالب نفسه ويجلس محاولاً الهبوط عن السرير . . . نظرت إلى آثار الدماء على بنطاله وابتسمت بمرارة . فأحس إشارتها . . . نادى بصوت مرتفع على الحارس ، أن يجلب بنطالاً جديداً . . . بدل ثيابه وغادر الحجرة برفقة الرجلين وهو يحاول عدم إخفاء آلامه ، قال لها : « دعيني أسير وحيداً ، حتى لا يشعر أحد في المخيم أنني أصبت ، ثم الحقي بي في مكتب القيادة » .

عاشت نادية خلال ثلاثة أيام آثار الغارة الجوية . . مئات من الأطفال الجرحى . . . عشرات من النساء . . بضعة قتلى . . وخسائر مادية جسيمة . . كانت تتوقف أمام شظايا القنابل لتفحصها جيداً .«أين صنعت هذه القنابل وكيف انتقلت إلينا ؟ ومن نقلها ؟» . أسئلة لا إجابات عليها . . . لكن نادية تعودت منذ بدء الحرب الأهلية في لبنان أن تطرح أسئلة لا تحلم بإجابات عليها . . . كان عمر خلال هذه الفترة موزع المشاعر ، والجهود والأحلام ، يتحرك كقائد عسكري في ساحة المعركة قلقاً . . . متألماً خائفاً . . آملاً . . . وأحست أنه يبتعد عنها كثيراً . . . حاولت أن تراه في مكتبه فحال بينها وبينه عدد من الضباط والخرائط والملفّات . . حاولت أن تأتيه في آخر الليل فوجدته قد سبقها للبحث عن نقاط انطلاق نحو أرض (أعدائه) . كان يتحرك وسط مشروعه وأهله . . . وسط المخيمات والضحايا ، والقنابل ، والحرب . معتقداً أنه على حقّ ، وأن الموت أو النصر هدفه الأساسي .

بعد أيام من الغارة جاءها عمر في نهاية الليل منهكاً وقلقاً . . . جرحه ما زال ينبض ألماً ، وعيناه تدوران في محجريهما دون أن تستقرا على شيء . . . كانت كعادتها منذ وصلت إلى هذه الصحراء مستلقية على

حشية قطنية ، تحاول القراءة على ضوء مصباح غازي . . استلقى إلى جانبها صامتاً . ومرت لحظات دون أن يتكلما . . . قطعت الصمت قائلة :

« حان وقت رحيلي » ودهش لقولها . استدار نحوها . . . جذبها إليه . . . نظر في عينيها . . . نظرت في عينيه . . . راحت تتأمل وجهه ، كان متعباً إلى درجة الإنهاك ، بدا على ضوء المصباح الغازي شاحباً وأكبر سناً ، ولاحظت أن يديه ترتجفان كأنه يغالب حمّى . . . أحسّت بحب مؤلم حيال ذلك الرجل وتمنّت لو أنها استطاعت أن تحمله بأسنانها كما تفعل القطط بأبنائها وتهرب به إلى مكان آخر على الأرض . . . كانت الغارة قد نقلت المعركة بين الجبهة والنظام على الطرف الآخر إلى مرحلة جديدة ، فالملك قرّر الضرب في العمق ، وملاحقة المقاتلين ، ومطاردتهم داخل حدود الدول المجاورة ، وكان هذا القرار يعني تغيير التكتيك الكامل لحرب الصحراء . ولاحظت نادية شرود عمر . . . قال لها بصوت خافت جداً : « لقد شغلت عنك . ولم أعرف هل قررت البقاء معنا أم لا » .

فاجأها سؤاله متلبسة في النسيان وعدم القرار . . . منذ الغارة تبدو كأنها تواجه مشكلة مرعبة . هذه المشكلة هي وجودها نفسه على هذه الأرض . . . قالت لعمر :

ـ لا أظن أنني قادرة على البقاء ، أشعر الموت يحاصرني من كل جانب . وإذا كنت قد تركت بيروت هرباً من حرب غبيّة فلن تكون حرب الصحراء هي البديل .

والتهبت عيناه . . . أحست أن يديه توقفتا عن الحركة . جلس متربعاً وراح يحدثها عن عدالة قضيته وعن النصر القريب . . عن العدد الهائل للأسرى . . عن الثورة الفلسطينية التي خلقت في المشرق تجّار حروب . . لكنها في الصحراء تصنع أبطالاً يقاتلون العدو كل يوم . . .

كانت نادية تسمع كلماته وهي ممددة على الحشية وأحست لأول مرة منذ عرفته أنها لا ترغب في سماع أو فهم ما يقول .

هبّت ريح عاصفة خارج الغرفة فسمعا صفير الهواء في فضاء الصحراء ، وأحست أن الليل يزيد في ظلمته . . . بدت لنادية الأزمة واضحة كمالم تَبْدُالهامن قبل . في باريس كانت تشعر بعدمية وجودها وتحسّ النفي مضاعفاً . . بينما الحرب الأهلية في لبنان تلاحقها كل يوم بالأخبار والصور والأصدقاء القادمين من هناك . . . أما في هذه الصحراء ؟ لو اختارت البقاء فإن حرباً أخرى ستعيش معها واقعاً لن يكون لها خيار معايشته أم لا ، لأنه مفروض عليها . . . وحزنت كثيراً وهي تراه غارقاً في همومه . . ثم قالت له :

ـ هل أستطيع العودة إلى باريس ؟ .

انتفض كمن ينتفض تحت طعنات خنجر ، فلم يكن يتوقع سؤالها .

قال بحرارة :

أكاد لا أفهمك يا نادية ، لقد جئت إلينا قبل أيام وأنت تحملين قراراً بالبقاء ، ولم يمض أسبوع على وجودك بيننا ، وها أنت ترغبين بالرحيل .

جلست متربعة أمامه على الحشية . . . نظرت إليه والإنهاك يكاد يدمّره . . شعرت بأن آلام الأرض كلها، وكأنها قد انتقلت إليها . . فكيف تشرح لعمر معنى رحيلها عنهم؟ . . كيف تشرح لعمر رفضها للحرب الأهلية في الطرف الآخر من الوطن ؟ . . . في باريس كان بمقدرتها أن تهرب من اللبنانيين القادمين من بيروت لكي لا تسمع مزيداً من أخبار الحرب . وكانت كلما جنح بها الحنين إلى الشوارع التي عاشت فيها طفولتها وشبابها تلملم نفسها على أسرارها وأحزانها ، لقد غرقت في عملها كصحفية تستعذب النسيان . بينما أصبحت الحرب أخباراً وأسراراً تقرأها على الصفحات الأولى من الصحف الفرنسية ، ويظل أملها بأن تنتهي هو السحرّك لحياتها . . . هو الباعث لرحيلها وعودتها إلى باريس . . . هو الراية التي تنشرها في مقهى « كلوزري دوليلي » كل مساء مع عدد من أصدقائها الذين ينتظرون كل شيء ولا ينتظرون شيئاً . . .

ببساطة كانت في باريس هاربة من الحرب ، وحبّها الذي انتهى تلك النهاية البشعة

أما هنا ؟!

هنا في هذه الصحـراء الشاسعـة فالأمـر مختلف . . . إنها لا تملك الهرب وعليها بالمواجهة . لكن بالأمس عنـدما رأت طـوابير الأسـرى ، أحست سكيناً حادة تنغرز في قلبها . . . اقتربت من أحد الأسرى وسألته إذا كـان يعامـل بشكل جيـد . . . هزّ رأسـه بالإيجـاب وكأنـه يقـرّ . . . إعدامه . كان حاسر الرأس . . . حـافي القدمين ينبعث من عينيـه شعاع حقد ممزوج بالذلة والحزن . لو أطلق هذا الأسير غداً فسيكـون مقاتـلاً شرساً . . . وهكذا تجد الحرب وقودها . ذهبت إلى المسؤول العسكري لتسأله عن معنى بقاء هؤلاء الأسرى في الصحراء ؟ وسألته لمـاذا لا يعاد هؤلاء إلى أهلهم وقيادة الجبهة تصرح باستمرار : « ان حربنا ضد النظام وليس ضد الشعب » . ناقشت الأمر مطولاً كأنها مندوبة الصليب الأحمر أو هيئـة العفو الـدولية ، لكن المسؤول العسكـري قال لهـا بهدوء دون أن ينفعل لحرف مما تقوله : « إنها الأوامر العليا » . وصرخت نادية في وجهه « أوامر من . . أليس هؤلاء عرباً مثلكم ؟ » .

أشاح المسؤول العسكري بوجهه عنها . . . ثم مضى وتركها تتخبّط في حيرتها . ردّدت بصوت مرتفع : « وهل أنا هنا لأشهـد جنونـاً عربيـاً جديداً ؟ » .

هنا تبدو الحرب أمامها حقيقة . . . حرباً لا تملك الاقتناع بأسبابها . لكنها لا تملك كذلك أن تغالط نفسها في حبها لعمر فهي تحبه وتـرفض حربه . . . وإذا اعتبـرت أن حبها لـه مسؤولية وبـديل لحب انتحـر على أرصفة بيروت . . . وفي متاهات الحـرب الأهلية . . فـإنها لن تقبـل أن يكون البديل من النوع ذاته . . .

هل تستطيع اليوم أن تهرب من حب عمر لتعود إلى باريس ؟ . لتعود إلى الحب العابر يغرقها به عشرات الرجال الـذين تنساهم وينسـونها في

اليوم التالي . . . هل تستطيع اليوم وبعدما رأت ، وشاهدت ، وعاشت أن تحب رجلاً آخر بديلاً لعمر ؟ .

إن حبه حقيقة اكتشفتها في هذه الغربة . . . أما حربه فضياع جديد . . . كيف تقبل الرجل وترفض ما يعيش لأجله حتى وإن كان وهماً . . لا . . هو فرصتها الأخيرة . . ولن تقبل بسهولة أن تتخلى عنه . . لكنها تقاتل من أجل تبديد وهمه .

خيل إليها أنها تحدثه عن هذا كله بينما يعلو وجهه ذلك الأنين المكتوم الذي شهدته في عينيه عندما كان ينتزع الطبيب الشظيّة من ساقه دون مخدّر . . .

كان عمر يبدو وهو يجادلها كأنه هو الآخر يحتاج إلى دليل جديد على جدوى الاستمرار في الحرب . . . وخيل إليها في لحظات : أن جداراً زجاجياً ينتصب بينهما ، ومن خلف الزجاج ترى شفتيه تردّدان لغة لاتصل إلى مسامعها . . . بل تلحظ حركة غامضة لشفاه جافة . . . وتلتقط ملامح رجل على وشك الهلاك . . . شعرت أن البقاء في هذه الأرض أصبح مستحيلاً . . وإن كان لا بد أن تموت فليكن موتها من أجل قضية أكثر وضوحاً . . . ليكن من أجل فلسطين مثلاً ، من أجل فلسطين الأخرى التي تعيش الاحتلال اليومي . . .

ورغم ذلك ظلت العودة إلى باريس تخيفها. بدا لها الفراغ والوحدة والضياع ، لكنها حاولت التغلب على إحساسها واقتربت من عمر . . . إنها آخر ليلة لهما معاً . . آخر ليلة لهما وسط ركام الحرب . قال لها وقد أعياه النقاش : « وكما ترين لا أملك ما أقدّمه لك . . لا أملك ما أغريك به من أجل البقاء معنا ». وصمتا لحظات . . . أحست أنها تسمع نداء غريباً . . . والتقطت صوت تكسر أمواج البحر على الصخور الملحية هناك قريباً من المحيط . . . التصقت بجسد عمر أكثر فأكثر، قبّلت صدره . . سمعته يقول لها . . . ويقول لنفسه :

ـ سأحاول أن آتيك في باريس من وقت لآخر ، لن يكون رحيلك نهاية العالم .

التصقت به أكثر كأنها تحتمي بجسده من رعب الأرض كلها ، لكنها ظلت صامتة .

في الصباح كان قرار نادية بالرحيل قد انتشر في أوساط القيادة . . . هل أشرفت قصتهما على نهايتها ؟ . وهل أصبح من الصعب أن نتوقّع لقصة حب بين امرأة ورجل عربيين نهاية سعيدة ؟ . . . هل أصبح لكل منهما أن يبحث عن حب في بلاد أخرى ، وعن رجال ونساء لا ينتمون إلى حقيقة الجرح الذي يعيشانه ؟ .

ربما أصبح الأمر كذلك ولكن هل يبدو ذلك ممكناً ؟ .

كيف يمكن أن تعشق امرأة عربية رجلاً عربياً في هذا الزمن . . . ؟ كيف يمكن العكس ؟ . .

إن قرار نادية بالرحيل يبدو « للرفاق » في الجبهة دليلاً واضحاً على فشل قصة بدأت عبر اللغة ، والحنين والرغبة بالانتماء . . . لكي تنتهي في قلب تلك الصحراء .

سترحل نادية عنهم . ومن يدري إذا كانت نادية أخرى ستأتي إليهم من أجل الحرب أو من أجل رجل ؟ .

من يدري ؟ لا أحد في هذا البعد الشاسع لصحراء شدت وثاقها إلى المحيط يعرف مستقبل الأشياء . . . لا أحد . . . .

بدأت القصة أو انتهت ، فإن هذه الصحراء الشاسعة الملتهبة لن تصل غرباً إلى البحر . لن تصل الصحراء إلى البحر . ونادية تعودت منذ زمن بعيد أن تحدد العالم بالبحر . . .

سوف تبكي عمر في ظلام غرفتها الباريسية . . . ستبكيه ككل النساء

العاشقات . . . سوف تحن إلى جسده . . . إلى عينيه . . . إلى قلبه .
لكن الحنين شيء وقسوة الحروب الأهلية شيء آخر . . .

« عمر سأصرخ باسمك . . . سأصرخ بحنيني إليك . . . . سأصرخ بجرحي فيك ومعك . . . سأصرخ طويلاً وستردّد جدران الغربة صدى صوتي ، لكنني على ثقة أن الصوت لن يصل إليك . . لقد انتهت قصتنا يا عمر فالعشق أصبح محرماً علينا في هذا الزمن العربي . . ولأننا لا نملك أن نعيش زمن الآخرين فعلينا أن نمضي . . . عليَّ أن أمضي كي لا أكون شاهداً على حربك» .

تمطر فوق المدينة الصحراوية رذاذاً ، ويقول لها عمر إنها لمعجزة . . . قطرات خفيفة تغسل أوراق النخيل وتنفذ إلى أعماق الرمال بينما المحيط المارد يضرب بجناحيه آخر التخوم العربية وراء المحيط . . وراء ذلك المحيط يبدأ عالم آخر لا تنتمي إليه أحلام نادية ، ولا رغبات عمر بدولة على شبر من الرمال . . . يستوقفها الصباح الباكر وأشعة الشمس فتحاول أن تداري وجهها من النور ، ثم ترفع عينيها إلى وجهه فتتأمل مسحة الحزن القاسية التي تبدو عليه . . . إنه حزين حتى الوجع ، أما هي فلا تدري ماذا تفعل ؟ لم تقرر بعد ماذا يمكن لامرأة مثلها أن تفعل فيما تبقى لها من العمر .

هكذا يبدأ رحيل جديد في حياة نادية الإبراهيمي . رحيل من دون حقائب أو أحلام . . . أو أوهام عن الحب والفناء في صدر رجل . . . ثلاث ليال مرت وعمر يحاول إقناعها بالبقاء لكنه يدرك تماماً أن كلماته تذهب عبثاً . . . فنادية هجرت بيروت خوفاً من بشاعة الحرب الأهلية ، وها هي تبدو الآن مقتنعة أن حرب الصحراء هي حرب عربية ـ عربية لا تستطيع أن تقبل حتى أكثر دوافعها عدالة . لماذا هذا العشق البدائي لجذورها ؟! لماذا ذلك الرفض المطلق لكل ما تعطيه تلك الجذور ؟ .

كلمات حب ، وعتاب ، وإقناع ، وعبث . . .

كلمات تتضارب في فضاء السيارة التي تقودها إلى مطار المدينة وهو إلى جانبها يحاول محاولاته الأخيرة ، منذ الغارة التي شهدت قبل أيام آثارها وهي تغالب رغبتها في الرحيل . . قال لها : « سوف تهربين من حقيقة الواقع » فظلت صامتة ، وقال لها « أنتم في الشرق لا تقرّون إلا بقضاياكم ثم تتحدثون عن وطن عربي » وظلت صامتة وقال لها « إنني أعشقك » بكت لأنها أدركت عدم قدرتها على أن تعيش حبها . .

أحست أنها لو تكلمت فسوف تنطق بأكاذيب لن تجد الشجاعة في نفسها بعد ذلك على فهمها أو تبريرها . . . تريد أن تمضي من هنا إلى أي مكان آخر على الأرض . . . تريد أن تمضي قبل أن ترتكب حماقة التبرير .

عندما رأت نظرته الجريحة تطوف رؤوس النخيل قالت له « ربما أعود إليك » . . . وشعرت أنه غير مقتنع بما تقول لقد كان يعرفها أكثر مما تعرف ذاتها . . . « فجملة ربما أعود إليك » هي آخر ما تبقى في داخلها كي تعوض رفضها لواقعه ، ولقضيته ، وللحياة معه وسط هذه الظروف التي يعيشها . . . .

قال عمر ، ودموع جافة تسكن عينيه « هل ستكون باريس محطتك الأخيرة ؟» .

لم تجب نادية بشيء . . ظلت صامتة . . ظلت تتأمل الكثبان الرملية من حولها وزهور «الكادي»، الحمراء المتناثرة بين شجيرات صبار عتيقة تسكن « شاطىء المحيط . لم تكن نادية تملك شيئاً لتقوله أو تمنحه لعمر . أحست أنها تنضب ، أحست أنها وحيدة في هذا العالم . . . وحيدة كسيف غرز على قمة رابية في صحراء مجهولة . . . وحيدة كنخلة زرعت في برودة الصقيع .

في المطار وقفا معاً في صالة الترانزيت ينتظران وصول الطائرة الفرنسية القادمة من « داكار » . . . كان قلقاً ؛ ذلك القلق الذي يجعل منه كتلة حياة دائمة . في تلك اللحظات دخل الصالة عدد من الشباب

الصحراويين الملثّمين فتلاقت عيونهم بعيني عمر . . . شعور بالذنب بدا مجسداً في حركاته فأمسك بيد نادية وجذبها إلى أحد المقاعد الجانبية وجلس إلى جانبها كأنه يحتمي بها من عيونهم .

ـ إنك مطمئنة إلى قرارك بالرحيل ؟ .
ـ ماذا تريدني أن أفعل هنا ؟ .
ـ وماذا ستفعلين في باريس ؟ ماذا كنت تفعلين في باريس ؟ .
ـ كنت أكثر قرباً من بيروت .
ـ ولكنك ترفضين بيروت أيضاً . .
ـ إنني أرفض حروبها المجنونة .
ـ وإذا استمرت هذه الحروب ماذا تفعلين؟ .
ـ سأنتظر . . . .

كانت تعرف أن باريس بالنسبة إليها محطة انتظار وبعدها ستعود إلى تلك الأرض المشتعلة ، إلى أرضها هي لتجد مكانها الصحيح .

المطار مقفر من حولها وهي لا تطرح أسئلة .

قبل الأمس كان الجميع في المخيمات يدرك أنها ستظل إلى جانبهم ، وحتى السيدات الصحراويات اللواتي تعودن أن يرفضن أي وجود لامرأة أجنبية بينهن أحببنها . كانت «ماميا» مسؤولة الإعلام تقول عنها : « إنها أول عربية تزورنا وتقبل حياتنا كما هي » وذات يوم قالت لها وهي تراها إلى جوار عمر : « لو بقيت معنا لطالبنا إلى الجبهة أن تعطيك خيمة ، وبساطاً ، وفراشاً » . . . وضحكت نادية للعرض السمح الذي يمثل أقصى أحلام امرأة تعيش واقع الحرب في تلك الصحراء .

قالت لها نادية ضاحكة : « إنني سأطلب الخيمة ومولّاها » فأجابتها السيدة الصحراوية « سي عمر بجنبك وتطلبين مولّى الخيمة . .؟! سي عمر يا نادية سيدنا ومولّانا » . والتفتت إليه . سعادة ضاحكة تنطلق من عينيه . . . اقترب منها وأحاطها بذراعه اليمنى فأحست حرارة الشمس التي لم تعرفها في أوروبا . . . كانت نادية تعيش هناك صقيعاً دائماً حتى

عـرفته . . . وهي تـدرك أنها اليـوم عبر هـذا الرحيـل سوف تختـار بعده الصقيع من جديد .

حـاول عمر أن يقـطع صمت ساعـة الوداع فسـألها : هـل ستكتبين مقالاً ؟

ـ وهل تعرفت بما فيه الكفاية على الصحراء ؟! .

ضحكت بشيء من الأسى :

ـ إنني أفرق بين لهجة أهل (الداخلة) و (السـمارة) وكـذلك أميز ملامح أهل مدينة (العيون) عن ملامح أهل مدينة (بوجدور) .

تذكر الأيـام الأولى لوجـودها بينهم . . كـان وجودهـا يضيء عليهم وعلى الصحراء كلها . . تذكر يوم دخلت عليه في مكتبـه تـردد التحيـة باللهجة الحسانية «إياك لا بأس عمر اياك الصحـة . . اياك العـافية . . » ونهض من وراء المكتب واتجه نحوها . . كان يفرح لأي فعل تقوم به كما تفرح الأم لخطوات طفلها الأول . . كـان يفرح لأي قدرة على الانسجام تبديها مع واقعه . . كان يتمنى أن تظل معه . . . فقبلها عرف الكثير من النساء ، لكنه لم يشعر أبداً ذلك الحنين إلى السكينة إلا معها . . . عرف نساء كثيرات وهو يطوف أوروبا . وأميركا اللاتينيـة لكنه لم يجـد امرأتـه هو . . . وحين وجد « امرأته » ها هي ترحل .

قالت نادية :

ـ ستمر الطائرة في الدار البيضاء ثم مدريد . . ومن مدريد سأستقل طائرة الخطوط الفرنسية إلى باريس .

واستمع لكلماتهـا كأنـه يستمع لتـاريخه . . . تـاريخ يـرويه سـاحر مجنون فيحوله إلى مجرد إشارات لسنوات عـاش فيها عـذاب الغربـة ، وعذاب الخيار الصعب . . .

مـدريـد . . . الـدار البيضـاء . . . بـاريس . . . الـربـاط . . . الجزائر . . . نواكشوط . وهذه الصحراء الممتدة حتى المحـيط . . هذه

المعركة التي لم يخترها ولكنه مجبر على أن يكون أحد قـادتها لأسبـاب يتداخل فيها التاريخ بالجغرافيا . . بصراع القبائل . . .

وبدا الماضي لعمر قريباً حتى كاد يلمسه بعينيه وكفيـه . . . ها هي الذاكرة تطوف به ماضيه . . .

« ما بين الدار البيضاء ذات الأجنحة البحـرية . . . ومـدريد قضيت سنـوات دراستـك . . . قضيت شبـابـك الأول . . . عشت وعيـك الأول . . . التقيت البشير فشدّك من ضيق الصحـراء إلى رحابـة الوطن العربي . . . كنت واحداً من قلة من شبـاب شمال أفـريقيا آمنت بـذلك الفيلسـوف البعيد الـذي كان يسكن المشـرق . . . ذلـك البعيـد الـذي استحق الغياب القاتل لأن خياله تصور وطناً لكم جميعاً . ولم تكد تفرح بـاكتشافـك . . . لم تكد تقـرأ فيلسوفـك البعيد حتى حـاصرتـك أشعـة الصحـراء بكل جنـونها . . عـدم استعداد شامل في المنطقـة لاستيعاب عشرات الآلاف من أبناء وطنك تائهين في الرمال . . . بينهم أحفاد ملوك الشمال الأفريقي الذين اتخذوا من الصحـراء معقلاً لهم . . . عـامان في مدريد كنت تعيش كل لحظة بانتظار أن تنهض الحركة الـوطنية في بـلاد المغـرب كله ، لتشكل لـك وطناً . . وكنت تحلم فيتحـول حلمـك إلى وحشة وخوف من الحرب التي تجسدت لك قادمة بعـد أن بدأ في الـوطن الذي أحببت زمن دول الطوائف ، والمـذاهب . في البدايـة كنت تقول لأصـدقائـك من الفلسـطينيين واللبنـانيين والسـوريين الـذين تلتقيهم في مدريد : إن شمـال أفريقيـا لن تصيبه عـدوى التمزّق والحـرب الطائفيـة فالتاريخ صالحه مع نفسه إذ جعله طائفة واحدة وإن اختلفت الأنظمة . . . وعنـدما انفجـرت الحرب . . حـربك أنت . . . كـان عليـك أن تختـار وبسرعة . . . هربت من الخيار في البداية وقلت لأصدقائـك ونفسك مـا قـالته نـادية : « إنهـا حرب القبـائل » . وعلينـا أن نعيدهـا إلى مجـراهـا الطبيعي . علينا أن نجعل منها جزءاً من كفاح الشعب لاستـرداد حريتـه وأمنه . . . لكن « حرب القبـائل » تـطورت خلال سـرعة زمنيـة لم يكن بمقـدرتك أو بمقـدرة القلة من أبناء الصحـراء الذين كـانوا إلى جـانبك

إيقافها ، وتداخلت الأمور ، ومرت فوق رؤوسكم عشرات الحسابات والأسئلة لدول المنطقة . . . لكن أحداً لم يكتشف نزوعكم إلى الأمن والاستقرار . يوم عرفت ذلك . . . يوم فهمته كانت إلى جانبك امرأة أخرى تنتمي إلى أدغال أميركا اللاتينية . تلك المرأة التي ظننت نفسك مشدوداً إليها بوثاق لن يفكه إلا الموت . . . عندما كانت تغيب عنك ساعات . . . ساعات فقط . . . إحساس غريب يداهمك بأن العالم كله يرمي بك إلى الليل الموحش والوحدة ، بينما خارج نافذة غرفتك كانت تنتظرك مدريد المضيئة الصافية مثل محطة قطار . . . كل شيء فيها حارّ وكل شيء فيها حزين ينذر بالوداع . . . كانت تلك المرأة هي آنيا . . لماذا تذكر آنيا وأنت تودع نادية ؟ .

ربما لأن نادية تختصر في عقلها وجسدها . . . وعينيها ما كنت تطلبه من آنيا . . . . آنيا القادمة من جبال الأنديس . . . آنيا التي تربّت في أحياء . . « بوغوتا » تحت رذاذ مطرها الدائم . . . آنيا التي أعادتها أوروبا إلى حقيقة وجودها ، وعندما وصلت إليك كانت تحضر نفسها للعودة نحو كولومبيا لتلتحق بحركة (M19) وتقاتل ضد السلطة الفاشية إلى جانب كولونيل من أصل عربي اسمه « فياض » ما زال يؤمن بصلاحية البؤرة الثورية التي تحدث عنها (تشي غيفارا) قبل رحيله . . . ورحلت عنك آنيا بعد وقت قصير . . . بعد سنةمن لقائكما . . رمتك بعدها إلى الوحدة والخيار المستحيل بين الحرب واللاحرب . كانت الحرب قد انفجرت فوق أرضك وكنت متردداً في الالتحاق بها . . وودّعتها في مطار مدريد كما تودع نادية الآن فانطفأت أمامك جمرة مضيئة ، وانحدرت الدموع من عينيك بصمت . . . تركت دموعك تنحدر لتستقر على شفتك مثل مجذافين بلغ قاربهما شاطىء البحر . . .

بعد رحيل آنيا قررت الالتحاق بالجبهة لأن غيابها حوّل تردّدك ووحشتك إلى إحساس بالنفي ، وخوف من الغربة . كنت تهرب من أصدقائك وتدخل شقتك في أحد أحياء مدريد لتلملم نفسك على تردّدك وحزنك . . . عدة شهور . . . عدة شهور كان حولك مئات الأصدقاء

وبعض الرفاق الذين آمنوا مثلك بأفكار ذلك الفيلسوف الذي كان يسكن المشرق . لكن الأصدقاء زادوا في وحشتك . . . وكشف لك عجزهم مبرّر تردّدك الذي لم يدركه أحد ، ولم يفهمه إنسان .

يوم تلقيت رسالة من أبيك أحد شيوخ قبائل الصحراء يدعوك فيها للحضور إلى الصحراء عن طريق نواكشوط ، ويحضّك على حسم خياراتك لأن عدم الحسم سيترك الزعامة لقبائل أخرى ، أحسست كأن الرسالة هي قارب النجاة وسط الضياع الذي عانيته في مدريد بعد رحيل آنيا . هل تتذكر ذلك جيداً ؟! .

مضت أيام وأنت تقاوم ، وحاولت الاستعانة بالأصدقاء علهم يسندونك في مقاومتك . . . . عبثاً يا عمر .

شتاء مدريد . . . طرقها العريضة الموحشة . . . ظل الفاشية التي رحلت نحو مقبرة . . . « الأسكوريال » . . . أيام ودفتر هواتفك بين يديك في المساء تستعرض أسماء الذين تعرفهم اسماً اسماً فقد يكون هنالك مناضل حقيقي مررت به دون أن تلحظه . . . أو أشخاص يفهمونك . . . لا أحد .

وكثيراً ما استبد بك الشوق إلى سماع صوت إنسان فلم تجد أحداً .

وهكذا اتخذت قرارك بالرحيل عن مدريد . . . ودّعت كل شيء وأنت تدرك في أعماقك أن القرار ليس وليد اقتناع بعدالة الحرب أو عدم عدالتها . . . عوامل كثيرة تداخلت فيه . . . وحشتك ونفيك . . . تردّدك أمام الخيارات . . . سقوط حلمك العربي بوطن واحد . . . هزائم المشرق كل المشرق . . . الحروب الأهلية والطائفية هناك . . . لكن هذه المبررات أصبحت فيما بعد سراً لا يعرفه أحد سواك . . . لكل رفيق يقاتل اليوم معك أسرار مماثلة ومحصلتها هذه الحرب » .

ـ تأخرت الطائرة يا عمر !

ـ هل أنت متعجلة للرحيل ؟ .

شعرت بالخجل فاسترخت على مقعد في الصالة بينما كان الـرذاذ الخفيف لمطر صحراوي ينقر جدران القاعة الزجاجية . قالت :

ـ لست متعجلة للرحيل ، لكن رذاذ المطر يضايقني .

ـ إنك تحلمين بالعواصف وستذهبين إليها .

ـ ولكن مطر أوروبا لن يغسل جثث من قتل قبل أيام تحت وابل غارة هنا ونيران وصواريخ في بيروت .

حركت يدها لتمسك بكفّه الممتدّة إليها . . . سمعت صوتهـا يقول له : « إنني أحبك ولكن ! » هزّ رأسه بهدوء ، وبدت على وجهه ابتسامة ساخرة . . . فهو يدرك أنه لا يستطيع منحها أي شيء . . . لأنه لا يملك شيئاً . . . قالت له :

ـ هل تتصور أنني منذ تركت بيروت وأنا دائمة الرحيل ؟ .

قال : ـ لقد اخترت ذلك .

أحسّت أنه لم يفهمها حتى الآن . . . أو أنه يخادعها . فهي لم تختر الرحيل . . . ألم يدرك أن الوطن كله راحل إلى المجهول . . . ألم يدرك أن علينا أن نقاتل لنوقف رحيله . . .

ـ لم أختر الرحيل . . . أجبرت عليه .

ـ إنك ترددين ذلك باستمرار . . . فلماذا أجبرت ؟! .

ولم ينتظر عمر الإجـابة . . . قـادته الـذاكرة القلقـة مرة أخـرى إلى ماضيه القريب . . .

«يوم قررت أن تترك مدريـد إلى الصحراء اختـرت طريقـاً معاكسـة للطريق الـذي رسمـه لـك أبـوك في رسـالتـه . . . لم تستقـل الـطائـرة إلى الجزائر أو نواكشوط بل ركبت القطار من مدريد إلى إشبيلية . يومها

قال لك صديقك الفلسطيني عدنان ساخراً: «أتريد أن تدرّب نفسك على احتمال الوطن، بأن تعيش أياماً في أول محطة منه.. إشبيلية؟» وضحكت من تعليقه ؟.. فهمت لماذا اخترت إشبيلية ؟.. إشبيلية ذات القصور الدمشقية والساحات المعلقة ... ذات القنطرة والذكريات ... كنت تسير في دروبها لأيام ثلاثة على غير هدى فتشم رائحة عطر غريب ينبعث من الجدران ، وشقوق الأرض ... تسمع موسيقى خفيفة تنبعث من البيوت وأشجار النارنج ... وزهور البرتقال . ومثل رجل مسحور كشفت الثياب عن صدرك ذات مساء لتستقبل ريح إشبيلية ... لتنتقل تلك الريح إلى ما تحت الجلد فتطفىء الحنين الذي يعذبك ... صداقة غامضة وبلا كلمات نشأت بينك وبين تلك المدينة ، صداقة نفت عنك الأحزان ، والذكريات ، وأبعدت صورة آنيا بعيداً ... ثلاثة أيام انتقلت فيها من وحشتك كعربي وحيد في هذا العالم إلى رجل يبحث عن التاريخ ويحس حاجته إلى امرأة تأتيه من غابات ماضيه البعيد فتغسل عنه ذل الهزائم والانكسارات ، والاسماء البعيدة .

يوم قررت أن تغادر المدينة إلى « جزر كناري » ومنها إلى « نواكشوط » ذهبت إلى المطار لتشتري بطاقتك ، وقال لك موظف شركة الطيران : « إن هناك ثلاث ساعات أمامك كي تقلع الطائرة »، خرجت من المطار القريب وعدت للطواف في المدينة التي تحمل تاريخك ... قلة من الأسبان يدركون ذلك الرباط الخفي الذي يربط بين العربي والأرض في أسبانيا ... بين العربي والجدران ... وبينما كنت تتجمد برداً أمام النصب التذكاري الذي رفعه شباب إشبيلية «لابن زيدون وحبيبته ولادة بنت المستكفي » مرت بك عن قرب راقصة فلامنكو بتنّورتها السحرية ، وشعرها الأسود المرسل إلى الخلف ... أدركت مرورها بواسطة ذلك العطر الخفي الذي بعثه وجودها قريباً من التمثال ... حاولت اللحاق بها لكنها اختفت عن عينك في أزقة إشبيلية العتيقة ... خيل إليك أنك تعرف المرأة من قبل ، وظننت أن ملامحها لم تكن غريبة عنك ، لكنها كلما اقتربت منها كانت تبتعد ... سرت وراءها في شوارع

إشبيلية . . . سرت طويلاً . . . في الأسواق العتيقة التي تفوح منها رائحة عطر آسيوي تنبعث من أشجار النارنج والبرتقال . . . مررت بمسجد إشبيلية وتابعت سيرك . ثم فجأة في زقاق ضيق لمحتها تنحني لتدخل باباً صغيراً لأحد القصور العربية . . . إحساس مدهش داهمك أنك كنت في هذا المكان من قبل ! وأنك تعرف هذا البيت . . . كان ذلك مذهلاً بالنسبة إليك لأنك تدرك جيداً أنها المرة الأولى التي تأتي بها إلى إشبيلية ، وتسير في شوارعها وأزقتها ، فخلال فترة وجودك في أسبانيا كنت باستمرار ترفض الذهاب إلى الأندلس ، وكانت حجتك الظاهرية : « لا أريد أن انكأ جراحي ». وجدت قدميك تقودانك إلى بوابة البيت . . . وتذكرت أنك دخلت هذا البيت من قبل ، ولكن كيف وأنت صحراوي لم يعرف في طفولته بيتاً ؟! بحثت في جيبك عن مفتاح تفتح به الباب الموصد أمامك فوقعت يدك على مفتاح لا تدري كيف وصل إليك ، فتحت الباب ودخلت . . . كان البيت الأندلسي خاوياً . . . لا أحد . . . لا امرأة . . . لكن عطراً خفياً شبيهاً بالعطر الذي بعثه مرور الراقصة كان يسكن القصر . . . عدت أدراجك إلي المطار للحاق بالطائرة ، التي كنت آخر راكب يصعد إليها ، عندما عنفك ممثل شركة الطيران على تأخرك لم تفكر بأن تروي له قصة راقصة الفلامنكو السحرية . . . وظلت هذه القصة سراً من أسرارك حتى عرفت نادية في الجزائر يوم لمحتها في صالة فندق « أليتي » ثم اختفت عن عينيك تركت وراءها ذلك العطر الآسيوي الذي شممته مرة واحدة في حياتك يوم إشبيلية ، وحدثتها فيما بعد عن ذلك فضحكت كثيراً وقالت لك : كنت أسكن دمك قبل أن تدري ».

تأخر وصول الطائرة ، وما زالا في صالة المطار ينتظران . كانت تأمل أن لا تصل تلك الطائرة . . . وكان يتمنى ذلك . . . كان الحب والقلق والخوف من المستقبل والرحيل يجمع بينهما في تلك اللحظة كما يجمع

الليل نجوم السماء . لكنهما يدركان تمام الإدراك أن الرحيل القريب هو حقيقة قصتهما . . . أراد أن يمني نفسه بأمل ما فسألها :

ـ هل تعودين معي ؟

لم تجب بشيء . . . ظلت صامتة بينما كانت الطائرة تهبط أرض المطار .

تتجه إلى الطائرة صامتة بينما كانت شمس الظهيرة تنشر حرها اللافح على مدينة نواكشوط فتحيلها ظلالاً ، وسراباً ، سراباً بين الرمال والمحيط .

هزت رأسها علامة النفي . . . علامة القبول . . . وحار عمر في تفسير تلك الحركة ، حينما ضمّها إليه ليقبّلها قبلة الوداع . أحس رعشة جسدها المتعب يلتهب بين يديه . . أحس بدهشة حقيقية فهو لم يشعر دفء جسدها من قبل بهذه الصورة . . . أو بهذا النداء الصامت . . . الأمر . . . الخفي . ولكن ؟!.

ها هو الرحيل يجثم بأنفاسه ووجوده المرعب على عمر . . . على مطار نواكشوط . . . على المرأة نفسها . قالت :

ـ هذه المرة يبدو لي الرحيل مرعباً .

ضمها إلى صدره مرة أخرى فأحسّ أنها ترتجف كأغصان شجرة تهزّها العاصفة . . . ترتجف كجريح عاجز عن الحركة تأكل الغربان من جسده . . . وسقطت بصمت دمعتان على وجنتيها . . تأملها . . . لا أثر للندم أو الخوف على وجهها وكأن ما يحدث لا يقرر مستقبلهما بل هو مجرد حلم لا يمكن أن يتحول إلى حقيقة . . . تمنت نادية في أعماقها أن لا يتحول هذا الرحيل إلى حقيقة ، ولكنها تذكرت بألم : أنها تمنت كثيراً في حياتها ، وكانت أمنياتها تسقط في الوهم .

شعرت بغصة قاتلة . . بضيق . . . برغبة في الصراخ . . . لماذا علينا في هذا الزمن أن نتخلى عن أحلامنا ؟! لكن ما هي الحقيقة ؟ وما هو الحلم ؟.

عيناها تطوفان فضاء المطار قبل صعود سلم الطائرة كأنها تبحث عن شيء أضاعته . . . رفعت يدها المرتجفة إلى وجهه فمسحت عليه . . . ارتجف . . . أحسَّ الرغبة في امتلاكها وتساءل : هل ستكون له بعد هذا الرحيل ؟! . . . كاد يأخذها بين ذراعيه ويحميها من غربتها ، وجنونها ، وقلقها ، لكنه أحس العجز لأنه يدرك جيداً عدم قدرته على ذلك . . . لأنه غريب وسط أهله . . غريب وقلق ، ومجنون . رأى عيون عدد من الضباط القلائل المنتشرين في المطار تتأمّلهما . . وسمع صوت مندوب شركة الطيران يستعجل نادية . . . . أحسّ أن لا حول له ولا قوة . . أحس أن رحيلها يدمره كما لم تدمّره الحرب . كان يدرك جيداً أن بإمكانه أن يقود قبيلة ، ويحارب وينتصر ، وينهزم ويسمى بطلاً لكنه أعجز من أن يطلب إليها البقاء .

آخر نظرة ألقتها عليه ، نظرة يمتزج فيها الجنون بالدمع . . . نظرة مليئة بالحنين . . . نظرة لا يدرك كيف يفسّرها .

أحنى رأسه بينما ظلت الطائرة تعول على أرض المطار . . . ترسل أصواتاً حادة كنحيب النساء . . . وغابت نادية . . . ابتلعها الغياب الكبير الذي بدأ في حياته الآن . . . هل أحب نادية ؟؟ أحبها حتى الجنون لكنه لم يملك كما لم تملك هي نهاية ممكنة لذلك الحب ، فالزمن ليس زمن الحب في وطنهما ! . . .

عندما اتجهت به سيارة اللاندروفر عائدة إلى نواكشوط ، طلب إلى سائقه أن يأخذ طريق الشاطىء . . . كان يريد أن يتأمل المحيط علّه يحلم بالرحيل . . . كان حزيناً حتى الموت ، يتذكّر كل ما سبق وقرأه من أكاذيب أدبية وشعرية عن امرأة تهجر العالم لأجل رجل . . . عن رجل يهجر العالم لأجل امرأة . . . لم يهجر صحراءه لأجلها . . . لم تهجر عالمها لأجله . . . رأى في عرض المحيط عن بعد سفينة بعيدة فطلب من السائق أن يتوقف . . . ترجل ومشى خطوات نحو الشاطىء . . . ويبدو أن وجوده أزعج الطيور البيضاء فهبّت في سرب متّجهة نحو السفينة . . . ظل واقفاً دون حراك ، وأحسّ تعباً يجتاحه كما لم يشعر من قبل . كان

جرحه في الساق اليمنى ينبض بشراسة وعناد . . . أحسّ حاجته العميقة لملامسة أرض حارة . . . . خلع حذاءه وغرس قدميه في الرمل . . . أحس الرمل حاراً وطرياً . وعندما هبّت الريح البحرية المعطرة بالملوحة وبعض أميركا اللاتينية على الطرف الآخر من المحيط . . . عندما داهمته رائحة الحشائش البحرية التي حدثته عنها نادية بشيء من الاطمئنان ، وسمع من بعيد غناء ، تلفت حوله يبحث عن مصدر الصوت فوجد صياداً لا يتجاوز الخامسة عشرة يلقي بشبكته في مياه المحيط . . . كان صوت الصياد حنوناً ، وغناؤه خالياً من النواح . رفع يده محيياً فلم يلمحه الصياد ، وظل مستمراً في غنائه كأنه وُجد في هذه البقعة من الأرض منذ الأزل .

ترك الشاطىء وراءه واتجه إلى مكتب الجبهة ، وما أن عبر عتبة الباب حتى أسرع إليه سالم ببرقية من خط المواجهة تطلب إليه الرحيل للالتحاق ببقية أعضاء القيادة العسكرية في الخطوط الأمامية .

*****

أهو عويل الطائرة أم صوت تلك المرأة النائحة التي عرفْتِها في جنوب لبنان ؟ كانت تلطم وجهها وتمزّق ثوبها وهي تصرخ باسمِ ابنها الوحيد الذي يعيلها :

« يا خراب بيتي

يا عمود داري وعمري » .

يومها أضعت بقية الكلمات ولم يصمد أمامي إلا وجه المرأة وهي تبكي بحرقة وتتفجع . . . يحمل تفجعها ذلك الحزن الكربلائي الذي تجرونه أنتم سكان الجنوب معكم منذ مقتل الحسين وحيداً في تلك الصحراء .

«اخجلي أيتها الأرض من نفسك » .

تختلط جملة أبيك الرادعة لفجر الأرض في الربيع . . . تختلط

بنواح المرأة الجنوبية بعويل طائرة تقلك من مطار نواكشوط حيث ودعت عمر نحو المدن الأوروبية .

من نافذة الطائرة تلمحين عن يمينك المحيط الأطلسي ، يمتد إلى ما لا نهاية. ولكنك تعرفين أنه يمتد حتى القارة الأخرى الحبلى بالجنون . . . ألم يحدثك « غارثيا » في برشلونة يوم التقيته صدفة وهو يحتفل بنشر كتابه الخامس عشر عن بؤس القارّة . . . عن طرائفها . . . عن أولئك الرجال الذين كانت متعتهم الوحيدة إحصاء الجماجم البشرية . . . ولا تدرين لماذا هاجمتك ذكرياتك مرة واحدة . . . تذكرت فيما يتذكر المسافر أنك كنت طالبة في الجامعة الأميركية . . . وكان صوت « فابيان » أستاذ علم الاجتماع الأميركي ، من أصول مكسيكية ، قادراً باستمرار على نقلك من الصحوة الجافة إلى الحلم بأدغال أميركا اللاتينية . كان فابيان يجيد الإنكليزية بلكنة اسبانية ، لكنك لم تلحظي تألقه المذهل إلا يوم تحدّث بالاسبانية عن تاريخ القارة .

إذن هناك خلف هذا المحيط ترقد القارة التي حملها إليك فابيان أثناء تدريسه علم الاجتماع . . . وفي شعاب بعض جبالها تقاتل آنيا التي أحبها عمر .

عن يمينك . . . من النافذة الأخرى في الطائرة تلوح الصحراء . . . رمال صفراء تمتد هي الأخرى إلى ما لا نهاية .

وعن يسارك المحيط والحرب . . . وأمامك أيتها الغبية سيكون فراغ الوحدة والانتماء . . . سوف تعودين للصقيع من جديد . ولم يختزن دمك من شمس الصحراء ما يزوّدك على العيش في أوروبا .

أهو عويل الطائرة أم نواح المرأة الجنوبية ؟ .

في بيروت كنت تملكين القدرة على العشق ، لكن حبك اختلط بكل

ترّهات الحرب ومآسيها ، وهذا ما جعلك ترفضين ، فاتسم الرفض بأشياء كثيرة ، وقضايا خطيرة .

يوم تركته كماً من الكذب ، والادعاء ، والبؤس والخيانة على رصيف مقهى في بيروت أدركت أنك تتركين وراءك عالماً من الأوهام التي تربّيت عليها . . . أوهام كان لا بد من حرب طاحنة لإسقاطها . وسقطت أوهامك التي نسجتها مع نادر وحوله . . . ولكن .

ماذا عن الرجل الثاني ؟! ماذا عن ذلك الصحراوي الجارح في حبه ؟! .

جاءك في غير زمنه ، وفاجأك وأنت تائهة بين الخيارات ، وأنت مستسلمة كما يستسلم مقعد الحرب إلى الهزيمة . . . جاءك في غير زمنه وأنت قلقة في باريس . . . وحيدة عاجزة . . . جاءك عمر يحمل في جعبته هماً فهمته جيداً لكن لم تقرّي به .

فوق الطائرة التي تقودك من صمت الصحراء إلى ضجيج أوروبا تبدو السماء رمادية . . كالحة . . أأنت على يقين من لون السماء ! أم أنك تعودت رؤية الرمادي في كل شيء حتى استحال اللون الوحيد في حياتك ؟ . . .

وبكيت . . .

ضبطت نفسك متلبسة بالبكاء ، فتلفّتّ حولك في الطائرة لتري إذا كان أحد الركاب يراقب دموعك، استرحت عندما لحظت أن الركاب القلائل على الطائرة مشغولون بأنفسهم وبمنظر المحيط والصحراء . . كان هناك مجموعة من رجال الأعمال الأوروبيين . . . بعض زنوج القارة الراحلين إلى أوروبا . . . ثلاثة أو أربعة من الموريتانيين يرتدون البدلة الأوروبية بدلاً من زيّهم الوطني فيبدون كأنهم في حفلة تنكرية .

لأول مرة منذ تركت باريس إلى الصحراء للحاق بـ « عمر » تفاجئك مئات الأسئلة . . . كل الأسئلة التي تحاولين مطاردتها وإبعادها في حياتك . . . أسئلة هذه المرة عن الباعث الحقيقي لرحيلك عن باريس ؟

هل كان حبّك لعمر هو القوة الدافعة للرحيل ؟ أم الرغبة بالهرب من السأم ، والضجر وعدم القدرة على الخيار ؟ أم الرغبة بالابتعاد عن المهاجرين من أبناء وطنك الذين وصلوا أوروبا تاركين وراءهم الوطن يأكل نفسه ؟ .

الصحراء تبتعد ، وما قاله لك عمر قبل الرحيل يبدو كأنه حقيقة . . . قال عمر وهو يشدّ على كفك : « أصبح من الصعب عليك أن تركني إلى رجل ، أو حلم ، أو أرض . . لقد دمّرتك الحرب في بيروت . . » .

بعد أن سمعت كلماته هذه دهشت ، ورأيت نفسك عارية في مرآة عينيه فحاولت ستر عريك بالكلمات . . . حاولت أن تقولي له جملاً كان يعرف كما تعرفين أنت أنها لا تمثّل الحقيقة . . . قلت له « ولكنني أحبك أنت . . أحبك أكثر لو تغيّرت الجغرافيا ، وتبدّل الواقع » . وقلت له أيضاً : « لو بقيت إلى جانبي في باريس لتغيّرت أشياء كثيرة » .

سمع كلماتك كأنه لم يسمعها . . هزّ رأسه علامة النفي . . . علامة القبول . وأدهشك الصمت الذي لفّ اللحظات الأخيرة من وداعكما . . أدهشك صمت عمر ، وصمتك ، أحسست للحظات أنك أعجز من أن تستحضري الكلمات ، وشعرت أن للغة حربها ، وللكلمات زمنها .

مثل هذه الحقيقة غابت عنك طويلاً في زحمة الخطابات ، والأدب الرديء والصراخ المفتعل في أوروبا .

ودون أن تدري ، تذكّرت المرأة النائحة في الجنوب فأحسست أن نواحها هو اللغة الوحيدة الصالحة للردّ على تساؤلات عمر . . . للردّ على ما تعيشين اليوم . . . لكنك لا تجيدين النواح . . . وهذا مأزق آخر تجدين نفسك أمامه . . . ببساطة أنت امرأة لا تصلح للحب ، أو للحرب ، أو النواح .

امضي حيث تشائين . . . ارحلي . . . اسكني المطارات ومحطات القطار . . . عودي من حيث جئتِ . . . فلن تتغير المعادلة . . . لا حب . . . لا حرب . . . لا نواح . . . لا أنت .

وتشعرين عويل الطائرة يكاد يحطم رأسك ، فتصرخين وسط حيرتك منادية المضيف في الطائرة :

ـ « كأس ويسكي يا سيد ! ».

عندما سمعت نادية صوتها يردّد الطلب ظنّت نفسها امرأة أخرى ، امرأة خيالية كبطلات روايات بعض الكاتبات العربيات الحالمات . بالانعتاق عن طريق السكر والتشرّد .

في باريس كانت نادية تهرب من الكحول، وترفض أن تسكر . وكانت حجتها دائماً في مقهى « كلوزري دوليلي » أمام أصدقائها « إنني بحاجة للصحو كي أستوعب جنون ما نعيش ». بعد الصحراء تبدو الآن وكأنها بحاجة للغياب حتى تنسى جنون ما تعيش . . . النتيجة واحدة !؟ لا . . . أنا اليوم امرأة أخرى تبدو على حافة الأشياء كلها . . .

بعد الكأس الأولى اشتد عويل المرأة الجنوبية . واختفت الصحراء التي كانت تطل عليها من النافذة ليبدو مكانها الجنوب الكربلائي . . . رأت فيما يرى النائم أمها وهي تقف أمام باب البيت وحيدة ترقب الدبابات الإسرائيلية عندما جاءوا للمرة الأولى (لقضاء نزهة في مدينتها) كانت تقف إلى جانب أمها صامتة بينما المرأة الجنوبية . . . المرأة النائحة تصرخ في الشارع أمام زحف الدبابات . . . وحاولت نادية أن تقلّد المرأة فتصرخ لكنها ما أن همت حتى تلقّت صفعة على وجهها . . . كانت كفّ أمها . . فامتنعت عن الصراخ ومنذ ذلك اليوم وهي عاجزة عنه .

فكرت أن تصرخ لتوقف هذه الطائرة عن العويل . . . فكرت أن تنهض وتذهب إلى غرفة القيادة ، فتطلب من قائد الطائرة أن يتجه بها إلى مدينة عربية أخرى حيث لا شرطة ، ولا جلادين ، ولا أجهزة غبيّة تحرس الحكام العجزة وتنسى الوطن . . .

وقبل أن تنهض من مقعدها تذكّرت أن لا وجود لمثل هذه المدينة ـ الحلم فعادت إلى شدّ حزام المقعد جيداً ، وتمنّت أن تفاجئها في تلك

اللحظة سكتة قلبية فتنهي هذا القلق المدمّر الذي يلاحقها كيفما اتجهت .

تدفّقت في رأسها أسماء المدن العربية . . وتوقفت أمام كل مدينة زارتها علّها تجد فيها ملامح من حلم ينسجه مثقفون تائهون مثلها . . . عندما أدركت أن المدينة الفاضلة لا وجود لها على الخارطة العربية لم تفاجأ . لقد سبق أن أقرّت مع أصدقائها في (كلوزري دوليلي) مثل هذه الحقيقة ، فلماذا البحث ؟ ولماذا الأسئلة ؟ .

إنها الكأس الخامسة .

لا بل السادسة .

لم تعد تذكر كم ألقت في جوفها بما ينسيها العالم . كل ما تذكره أنها بحاجة إلى مزيد من الويسكي علّها تفقد الذاكرة . . . تمدّ يدها فتلمس زجاج نافذة الطائرة البارد . . . الزجاج الذي يصلها بالصحراء . . . بالسماء الرمادية . . . بالمحيط .

وتتمنى لو يتحول الزجاج إلى جدار هائل . . . جدار شبيه بجدران المدن المسحورة التي قرأت عنها . . . جدار يفصلها عن العالم ، والبشر والرغبات . تتكلم وراءه فلا يسمع صوتها أحد . . تصرخ فلا يسمع صراخها أحد .

وأحست بغربتها . . شعرت بأنها شجرة وحيدة في هذا العالم . . . وحيدة كأميرة مسحورة . . وحيدة كنخلة لا ظل لها .

« أيتها الأميرة الأرملة رحل أميرك ولن يعود . . . » .

خيل إليها أنها تسمع صوت أمها وهي تسرّح لها شعرها الطويل الأسود تغنّي :

« لمن ستُزوَّج الأميرة الساحرة ؟

جاء الملك يخطب ودّها . . .

وجاء ابن الحسين . . .

فقلت للملك اذهب فالأميرة لا تعشق الملوك .

ومضى الملك . . لكنه أخذ في طريقه ابن الحسين ».

لا تدري من أين جاءت أمها بهذه الأغنية . . . هل كانت تعرف مبكرة أن ابنتها ستظل أميرة مرصودة للحزن الكربلائي . . . للصحوة القاتلة . . . للأسئلة التي لن تنتهي ؟ أسئلة . . . أسئلة . . . . أسئلة . . . . إنها لا تجيد الإجابات أبداً . لكنها تملك الأسئلة .

قال لها عمر : « ليس هناك ما يسرك في نواكشوط . لن تجدي الشانزليزيه ، ولا كلوزري دوليلي . . . كيفما تلفتّ ستجدين البؤس والجفاف الذي ضرب البلاد هذا العام ».

وفعلاً هذا ما كان . سارت في شوارع نواكشوط طويلاً ولم تجد إلا البؤس .

كان الناس من حولها مشغولين بأنباء المجاعة ، وأخبار المطر ، والحرب . وكانت تقطع معه شارع « جمال عبد الناصر » أطول شارع في المدينة ، أمسكت بذراعه وهزتها كأنها تنبهه إلى حقيقة : .

« في كل مدينة عربية أجد شارعاً باسمه ، وحتى هنا . نهاية الخيام العربية » قبل أن يجيبها عمر بشيء . . . سمع ما قالته رجل عجوز يمسك بمسواك ويسوك أسنانه . . . أنزل المسواك وتأملها قليلاً ثم قال : « وماذا جاءنا بعده إلا الجفاف ؟ ».

اختفى الرجل العجوز كما نبت من الأرض فجأة، وتذكّرت نادية زيارتها الأولى للقاهرة على ضوء حكمة ذلك البدوي . . .

« وقف ضابط أمن المطار يحدِّثك عن مصر والعرب . . . وردّد على مسامعك ما تقرأينه كل يوم في الصحف ، وما تسمعينه من خطب ذلك الذي سرق مصر من أحضان أهلها فلم تعد لهم ، ولم يعودوا إليها . وظل الضابط يتحدث أمامك أكثر من ساعة لكنك بعد الدقائق الأولى أحسست أنك أمام أسطوانة مشروخة تدور وتدور في النقطة إياها .

كنت تزورين القاهرة للمرة الأولى فتلفت حولك بعد أن أفرجوا عن

حقـائبك وجـواز سفرك لتـري مصر التي عشقت في الخيـال . . . آلاف العمال العائدين من بلاد النفط . . . الصراخ . . . الغبار . . . البؤس .

رجال الأمن . . . والأسطوانـة المشروخة .

ألقيت نفسك في أول سيارة أجرة وسمعت صوتك يردد .

- إلى منشية البكري يا سيدي .

ودهشت عندما سـألك السـائق . . إذا كنت ترغبين بـالوصـول إلى عنوان محدد في منشية البكري فأسقط في يدك . . . كيف لم يفهم ذلك السـائق أن امرأة مثلك لن تفعـل شيئـاً في القـاهـرة قبـل زيـارة قبـره ؟ واضطررت أن تشرحي له هدفك فسمعته يردّد : « البقاء لله وحده » .

وتحـدث السائق المصـري عن همـوم كثيـرة . . . سمعت اللهجـة المصرية لأول مرة في وطنها فأدركت أن لها نكهة . . تختلف عن سماعها في المنافي ، فهل تكون اللغة في الغربة عدماً أم قبض الريح ؟ . . كنت تتحرقين لزيارة ضريحه . . . تتفجّرين حزناً عليه . . . تظنّين أنه بانتظارك هناك في منشية البكـري فارس يتكىء إلى سيفـه الذي قصفتـه الحروب وعـداء الأهل . . . كنت تعتقـدين أنك سترينه وتحـدثينه عن همـومـك الكثيـرة . . هكـذا ظننت . لكن الضـريـح كـان خـاويـاً ، دون علم أو حراسات ، دون زوار أو مشاعل . فقبل أيام أعلن «الفرعون الجديد» محو آثار من سبقه . . . وقال : « إن الأموات في ذمّة الله » . لكن الفرعون لم يـدرك حقيقة أن من كـان مثل ذلـك الراقـد في منشية البكـري ليس من الأموات حتى وإن كان في ذمة الله .

كأس سادسة . . . بل سابعة . . . بل عاشرة .

وقفت أمام ضريحه وحيدة ، ومرت الدقائق ، ومرت الساعات ، لم تشعري بالزمن إلا عندمـا هزّك شيـخ عجوز من كتفـك « لقد أقبـل الليل فعليك بالانصراف » وسألت الرجل العجوز : « ماذا يفعل في الضريح ؟ ومن هو ؟ فردّ إليك سؤالك . . . » .

وبعيدة هي القاهرة الآن بعيدة . . . خلفك مدينة نواكشوط . . . عدة أحياء من الخيام . . أطفال يتقافزون أمام المواقد في العراء ، كأنهم يعيشون احتفالاً جماعياً بحياة بائسة . . . جوع . . . جفاف . . . حلم بأن يتفجر الرمل نفطاً . . . أرصدة في بنوك أوروبا . . . أمراء . . . أمراء حرب . . . وتظلّ مدينة نواكشوط التي هجرتها على الطرف الآخر من المحيط فماً جائعاً ومنارة على طرف البحر .

توقّفت بدهشة أمام عيون النساء ذوات البشرة النحاسية ، والعيون الشبيهة بعيون الظباء . . . قلت لعمر وأنت تشيرين إلى أجسادهن المكتنزة :

ـكم هن جميلات ، لكن كيف يستطعن حمل تلك الأرطال من اللحم حول أجسادهن ؟ يظل صامتاً فقد تعود أسئلتك التائهة . . . تلحّين :

ـ كيف يستطعن الحب ، والحركة ، والحلم ؟.

ويثور غاضباً :

ـ ألن تكفّي عن أسئلتك الساذجة ؟ هل تعتقدين أن كل النساء العربيات قادرات مثلك على ركوب الطائرات وقتل مللهن بالرحيل ؟.

أحسست أنه يشتمك، وفي المساء سألت بعض نساء « الجبهة » عن سرّ بدانة نساء نواكشوط ، فحدثتك عن « عملية التبليح »، وتساءلت ماذا تعني هذه الكلمة فروت لك ماميا شيئاً مما تجهلين :

« إن كل عائلة ثريّة ترسل بابنتها عندما تبلغ الثانية عشرة إلى الصحراء ، حيث تحل على إحدى القبائل ، وهناك تتم عملية التبليح بأن يشد أحد ساقي الفتاة إلى وتد الخيمة بحيث لا تستطيع الحراك . . . وخلال سنة كاملة تظلّ الفتاة في مكانها ، وتقدم لها القبيلة كل يوم قصعة من حليب النياق ممزوجة بالسكر واللوز . مما يؤدّي إلى بدانتها ، وكلما كانت المرأة أكثر بدانة فهذا دليل على ثراء عائلتها ومكانتها الاجتماعية ، وهو ما يزيد من مهرها ويرغّب الخطّاب بها ».

وسألت « ماميا »: وأنتن نساء الصحراء الغربية هل تخضعن للعملية نفسها ؟ .

فأجابت السيدة الصحراوية: «كان ذلك في الماضي قبل انفجار الحرب ، أما اليوم فالجبهة نظمت وجودنا ، وحياتنا بشكل آخر ».

وفهمت قليلاً لكنك أدركت المسافات الشاسعة التي تفصلك كامرأة عربية عن هذا العصر .

عويل الطائرة .

أم عويل تلك المرأة الجنوبية ؟ .

تختفي الصحراء وتغيب في الضباب ، وها هي باريس تبدو تحت عينيها كما تعودّت أن تراها بعد كل رحيل . أرض وبيوت وحدائق حيادية لا ترسل إليها بأي إشعاع ، ولا تنتظر منها أي ضوء .

ها هي مدينة المنفى الذي سعيت إليه ، ها هي باريس . . .

وتدور الطائرة في فضاء المطار ثلاث مرات ثم تهبط في نهاية ممر مخصّص لها . . . ها هي مرة أخرى تواجه من جديد حياتها . . . ومصيرها . . . وحيدة . . . إنها تعرف جيداً كما يعرف الطفل بغريزته أن ليس هناك من ينتظر وصولها . . . فلماذا السرعة ؟ . . . ولماذا تحاول أن تزاحم المسافرين ؟ .

مرة أخرى تجد نفسها في مواجهة الشرطي الفرنسي كما في كل مرة ترجع فيها إلى هذه المدينة من رحيل . . . إنها متهمة بانتظار براءتها . . . تقف متجلّدة وهادئة ، فمنذ انفجرت الحرب الأهلية في وطنها . . . وهي تعيش مسرحيات صالات الترانزيت ، وشرطة المطارات . . . والأسئلة التي لا تنتهي . . .

قال الشرطي :

ـ سأسأل رؤساء لي فانتظري .

سوف تنتظر لأنها لا تملك سوى الانتظار . . انتحت ركناً في طرف

الصالة تنتظر أن يعود الشرطي إليها بأحد أمرين : إما طردها أو السماح لها بالدخول . وخلال فترة الانتظار طاردتها مشاهد وطرائف وذكريات المطارات العربية التي عبرتها . . . وكي تسلي وحدتها ابتدأت بمطار إحدى الدول المطلّة على الأرض المحتلة كانت قد غابت عن هذه الدولة خمس عشرة سنة بالتمام والكمال ، لم تزرها منذ حريق السبعين الذي حصد أعز أصدقائها . . . كانت مبعوثة من مجلّتها لتغطية مؤتمر اقتصادي يعقد في المدينة ذات الجبال السبعة ، وفي المطار سألها شرطي يتقن لغتها عن سرّ مجيئها إلى بلاده ، فنسيت المؤتمر والمؤتمرين وأجابته ببلاهة : « لقد اشتقت للمدينة » نظر إليها الشرطي باستغراب كأنه ينظر إلى حيوان استوائي . . . كلمة الشوق لا وجود لها في قاموس الشرطة . . . فكيف تجرؤ امرأة مطاردة بتاريخ ولغة كتاريخها ولغتها أن تشتاق دون إذن رسمي ؟ .

في مبنى إدارة المخابرات العامة الذي قادوها إليه لتشرح معنى الشوق ، جهد أحدهم في استجوابها ، وكان جواز سفرها رهينة لديه . عندما أجابته بالجملة التي قالتها للشرطيّ في المطار انتفض من الذعر ونادى أحد مساعديه ليشارك في التحقيق . . حاولت أن تشرح له أن الشوق أقل خطراً من القنابل ، والمؤامرات العسكرية ، وحملات الإعلام المتبادلة بين الأنظمة ، فرفض أن يقبل حجتها ، وأراد أن يعاملها معاملة المئات من مواطني دول عربية أخرى تُخطف جوازات سفرهم في المطارات ، ثم يطلب إليهم أن يذهبوا لمقابلة مسؤولي الأمن والمخابرات ، وتطول الرحلة أياماً وأحياناً أسابيع قد تصل إلى شهور . . . خلال هذه الفترة على البائس أن يتدبّر شؤون وجوده في البلاد . . . وأحسّت نادية أن اللعبة ستطول . . . وأن موظف الأمن قد وجد فيها صيداً ثميناً فهي بحكم مهنتها تعرف كثيراً . . . أكثر مما تكتب . . . الجريمة مضاعفة . إنها امرأة تعرف وتشتاق .

لا تدري كيف توقفت عن الحديث ، وبعد أيّ جملة قالها رجل

الأمن ، لكنها وجدت نفسها تخبط بعنف على مكتبه وتردّد « لن أخرج من هنا دون جواز سفري ، إن ما تفعلونه هو منتهى القرصنة » .

وسمعت صدى صوتها . . . ولمحت ضحكة المحقق الساخرة . . . أين تظن نفسها هذه المجنونة ؟ .

في أوروبا تعودت نادية مجموعة عادات سيئة . . . تعودت مثلاً أن لا يصادر جواز سفرها من دون سبب . . . أن لا تستدعى للتحقيق دون جرم ارتكبته . . . أن تجلس على أرصفة المقاهي وتقول ما تريد . . . أن تقاوم الذل . . . أن تحفظ كرامتها . . .

هذا في أوروبا ، ولكن هنا أمام أبواب السجن العربي ماذا افعل ؟ . .

خيل إليها أنها قالت أشياء كثيرة في فورة غضبها ، وخيل إليها أنها طلبت مقابلة المسؤول الكبير ، وبعد أن تطور النقاش إلى حد الصدام وجدت نفسها في مكتب « الرئيس »، عندما لمحته وهي تعبر عتبة المكتب كادت تصاب بالسكتة القلبية . . . إذ عرفت فيه أحد زملائها في المنظمة الثورية عندما كانا يدرسان معاً في الجامعة الأميركية في بيروت . وللحظات تذكرت حماسه الشديد لكل القضايا التي تشغل عقول الجيل الذي يمثلونه . . . ويبدو أنه فوجىء هو الآخر بوجودها . . . فأحنى رأسه خجلاً بينما ظلّت مستمرة في مكانها تنظر إليه وهو يمدّ يده بجواز سفرها قائلاً : « عليك مغادرة البلاد خلال أربع وعشرين ساعة ». لم يرفع عينيه إليها . . . تركت الغرفة صامتة وانطلقت إلى الشوارع وكأن سكيناً تلاحقها . . . لم تهتف لأحد من أصدقائها في المدينة . . . لم تزر المواقع والأحياء التي شهدت سنة ١٩٧٠ أعنف المعارك وأقساها . . . استقلت أول سيارة أجرة إلى المطار وغادرت ذلك البلد العربي .

ما تزال تنتظر الشرطي الفرنسي . . . تنتقل بها الذاكرة من مطار عربي إلى آخر .

وتتالت أسماء المدن في ذاكرة نادية . . . وتتالت معها الذكريات الحزينة . . . ورأت نفسها مطاردة في كل موانىء وطنها . . . رأت نفسها غريبة في كل مطارات المدن التي تعشق سماع اسمها . . . المدن التي خرجت لأجلها في شوارع بيروت متظاهرة .

تأخر الشرطي الفرنسي ، فلماذا تقلق .

في القاهرة دون سواها من المدن العربية أحست نادية بالمحنة القاتلة ، كانت تشهد كل صباح تلك المحاولة الدائمة لانتزاع ذاكرة شعب . . . بل هويّته . . . بل ذلك الحسّ الغريزي الذي يحياه كل يوم باتجاه من يبكي بلغته ، ويضحك بها ، وينشد التاريخ .

بيروت تقصف بالقنابل الإسرائيلية . . . مصر ملتزمة باتفاقية كامب ديفيد . . . المفاعل الذري العراقي يقصف . . . مصر تدي الغارة . . . لكنها ملتزمة باتفاقية كامب ديفيد ، وهي دولة تحترم مواثيقها وعهودها منذ الفراعنة . . الجنوب اللبناني يقصف . . . اعتداءات على مدن عربية أخرى . . . مصر حريصة على التزاماتها الدونية وتدين الإرهاب . وبحثت عن أصدقائها في القاهرة لتجدهم أما هاجروا أو أصيبوا بالسكتة القلبية أو بالسكتة العاديّة . . لكن من وراء الأهرامات كان يبدو لها أمل ما . . يشرق مع الشمس الأزلية التي تغسل جسد مصر .

ولم يرجع الشرطي الفرنسي .

أحست نادية محمد الإبراهيمي أن دقات ساعة صالة الترانزيت مطارق تهوي على رأسها . وحاولت أن تتسلّى عن غياب الشرطي بأحلامها . . . سوف تدخل باريس ، وستجد أصدقاءها في « كلوزري دوليلي » وستحكي لهم عن رحلتها . سوف يكونون هناك في الركن نفسه . . . يجترّون ماضيهم ويتبارون بالشتائم . . . سوف يقول لها الأخضر بمرارته المعهودة « ألم نقل لك إن السرطان الذي يأكل أجسادنا لن ينفع به الرحيل ؟» أما فاضل فستجده ثملاً كعادته يكيل الشتائم للمقاومة الفلسطينية التي نسيته. . . أما عبد الرحمن فسيبقى الصامت

الأبدي الذي هجره النوم . . . وقد لا تجد محمد بينهم . . هو في مكان ما يعيش تنقلاته السرية . . . ويحلم بإبعاد الدكتاتور . . .

لا ، يكفي جنوناً . . لن تذهب . . . لن تذهب إلى المقهى . . .

سوف تقول لها مارلين سيدة الحانة : ألن تجدي مكاناً أفضل للتسلية ؟ .

وسيعنفها نادر بقوله : هل اجترار الماضي أفضل من استجواب الأمير ؟ . . .

لا . . . لن تذهب . . سوف تبدأ حياتها من جديد . . . وتحاول أن تتجاوز في المرحلة القادمة . . الندب واليأس . . والخيبة . . .

ها هو الشرطي يرجع إليها بجواز سفرها . . . وعلى جواز السفر رسم الأرزة اللبنانية . . . لم يبق من الوطن إلا جوازات السفر . . وتلك المذابح التي تقرأها في الصحف وتسمعها في النشرات الإخبارية .

لم يبق من الوطن إلا مجموعة أشجار أرز على الأعلام اللبنانية المرفوعة في المطاعم العربية في باريس . . . وبقية مدن المنافي . . . لم يبق من الوطن إلا الهجرة وأغاني فيروز . . .

ها هي في باريس مرة أخرى . . .

ها هي تستردّ حقائبها ، وجواز سفرها ، ومنفاها . . .

تستقل أول تاكسي تجده أمامها ، وتطلب من السائق أن يقودها إلى بيتها . . وتنطلق بها سيارة الأجرة نحو «« منيل مونتان » تسمع السائق يثرثر بلكنة برتغالية . فيحدثها عن الطقس ، وأخبار الانتخابات . . .

استمعت للسائق بهدوء . . . والسيارة تعبر (بورت فانسين) . وعن يمينها لاحظت الغابة . . . مساحة جديدة من الأشجار تفصل بينها فيلات صغيرة ، تحيط بها حدائق متلألئة ، أعشابها تستقبل فصلاً جديداً . . ولاحظت نادية أن الشمس تغادر نحو المغيب . . . لم يبق من نورها على أشجار (فانسين) سوى خيوط حمراء يزاحمها الضباب الليلي . . أثارت

خيوط الشمس في داخلها رغبة ما . . . بأن تكون كسواها من النساء . . . بيت . . وأطفال . . . وزوج . . . وأصدقاء ليس لهم ماض . . . لكن هل يكفي كل ذلك لتدمير الوحدة القاتلة التي تطاردها ؟ إن وحدتها تملأ الجسد . . والروح والزمان والمكان . . . بل العالم كله .

آه . . . كم هي بحاجة الآن لأن تكون في بيروت ! لأن تقطع شارع الحمراء دون أن تتساقط عليها القنابل . . . لأن تلتقي أصدقاءها من المثقفين والكتاب والشعراء في مقهى (هورس شو) . . . لأن تذهب إلى (الدولتشه فيتا) لتقابل منفيي الوطن العربي الذين وجدوا في بيروت مأوى لهم ! . . . أهي تحلم ؟ . . . يبدو أنها تناست أو نسيت أن (الهورس شو) أصبح محل شاورما . . . وأن (الدولتشه فيتا أغلقت أبوابها . . . . وأن شارع الحمراء متخم بالفضلات . . هل تنسى أن بيروت قد تغيّرت ؟ . . . وهل تنسى أن كل ما كان يمنحها فرحها وجنونها في بيروت ذهب إلى غير عودة ؟ . وتتذكر نادية . . ما قرأته لكاتب عربي معروف كتحليل لوضع بيروت قبل أن تبدأ الحرب الأهلية . . . يومها ألقت الكتاب وهي تصرخ كأنها أصيبت بطلقة في القلب . . . شعرت بالفجيعة . . . لأنها أحست أن كل ما كان يحولها إلى أميرة فرح في بيروت هو حجر وهم . . . . يوم التقت ذلك الكاتب في القاهرة أشاحت بوجهها عنه فلم تكن ترغب في مواجهة الحقائق . . . تتذكر الآن مقطعاً مما قاله عن بيروت .

« إن بيروت بعد الحرب العالمية الثانية أصبحت مركز الإمداد والتموين الخلفيّ لعمليات البترول الأميركي في شبه الجزيرة العربية والخليج . . . كما أصبحت نقطة تسمّع ومراقبة للمخابرات الأميركية ، وهيّأت حياتها في الليل كي تروّح عن المجهدين عناء النهار . كانت ميزة بيروت أنها على الشاطىء ، وأنها أقرب إلى الغرب ، وأنها بعيدة عن النفوذ الأمبراطوري القديم إلا من بقايا صلة منسية تربط جزءاً من سكانها بثقافة فرنسا ، والحنين إلى أم رؤوم » .

وانتهى قول الكاتب العربي عن بيروت . . . لكن ما فجّره في أعماق

نادية لم ينته حتى اليوم . . . فهل كانت بيروت فعلاً ما وصفها به ذلك الكاتب فقط . . وهل كانت خدعة . . . ؟ هل يمكن لمدينة بروعة بيروت قبل الحرب الأهلية أن تكون خدعة ؟! وإذا كان الأمر كذلك فليكن ؟ أليس حب بنات الليل يمكن أن تكون له روعته كحب الراهبات ؟ .

لا . . . حاولت وتحاول باستمرار استعادة بيروت التي عرفتها . . . حاولت وتحاول باستمرار طردها من حظيرة الأميرة . . . حاولت وتحاول باستمرار تذكّر مقاهي بيروت حيث الندوات الأدبية والسياسية . . . بيوت بيروت وشوارعها الخلفية حيث المقاومة . . . جامعات بيروت التي ثارت لحرب الجزائر . . . وقضية فلسطين . . . ومقتل تشي جيفارا . . . كان لبيروت وجهها الآخر الذي يتناسونه اليوم جميعاً . . . يتناسونه وهم يدمّرونها . كان لبيروت ذلك الوجه الآخر الذي لا يستطيع ذلك الكاتب العربي أن ينظر إليه أو يعرفه . . .

في اللحظات الأخيرة ونادية تهيىء نفسها لصعود الطائرة في مطار نواكشوط ، سألها عمر « وكيف ستتدبرين أمرك . . . كيف ستعيشين في باريس بعد أن فقدت عملك ؟» . هزّت كتفيها كأن الأمر لا يعنيها . . . كأن حياتها اليومية أصبحت مسؤولية امرأة أخرى . . . لم تكن تملك في تلك اللحظة أيّ جواب عن كيفية إعادة صياغة حياتها في باريس . . . فهل تعود للمجلّة وتبتلع الإهانة التي وجّهها إليها نادر متظاهرة أنها لم تفهم قصده من إرسالها للأمير ؟ منذ متى وهي تقدّم هذه التنازلات ؟ .

منذ متى وهي تتناسى الإهانة ؟ .

منذ متى أصبحت على استعداد لتقديم التنازلات ؟ .

حتى الآن ما تزال رافضة لذلك . لكن من يدري لو طالت الحرب الأهلية . . . ماذا تفعل ؟ في الماضي كانت تقول : « أنا مستعدة لتقديم تنازلات جزئية من أجل حياتي اليومية ، لكن عندما يخص الأمر قضية تختلف الرؤيا . . . » .

واليوم ضاعت المسافات بين الأشياء ، وأصبحت التنازلات ممكنة في ظل البنادق ، والقنابل ، وراجمات الصواريخ ، والموت المجاني ، والجوع الذي يهدّد وطنها .

لم تكن لديها القدرة على الخيار . . . انطلقت بها السيارة من « بورت فانسين » باتجاه بيتها في الحي العشرين . . . وعلى ضوء الغروب الضبابي كانت تتأمل باريس من بعيد . . . خيّل إليها أن المدينة أصبحت هرمة ومتآكلة كأنها شاهد على عالم يتداعى . . . على حضارة تسقط . . لكن دون بديل كما قال لها ذات مرة أجمل عجائز فرنسا أندريه مالرو في أحد مقاهي « ساحة فوج » وهو يشير بقداسته إلى بيت فيكتور هيجو . وأحست كأنها تزور باريس للمرة الأولى . رأت من بعيد أعمدة المداخن الأسطوانية السوداء لا . . . بل الرمادية . . . هل تحول العالم كلّه إلى الرماديّ ؟ .

رعشة الصقيع . . . الضباب . . . مداخن باريس . . وسائق يخطر بباله أن يمزق الصمت بأغنية (فادو) تمثل ذاكرة الرحيل للبرتغاليين نحو أميركا . . . لا تدري لماذا تشعر برغبة في البكاء كلما سمعت أغاني (الفادو) . . أول مرة كانت تزور ليشبونة انطلقت من المطار إلى الميناء لترى موقع الرحيل نحو أميركا . . . نحو أطراف الأرض كلها . . . وبينما كانت تتأمل زرقة المحيط سمعت من بعيد مغنياً عجوزاً ينشد أغنية (فادو) تعود إلى زمن الرحيل . . . اقتربت من الشيخ فوجدته يبكي . . . جلست إلى جانبه بصمت وبكت . . . رددت معه مقاطع من الأغنية دون أن تفهم معناها . . . وظل يغني . . . وظلت تبكي لأنها أدركت أنه يغني الرحيل والمنفى . . .

يقول السائق البرتغالي بلغة فرنسية مشوبة بلكنة برتغالية .

ـ ها قد وصلنا يا سيدتي .

وتتنبه نادية من شرودها . . ها هو الحيّ الذي اختارته وطناً بديلاً . . . ها هو شارع (منيل مونتان) الذي يتسلّق هضبة المدخل

الشمالي للمدينة . . . ها هو الحيّ الفقير المتخم بالزنوج والعرب من المهاجرين الذين جاؤوا باريس بحثاً عن لقمة العيش . . . وبحثت بعينيها عن مقهى (البرج الفضّيّ) الذي اعتادت أن تتناول فيه قهوتها كل صباح ، لتلتقي بعمال الحيّ وهم يذهبون إلى أعمالهم ، ها هو المقهى وها هو الجدار المهدم لكنيسة القديس (سان جوزيف) . وخلف الجدار حديقة مهملة وإلى جانبها مدخل بناء مظلم يقود إلى البيت الذي تسكنه . . . عندما سمعت نادية صوت حذائها على عتبة البيت سرت في الجسد رعشة باردة ، وأحست أنها تعبر عالم الرحيل إلى عالم دون أحلام أو أوهام .

تدور في أرجاء غرفة نومها وحيدة . . . وموجعٌ أن تكون امرأة وحيدة في باريس . . . ها هي تحاول استعادة رحلتها الأخيرة إلى شمال أفريقيا . . . ها هي تستنجد بحرارة الصحراء ، وكلمات عمر ، ووجوه النساء اللواتي قابلتهن في الخيام ، لكن الريح الباردة تتدفق من شقوق النوافذ الخشبية لتبدّد حرارة الذكرى . . . وتدور في أرجاء الغرفة . . . تدور على نفسها . . . ومع نفسها . . . محاولة نسيان الماضي . لكن عبثاً . تتذكر المقهى . . . المقهى حيث الأصدقاء الذين تنتمي إليهم . . . المقهى والأصدقاء . . .

لا . . . لن تذهب إلى المقهى ، لا . . . ولن تستسلم من جديد لأسطورة الندب والماضي . . . ستحاول أن تجد بديلاً يساعدها على أن تبدأ من جديد حياة أخرى . . . هل يمكن لامرأة في الثلاثين أن تبدأ حياة أخرى بعيدة عن الوطن ؟! .

هل يمكن استبدال الأوطان والماضي ؟ .

لن تذهب إلى المقهى ، لن تذهب ، فقد ملّت لامبالاة الأخضر الجارحة . وصمت عبد الرحمن القاتل ، وثرثرة فاضل عن الثورة الفلسطينية ، وغياب محمد المفاجىء وحضوره المفاجىء للحديث عن الماضي . . . ماذا عن المستقبل ؟ سؤال يعذبها لكنها لا تجد له إجابة سوى حرائق بيروت اليومية !

إنها الثامنة مساء ، ولن تذهب إلى المقهى . . . تمدّ يدها إلى درج (الكمودينا) لتخرج صورة أبيها . . . تتأمّل الصورة جيداً . . . شاربان كثان يتهدّران على طرفي الفم ، وعينان عسليتان تشعّان بحلم بعيد بعيد لم يتحقق . . . تشعر أن وجه أبيها لم يعد يمنحها ذلك الدفء الذي كانت تشعر به في الماضي عندما تنظر إلى الصورة . . . حاولت الاستنجاد بذكرى . . . بحلم . . . بأمل كي تبدأ تلك الحياة الجديدة . لكن عبثاً . . . فالفراغ من حولها يلغي كل شيء . . . الفراغ في رأسها . . . في جسدها . . . في عينيها . . . الفراغ في دمها بعد أن هجرتها قدرتها على التخيل والذكريات . . . عاصفة من الفراغ تلفّها فتلون العالم كله بالدم والموت .

مدّت يدها إلى الهاتف محاولة الاستنجاد بأصدقائها ، فأدارت رقم عبد الرحمن : لا جواب . . . رقم فاضل : لا جواب . . . رقم الأخضر : لا جواب . . . وأخيراً رقم محمد السرّيّ الذي يخفيه عن أحبّ الناس إليه . . . لا جواب أيضاً . . . هل اختفى رفاق المقهى ورحلوا إلى عالم آخر ؟! .

الساعة تشير إلى الثامنة مساء .

الريح تعصف مجنونة خارج جدران الغرفة . . . أحسّت ألماً في الجهة اليسرى من الصدر ، ألماً عميقاً ثقيلاً كقطعة الرصاص . . كشظية . . جدران الغرفة تطبق على صدرها . . . وترغب في الهرب إلى أيّ مكان في هذه المدينة . . لماذا لا تذهب إليهم في المقهى كما تعوّدت ؟ . لماذا لا تعود من جديد إلى اجترار العجز والماضي ؟! أليس في الماضي راحة من قهر الحاضر ؟ .

ولكن تخاف أن يسألوها عن سرّ عودتها ، وتجد نفسها مضطرة للشرح . . . وتجدهم يقولون لها بمرارة : « إن الرحيل لن يجدي » .

عندما كانت في نواكشوط قالت لعمر بثقة مطلقة « لن أذهب إلى

المقهى ». وأضافت « لن أدمن الحديث عن الماضي . . . سوف أبدأ من جديد ».

وفي الطائرة أكدت لنفسها ما قالته لعمر ، لكنها في هذه اللحظة تشعر أن كل ما قالته عبث وقبض الريح . . . إنها بحاجة لأصدقائها كي تواجه وحش الغربة القاتل .

****

دنغ . . . دنغ . . . دنغ . . . إنه صوت ساعة محطة الجسر الملكي . . .

اكتشف فجأة أنها على رصيف محطة « بون رويال » مقابل مقهى « كلوزري دوليلي » كان المقهى يشع دفئاً على الطرف الآخر . . . بينما يسمع خلفها صفير قطارات الضواحي تمزّق سكينة الصقيع . . . بداية الليل الشتائي وهي تتأمل كل شيء من حولها فلا تجد جديداً . . . كل شيء في مكانه . . . مبنى اتحاد الطلبة . . . تمثال الجنرال (فوش) بحجمه الطبيعي وتحت قدميها الرصيف الحجري البارد . . . كل شيء من حولها يبدو هذه المرة في حجمه الطبيعي . . . عندما حاولت أن تتأكد من ذلك ضربت الرصيف بقدميها فأحست صلابة الأرض وصقيعها . . . أرض صلبة تحت سماء رمادية شتائية تنذر بالعاصفة .

إنها تنتظر العاصفة ، ومن أجل ذلك كشفت صدرها لتستقبل المطر . . . على الطرف الآخر ! مقهى « كلوزري دو ليلي » يشع دفئاً . . . ترتفع أمامه أكوام القواقع البحرية ، وتبدو من خلف زجاجه وجوه الزبائن غير محدّدة الملامح . هل تعبر إلى الطرف الآخر لتعود إليهم ؟ . . . هل تبدأ من جديد سيمفونية النسيان واللانسيان . . . الحرب واللاحرب . . . الماضي . . الحاضر ؟. الندب والنواح والشتائم . . . ؟ هل تعبر من رصيف الجسر الملكي إلى مقهى « كلوزري دوليلي ».

صوت ما . . يأمرها أن تعود إلى البيت وتدفن وحدتها في صمت الغرفة ، ولكن كلما اشتد البرد ضاع الصوت ليختفي في صفير القطارات

الراحلة نحو الضواحي . . ويضيع الصوت . . . وتجد نفسها تعبر الشارع راكضة باتجاه المقهى . . . تدفع الباب الزجاجي لتدلف إلى الداخل كأنها مطاردة . تلفحها حرارة المكان وتلمح عن بعد عازف البيانو العجوز ، ووجه مارلين سيدة الحانة : ما أن لمحتها مارلين حتى صرخت بفرح كالأطفال « الحمد لله على سلامتك يا سيدة نادية » واندفعت المرأتان لتتعانقا . . أحست نادية بحرارة اللحظة ، وسألت مارلين « أين هم ؟» .

ابتعدت قليلاً إلى الخلف ، وتأملت نادية وهي تبحث بعينيها في الركن المعتاد من المقهى . كان الركن خاوياً ، كأنه القبر . . شعرت مارلين بخيبة نادية فتجاهلت نظراتها وقالت لها بصوت هادىء وهي تمسك بكفها « أترغبين بكأس براندي يا نادية ؟ إنّ كفك باردة كالثلج ؟» .

هزّت نادية رأسها بالإيجاب ، لكن سؤالها عن أصحابها ظل معلّقاً دون جواب . . . عادت ساعة الحائط ترسل صوتها كصوت بوم عجوز . . . وحملت نادية كأس البراندي واتجهت إلى المائدة الخالية التي تعوّدوا الجلوس إليها . . ألقت بنفسها على المقعد المواجه لشارع (مونبرناس) كما اعتادت أن تفعل من قبل . . . كانت تنتظر أن يأتوا ولا يأتوا . . . كانت تنتظر بفراغ صبر أن ينشق باب المقهى عن رفاقها . . .

ومضت لحظات ثقيلة باردة . . . ثم خيل إليها أنها تسمع صوت مارلين التي احتلت المقعد المقابل . انتفضت نادية كأنها تخرج من رعشات حمى مدارية ورددت سؤالها :

ـ ألا تعرفين أين ذهبوا ؟ أقصد هل قال لك الأخضر شيئاً ؟ .

قالت مارلين :

ـ اسمعي يا سيدة نادية . . . مضى زمن لم يأتوا إلى هنا ، وقبل أيام جاء الأخضر وأبلغني أن فاضل وعبد الرحمن ، ومحمد رحلوا عن باريس .

ـ ألم يخبرك أين رحلوا ؟ .

ـ لا ، كان يأتي إلى هنا وحيداً ويجلس في مكانك . . يتأمل شارع مونبرناس . . يسكر حتى الثمالة ، ثم يمضي . . . قال لي مرة إنهم رحلوا إلى ما وراء المتوسط وانتشروا في المدن التي تردّدون اسمها .

ـ وماذا عن الأخضر ؟ .

ـ قال إنه سيرحل . . لكنه عاد إلى المقهى مرة أخرى .

ـ ومتى رحلوا ؟ .

ـ لا أدري ، لكن أظن أنهم مضوا بعد ذلك المساء .

وسألت نادية مارلين عن أي مساء تتحدث فأجابتها مارلين :

ـ ذات مساء جاؤوا جميعاً ، ورأيتهم في هذا الركن يتكلمون لغات غريبة . . يجلسون متقابلين كما تعوّدوا . . . يملأون الزمان والمكان ضجيجاً . . . وبعد ذلك المساء ذهبوا . . . ولم يعد أحد . . .

كانت نادية ترتعش من الألم ، وشعرت فجأة أن العالم كله تحوّل إلى رماد . . . أغلق أبوابه في وجهها . . . منعت نفسها من الصراخ ، لكنها لم تمنع نفسها عن الإمساك بكتفي مارلين . . هزّتها بعنف . . هزّتها علّها تستفيق من آثار السكر . كانت عيناها تطوفان المكان كأنها تنتظر مجيئهم . . . علّهم يختبئون تحت شقوق الأرض . . خلف الستائر . . . في تلافيف الضباب . . . تبحث . . . تبحث . . وصوت مارلين يردّد « ذهبوا جميعاً ، ملأوا الزمن والمكان بضجيجهم . . . ذهبوا ولن يعودوا » .

لم تعد نادية تسمع بقية كلمات سيدة الحانة، واغرورقت عيناها بدموع ألف عام احتبستها في الصدر. . . كانت ترتعش كحمامة تحت المطر . . . وبعد لحظات هدأت فسمعت تطلب من النادل كأساً ، وكأساً وكأساً . . . واستمرت الريح تعصف بقوة خارج المقهى . . . الليل يمضي . . . وضجيج المقهى من حولها يهدأ ،

وآخر أنوار محطة (بون رويال) تنطفيء ، بينما مارلين تروي لنادية للمرة الأولى قصتها مع الضابط الألماني الـذي حاول اغتصـابها أثنـاء احتلال باريس فقتلته .

كـانت نـاديـة كمـا مـرلين قـد وصلت إلى المـرحلة العليـا من الغيـاب بفعـل الكحـول . تلك المـرحلة التي تستـوي فيهـا الأشيـاء، وتختلط الصـور ، وينبثق الحـزن عـاصفـاً . . . نـظرت حـولهـا . كان المكان شبه خاو وكانت تشعر ألماً في الظهر . . . ألم عاصف كـأنه طعنة رمح . . ولا تدري لماذا تـذكرت أول رحلة لهـا إلى قرطبـة ، يوم شهدت للمرة الأولى في حياتها حفلة مصارعة الثيران . . . تذكرت تلك الرحلة بفعل الألم الحاد الذي يتركز في الكتف ثم ينتقل إلى الرأس . . . فالجبهة بين العينين . . .

سمعت صوتها يروي ، بينما مارلين تحدق في عينيها وتهز رأسها ، كيف كان الثور يجري مجنونـاً في باحـة الملعب . ثور طفـل لم يتجاوز الثالثة من عمره يا سيدة مارلين . . . قال لي مرافقي خوسيه الـذي كلفته وزارة السياحة بمرافقتي أثناء زيارتي للأندلس « إنه ثور من فصيلة « النيو فيلوس ». هل سمعت بهذه الفصيلة يا سيدة مارلين ؟ .

هزت مارلين رأسها بالإيجاب ، وظلت نادية تروي :

ـ كان الثور يجري في أطراف السـاحة منـدفعاً بقـوة هائلة ، وقـالوا لي : إنّه لم يأكل منذ ثلاثة أيام . . . تحسّست بطني ، ومـرّت لحظات هلع ظننت فيهـا أنني ذلك الثـور المرصـود للقتل . . . بـدأ الثور ينـظم هجماته على مصارعيه ، وبدأت المنافسة . . . المناوشة . . . بدأت لعبة الموت . . . .

ثـلاثة من المصـارعين بلباسهم المـزركش ، بأرديتهم ذات الألـوان الفاقعة ، بأوشحتهم الحمراء ، ثلاثة يصرخون وبصوت واحد : أوليه . . أوليه . . يطلق المصارع سهمه فينغرس في ظهر الثـور ، وتتطايـر أسهم أخرى في الهواء ، لكن الثور لم يمت بل اشتد هياجه ، وسال دمـه . أحسست أن السهام موجّهة إلى صدري يـا سيدة مـارلين . . شعرت أن

الطعنات في ظهري . . أمسكت بيد خوسيه وصرخت : « أوقفوا ذلك » . . . تلفّت الجمهور نحوي باستغراب وأحسّ خوسيه بالخجل . . . قال لي « كلّ الذين يحضرون حفلات الصراع للمرة الأولى يصرخون مثلك » ولم يكن خوسيه يدرك أنني لا أصرخ خوفاً بل ألماً ودهشة لاكتشاف التشابه الرهيب بيني . . . بين وطني وذلك الثور المرصود ، والسهام المسمومة . . . هل تفهمين يا سيدة مارلين ؟ » .

هزت سيدة الحانة رأسها بالإيجاب ، واستمرت نادية في روايتها :

ـ لم يكن بمقدرتي متابعة الجولة الثانية من المصارعة بكامل الوعي . . . وفكرت بأن أهرب من منظر الدم ، أغمضت عيني وأخفيت وجهي في صدر خوسيه . قال لي فيما بعد : « إن المصارع ظل يلاعب الثور الجزع بقضيب محلّى بالشرائط الملونة ، حتى استطاع أن يغرز ما تبقّى من رماح معه في صدر الثور . . . » .

عندما فتحت عينيّ من جديد كي أتأكد من صحّة ما يرويه خوسيه شهدت الفصل الأخير من الصراع ، وكان فصل القتل . . . فصل اللقاء الحاسم بين الثور ومصارعيه . تقدم التوريرو . . . هل تعرفين التوريرو يا سيدة مارلين ؟ وهل شهدت حفلة مصارعةثيران . . . لا بأسٍ ، غير مهمّ . . . لم تشهدي . . . دعيني أقول لك : تقدّم التوريرو حاملاً بيديه وشاحه القاني ثم نشره على قضيب خشبيّ ودار حول الثور راقصاً رقصة الموت ، توقفّ فجأة فكانت ضربة السيف القاضية بين القرنين . . إنها أضمن الطرق وأنجعها لقتل الثور . بينما انطلقت من أطراف المدرج صيحات الإعجاب من حناجر المتفرجين . . . وظلّ الثور هائجاً رغم الرماح الأربعة التي استقرت في جبهته كأنها تاج ملك الإله « ميكتي زوما » إله الآزتيك الذي بنى مكسيكو فوق البحيرة . وظل الثور هائجاً يا سيدة مارلين . (كأس أخرى من البراندي أيها النادل . . كأس أخرى) ظلّ الثور حيّاً يا سيدة مارلين . . حياً يمتلك تلك القدرة الهائلة على القفز ، ولا أدري لماذا تذكرت بيروت . . لا أدري لماذا تذكرت حقول التبغ في

الجنوب . . . صوت أبي ينهر الأرض في بداية الربيع « أيتها الأرض اخجلي من نفسك ! ».

ظل المصارعون يناوشون الثور وأنا أصرخ . . . وأصرخ . . . وأصرخ . . . حتى ضاق بي الجمهور ، وغلبت صيحاته على صوتي : « أوليه . . أوليه . . أوليه » فجأة وسط هذا الصراخ استطاع أحد المصارعين الراكعين أمام الثور إلحاق ضربة سيف قاضية به جاءت في الصدر ، فخارت قوى الثور وسال دمه أحمر قانياً ، نقياً يا سيدة مارلين .

صفقوا جميعاً . . . صفق خوسيه مرافقي بحماس ثم مدّ يده إلى شعري فانتزع وردة حمراء كان قد قدّمها لي شباب جمعية « ابن زيدون في قرطبة » هل تعرفين ابن زيدون يا سيدة مارلين ؟ . . . لا بأس أنت لا تعرفينه . . . هو شاعر أندلسي مجنون . . عاشق في زمن الطوائف . . . غير غير مهمّ أن تعرفيه . . سيأتي يوم أحدّثك عنه . . انتزع خوسيه الوردة الحمراء من شعري وألقى بها مع آلاف الورود ، والقبعات في الهواء ولم يكن يدري وهو يفعل ذلك أنه يقتلني .

مات الثور ورفع المصارع يده منتصراً . . . دُمّرت بيروت .

. . . منحت هيئة التحكيم العليا المصارع ذلك الثور هدية له . . . وهي أرفع هدية يتلقّاها مصارع يا سيدة مارلين .

« تدافع المتفرّجون إلى المنصّة ثم علت هتافاتهم . . . وبصمت . . . غافلت خوسيه وتسللت وحيدة من المدرج أركض كالمجنونة في شوارع قرطبة بينما أصواتهم تلاحقني « أوليه . . أوليه . . أوليه ».

« وصلت متحف مصارعة الثيران على الهضبة المطلّة على المدينة ، وكم دهش الحارس العجوز لرؤيتي ، فهو لم يعتد أن يزور متحفه أحد يوم تكون هناك حفلة صراع . . رجوته أن يفتح لي أبواب المتحف ففعل ، ومشى إلى جانبي صامتاً . . . كان المتحف بارداً . . . رمادياً ،

وكنت وحيدة أصطدم بالريح ، وصوت قدميّ على الرخام الأسود ، ونحنحة الحارس العجوز .

« هل تعرفين متحف الثيران في قرطبة يا سيدة مارلين ؟ . . . لا بأس سأحدثك عنه : متحف مقفر . . على الجدران صور كبار المصارعين الذين سقطوا مضرّجين بدمائهم فوق أرض الحلبة . . كل مصارع ينتهي إلى السقوط وحتى (مانيوليتي) الذي سقط يوم ٢٨ آب سنة ١٩٤٧ ، كما كانت تشير اللوحة النحاسية تحت صورته . . . حتى مانيولتي أجمل المصارعين وأكثرهم براعة . . . يوم سقط (مانيولتي) أمام الثور صريعاً بكت اسبانيا كلّها . . .

« وخرجت من المتحف أركض في شوارع قرطبة . . كانت شهوة الانتقام من المصارعين قد هدأت في داخلي لكنني لم أمنع موت الثور . . . وجدت نفسي على رصيف أحد المقاهي أتأمّل أفواج المتفرجين تترك الملعب ، ورأيت خوسيه يقبل عليّ ويقول لي : « إنه بحث عني في كل مكان » . . ويردّد « كنت خائفة . . كنت تصرخين كالمجانين » ونصحني ألا أشهد فيما تبقّى من حياتي مصارعة الثيران . . . أكان يطلب المستحيل ؟

« عندما سألته إذا كنا نحن العرب من أدخل هذه الرياضة الوحشية إلى أسبانيا ؟ أجابني ضاحكاً :

« إننا نعترف لكم بفضائل كثيرة ، لكن اليونان هم أول من ادخل مصارعة الثيران إلى الأندلس » .

وسحب خوسيه نفساً من سيجارة كانت تستقر قبل دقائق فوق أذنه ، ثم أضاف : « أما أنتم يا سيدتي فقد أدخلتم إلى بلادنا فن الفروسية . . وبعد رحيلكم رحلت الخيول أو لنقل إنها نفقت في محاكم التفتيش فتحول الرعاع إلى مصارعة الثيران » .

عندما قلت لخوسيه » « إن هذه الرياضة هي منتهى الوحشية

والقسوة » رفع صوته ضاحكاً ونادى على نادل المقهى يطلب زجاجة نبيذ معتق .

« زجاجة نبيذ معتق منذ أيام العرب أيّها المواطن . إن ضيفتنا اللبنانية تخاف منظر الدم » .

تحسّست جواز سفري المزين بأرزة ذهبية يا سيدة مارلين ، وخجلت من نفسي عندما سألني خوسيه بخبث : « عن آخر أخبار الحرب في بيروت»؟ هربت من الجواب، تعرفين يا سيدة مارلين أنني لا أملك جواباً محدّداً على سؤاله . . . حاولت أن أتأمل من حولي البيوت العتيقة في قرطبة . . . أشجار البرتقال والنارنج التي قال لي عمر إنها ترسل في إشبيلية بعطر آسيوي خفيّ . . . بحثت عن مساحات للحلم كي أهرب من أسئلة خوسيه ، لكنني اصطدمت بالجدران من حولي . لم يعد هناك مساحات للحلم حتى في قرطبة . . . لم يعد هناك مساحات للحلم حتى في قرطبة .

وصرخت نادية بصوت جارح .
« هل تفهمين ما أقول يا سيدة مارلين ؟» .

اكتشفت نادية أنها كانت تتحدث لسيدة الحانة باللغة العربية ومارلين تهز رأسها بينما يبدو على وجهها كأنها فهمت كل شيء . . . ومدّت مارلين يدها تمسح كفّ نادية المبسوطة على المائدة بحنان . . . .

خلا المقهى من زبائنه . . لم يعد يعرك الصمت سوى صوت المرأتين وبعض أنغام تنبعث من ذلك الركن حيث مازال العازف العجوز يضرب مفاتيح البيانو .

نادية ومارلين متقابلتان . . الكأس العاشرة أو المائة ، فبعد الكأس الأولى تتشابه الأرقام . . . وبعد الجرح الأول تتشابه الجراح والطعنات . تتزاحم الكلمات وتختلط لترسم عالماً ، ومدناً ،وحروباً ، ووجوهاً للحب .

تردّد نادية :

ـ قلت : لم يأتوا يا مارلين . . . وقلت إنهم رحلوا . . . وقلت إن الأخضر سيرحل بدوره ؟ رحلوا جميعاً . . رحلوا بعد أن ملأوا الزمان والمكان بضجيجهم .

وتمر فترات صمت تسأل بعدها نادية :

ـ أفهم أن يجد محمد مدينة يرحل إليها على الطرف الآخر من البحر ، وأفهم أن يجد عبد الرحمن هو أيضاً مدينة أخرى . . وأفهم أن يجد الأخضر مساحة رمل يركن إليها ولكن ماذا عن فاضل ؟ فاضل يا سيدة مارلين فلسطيني وكما تعرفين فأبواب المدن العربية كلها مغلقة في وجهه . . .

قالت مارلين :

ـ قال الأخضر إنه رحل إلى مدينة في الشرق ، وأظن أنها بيروت .

ارتعشت نادية كأنها تسمع اسم بيروت للمرة الأولى في حياتها ! ارتعشت ، وأحست حرارة جسدها تطغى على روحها .

ـ مارلين . . أشعر بالبرد يا مارلين . . .

حملت سيدة الحانة شالها الصوفيّ الأسود ولفّت كتفي نادية . . كان كل شيء يغرق في الصمت من حولهما . . . وحتى صوت البيانو العتيق قد تلاشى .

عن رواية المؤلفة السابقة

الوطن في العينين

«لأول مرة تصدر امرأةٌ عملاً روائياً كبيراً بوصفها إنساناً، وليس بوصفها أُنثى، وهو كسب كبير. . . لأول مرة تظهر بوضوح تفاهة التسمية الدارجة التي تتحدث عن «الأدب النسائي» بوصفه شيئاً مخالفاً لـ«الأدب الرجالي».

. . إن الرواية العربية، بفضل «الوطن في العينين» هي الآن أكثر صدقاً وإخلاصاً للواقع العربي مما كانت قبل أن تمسك حميدة نعنع قلمها ـ الريشة ـ وترسم لنا خريطة فلسطين الدامية.

الدكتور علي الراعي
مجلة «المصور»


صمّم الغلاف
ناصر السُّومي



هاتف ٣٧٧٨
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت